

الرواية العربية في السودان بإشارة خاصة إلى
روايات الطيب صالح
(دراسة تحليلية)

Alriwaya Al-Arabia Fi Al-Sudan Beisharatin khasatin ila Riwayate Al- Tayyeb
Salih
(Dirasah tahliliyah)

بحث جامعي لنيل شهادة الدكتوراه

تقديم
طفيل أحمد

تحت إشراف

البروفيسور مجيب الرحمان



مركز الدراسات العربية والإفريقية
مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهرلال نهرو نيو دلهي-٦٧
٢٠١٦



مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

Dated: 21/07/2016

DECLARATION

I declare that the thesis entitled “*Arabic Novel in Sudan with Special Reference to Tayyeb Salih’s Novels: An Analytical Study*” submitted by me in partial fulfilment of the requirements for award of the degree of Doctor of Philosophy of Jawaharlal Nehru University is my own work. The thesis has not been submitted for any other degree of this university or any other university.


Tufail Ahmad
(Research Scholar)


Prof. Mujeebur Rahman
Supervisor

(CAAS/SLL & CS/JNU)
Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067


Prof. Rizwanur Rahman
Chairperson

(CAAS/SLL & CS/JNU)
Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -110067

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد بن عبد
الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يعتبر الفن الروائي من الفنون الأدبية الحديثة الهامة، وهو أدب يهتم
بتصوير الحياة البشرية والبيئة والمجتمع الإنساني بما فيها من أفراح وأتراح
بصراحة، يرتبط هذا النوع الأدبي بالمجتمع والحياة ارتباطاً وثيقاً، ولهذا تعد من
أقوى الأجناس الأدبية في معالجة القضايا الاجتماعية المعاصرة، ولها تأثير كبير
على المجتمع وحضور كبير في الحياة الإنسانية، كما لها دور بارز في إثراء
الآداب والفنون في جميع أنحاء العالم، وقد حظيت باهتمام كبير من النقاد
والباحثين حتى تحولت في القرن العشرين إلى أداة فنية للوعي بمصير الإنسان
ونفسياته وسلوكياته وآلامه وآماله وطموحاته، وكذلك للوعي بالواقع الذي يعيشه
المجتمع وقضاياها.

إن الرواية بمقوماتها الفنية فن جديد وافد دخل في الأدب العربي عقب
الاتصال بالغرب وثقافتها، وقد ترجمت عدد كبير من الروايات الغربية إلى اللغة
العربية على أيدي بعض المثقفين العرب، حتى أصبحت الرواية ذات أهمية كبيرة

بفضل خصائصها الفنية، فقد صدرت أول رواية عربية مكتملة من حيث الفن "زينب" عام ١٩١٤م للأستاذ محمد حسين هيكل، ثم تواصلت مسيرة الرواية العربية حتى بلغت في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين أوج مجدها وذروتها من الجانب الفني، وقطعت شوطا كبيرا في تطورها وإنتاجاتها ومعالجة القضايا الاجتماعية، واحتل هذا الفن الروائي مكانة مرموقة في الأدب العربي الحديث والمعاصر، وتمكن الكتاب والروائيون العرب في إنتاجاتهم الروائية على الانطلاق من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي.

وفيما يخص بالأدب العربي في السودان، فنشأ الأدب العربي السوداني تحت ظل الاستعمار البريطاني وتطور فيها، وفي البداية كان متأثرا بالأدب العربي المصري، ثم تحرر بعد ذلك من قيود المصريين، وذلك لأن الثقافة المصرية وآدابها كانت أول ملقى خارجي مفتوح للكتاب السودانيين، وكانت محاولة تقليد الأنماط والتقنيات المصرية خطوة طبيعية بالنسبة لهم، قبل أن يتمكنوا من تطوير أسلوبهم الخاص المعبر عن ثقافتهم وآدابهم خاصة نقية.

وفيما يتعلق بتطور الرواية العربية في السودان، فإنها جاءت منذ فجر النهضة الوطنية، وتأخرت بأربعة عقود من مثيلاتها في البلدان العربية الأخرى، ولها أسباب عديدة، أهمها: الاحتلال البريطاني، ظل السودان يتنفس خلاله أجواء من الركود الثقافي والجمود الفكري إلى فترة طويلة مليئة بعدم الاستقرار السياسي، وتوجد هناك عوامل وأسباب أخرى تسببت بشكل كبير إلى تأخير ظهور الرواية

العربية في السودان، ومن أهمها تأخر النهضة الثقافية وصعوبة النشر والطباعة، وأن الثقافة السودانية هي ثقافة شعرية ويغلب الشعر على المزاج السوداني، وعلى الرغم من ذلك كله جاءت المحاولات الأولية في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين حين ظهرت رواية تاجوج لعثمان هاشم في عام ١٩٤٨م، ورواية إنهم بشر لخليل عبد الله الحاج الذي كتبها في عام ١٩٥٤م ولكنه لم يستطع نشرها إلا في عام ١٩٦٠م في القاهرة، وظهرت رواية بداية الربيع عام ١٩٥٨م لأبي بكر خالد، ورواية الفراغ العريض لملكة الدار محمد التي كتبتها في الأربعينات إلا أنها تأخرت في الظهور وتم نشرها عام ١٩٧٠م. فكان هؤلاء الكتاب من الرواد الذين قاموا بتأسيس دعائم القصة والرواية في السودان وترسيخ أساسها.

شهدت الرواية العربية السودانية قفزة نوعية كبرى في الستينيات من القرن العشرين إذ ظهر فيها عدد كبير من الروايات على يد كل من السير حسن فضل الذي أصدر روايته من أجل ليلي عام ١٩٦٠م وأميين محمد زين الذي نشر روايته لقاء عند الغروب عام ١٩٦٣م، إلى أن برز على ساحة الرواية الطيب صالح برواياته وتلاً نجمه، صدرت روايته الأولى عرس الزين عام ١٩٦٣م وموسم الهجرة إلى الشمال عام ١٩٦٦م ويندر شاه (المكونة من جزئين: مريود وضوء البيت) عام ١٩٧٨م. واحتل مكانة مرموقة ليس بين الكتاب والروائيين السودانيين فحسب بل أصبح واحداً من أفضل الروائيين في العالم. ولقب بـ"عقري الرواية العربية".

قامت شهرته على رواية موسم الهجرة إلى الشمال، إنها رواية متميزة لما تتصف به من التعبيرات الرشيقة والجمل القصيرة والألفاظ السهلة بأكمل معانيها وأوضح مفاهيمها، وهذه الرواية مرآة لما يتسم به المجتمع السوداني من التقاليد والعادات وعاكسة لما يوجد فيه من نظريات وتفكيرات الغرب تجاه الشرق، وهذه الرواية تركز على استغلال الإستعمار لدول العالم الثالث بما فيها السودان وتبرز مشاكل الحياة الريفية السودانية.

حاول المؤلف في هذه الرواية التركيز على الصراع بين الحضارتين الغربية والشرقية، والصراع بين القوى المستعمرة والبلاد المستعمرة المعبودة، وصور البيئة الريفية في ود حامد تصويرا دقيقا مثيرا، وكشف عن حياة القرويين في الريف بما فيه من الخير والشر.

لم تتوقف مسيرة الرواية العربية السودانية بعده، بل واصلت مسيرتها واستمر صدور الروايات تلبية لحاجات القراء والمثقفين، وظهر عدد كبير من الروائيين السودانيين الذين ساهموا بأعمالهم في الرواية العربية السودانية مساهمة فعالة، كليلي أبو العلا وأحمد محمد الملك وإبراهيم اسحاق وإبراهيم بشير وأمير تاج السر وعبد العزيز بركة ساكن وبثينة خضر مكي وزينب بليل ومنصور الصويم وغيرهم.

وإذا أمعنا النظر على الموضوعات التي قد تناولتها الرواية العربية السودانية وجدنا أن معظم الأعمال الروائية السودانية منذ بدايتها تبدو مرتبطة بالمجتمع وأكثر تركيزا على الواقع المعاش وتطرح الكثير من القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

والسياسية، وفيما يتعلق باتجاهات الرواية العربية السودانية من ناحية البناء الفني فهيتسم بالاتجاه الرومانتيكي والاتجاه الواقعي النقدي والاتجاه الواقعي الاشتراكي. ورغم هذه الحقيقة الثابتة الدالة على التطورات والإنجازات الروائية العربية الرائعة في السودان والمساهمات القيمة للكاتب الشهير الطيب صالح في مجال الرواية العربية لا يعرف عدد كبير من الباحثين والدارسين والطلاب في الهند عن خدماته الهامة في مجال الفنون الأدبية الحديثة كما أنها لم تتل من قبل المحققين والباحثين في الهند عناهيتهم واهتمامهم، هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني للإطلاع والسبر في أغوار الرواية العربية السودانية وخاصة روايات الطيب صالح وبالأخص رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" التي تتناول قضية الصدام بين الحضارتين بشكل فني راق، فدفعني هذه العوامل إلى أن أبرز صورة واضحة للرواية العربية في السودان والمساهمات التي قام بها الروائي العالمي الطيب صالح في إثراء الرواية العربية وتطويرها في السودان.

ولإنجاز هذا العمل قسّمت هذه الرسالة إلى أربعة أبواب عدا المقدمة والخاتمة، فالباب الأول يحتوي على خلفية تاريخية وثقافية واجتماعية للسودان في القرن العشرين، والغرض منها تقديم واستعراض الأحداث التي تكشف النقاب عن العوامل المتنوعة التي شاركت في تكوين الرواية العربية في السودان.

يشتمل الباب الأول على أربعة فصول، ففي الفصل الأول ألقيت نظرة عابرة على تاريخ السودان القديم، وفي الفصل الثاني تحدثت عن الأوضاع

السياسية للسودان في القرن العشرين، وفي الفصل الثالث أقيمت الضوء على الأوضاع الاجتماعية للسودان في القرن العشرين، وفي الفصل الرابع يدور الكلام حول الأوضاع التعليمية والثقافية للسودان في القرن العشرين.

وأما الباب الثاني فهو يشتمل على نشأة وتطور الرواية العربية في السودان وفيه أربعة فصول، فالفصل الأول يتناول تطور الرواية العربية العامة، والفصل الثاني يتحدث عن تطور الرواية العربية في السودان حتى عام ٢٠١٠م، والفصل الثالث عن المواضيع والقضايا التي تعالجها الروايات السودانية، والفصل الرابع عن دراسة مقارنة بين الرواية السودانية والروايات الأخرى مثل الرواية المصرية واللبنانية.

وأما الباب الثالث فيشتمل على دراسة تحليلية لبعض الروايات السودانية المنتخبة التي لعبت دورا كبيرا في تطوير الرواية العربية في السودان، يحتوي هذا الباب على أربعة فصول، فالفصل الأول يحتوي على دراسة تحليلية لرواية "القفز فوق الحائط القصير" للأستاذ أبي بكر خالد، والفصل الثاني يضم دراسة تحليلية لرواية "الفراغ العريض" للكاتبة ملكة الدار محمد عبد الله، والفصل الثالث يحتوي على دراسة تحليلية لرواية "رماد الماء" لعبد العزيز بركة ساكن، والفصل الرابع يقوم بدراسة تحليلية لرواية "صائد اليرقات" لأمير تاج السر.

وأما الباب الرابع فهو خاص عن حياة الطيب صالح العامة وأعماله الروائية، ويحتوي هذا الباب على أربعة فصول، ففي الفصل الأول أقيمت نظرة على حياة الطيب صالح ونشأته وتعليمه وأعماله الأدبية، وأبرزت فيه انتماءه الفكري

وعمله السياسي وإسهاماته الأدبية، وقدمت بعض الآراء والانطباعات للنقاد والأدباء عن الطيب صالح ومكانته الأدبية والعلمية، وفي الفصل الثاني قُدمت استعراضاً مسهباً عن رواياته، وفي الفصل الثالث تحدثت عن المواضيع والقضايا التي عالجها الطيب صالح في رواياته، وفي الفصل الرابع تحدثت عن التقييم الفني لرواياته.

وفي الخاتمة - وهي في الحقيقة حصيلة قراءاتي في هذا الموضوع وتأملاتي للمسائل التي ظهرت أثناء معالجته - ذكرت فيها ما وصلت إليه من النتائج العامة.

لقد واجهتني مشاكل عديدة أثناء إعداد هذه الرسالة، منها قلة المصادر والمراجع عن الموضوع المسجل في بلادنا الهند بوجه خاص والسودان بوجه عام وعدم توفرها، وراسلت الإخوة في الخارج المقيمين في مصر وبلاد الخليج للحصول على ما يفيدني ولكن دون فائدة، واضطرت إلى الإكتفاء بما تيسر لي من المصادر والمراجع.

وعلى الرغم من ذلك حاولت قدر المستطاع أن يكون عملي هذا عملاً ناجحاً ومفيداً، وأنا المسؤول عما جاء في هذه الرسالة من نقص وخطأ، وحسبي أنني بذلت جهدي وما في وسعي لإعداد هذا البحث. وتكميله من جميع الجوانب، والكمال لله وحده.

وفي الختام أتقدم بوافر الشكر والإمتنان والتقدير إلفضيلة المشرف البروفيسور
مجبب الرحمان الندوي/حفظه الله ورعاه الذي ساعدني خلال إعداد هذه الرسالة
بتوجيهاته السديفة وآرائه القيمة واقتراحاته المناسبة وفتح علي باب مكتبه وبيته،
فبارك الله فيه ومد في عمره وسدد خطاه.

وكذلك الشكر والتقدير موصول إلى البروفيسور رضوان الرحمن رئيس
مركز الدراسات العربية والإفريقية والبروفيسور محمد أسلم إصلاحي والبروفيسور
فيضان الله الفاروق والبروفيسور بشير أحمد جمالي والأستاذ المشارك د. عبيد
الرحمان طيب الفلاحى والدكتور قطب الدين الندوي والدكتور أكرم نواز الندوي على
حرصهم الشديد في توفير التسهيلات وإزالة العقبات، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.
وكذلك أتقدم بالشكر والامتنان إلى كل من الإخوة قواز وسراج أحسن ومحمد
معنصم ورضوان أحمد، وجميع زملاء الذين ساعدوني خلال إنجاز هذه الرسالة،
وكانوا خير عون لي أثناء البحث والتحقيق، فجزاهم الله جميعا خير ما يجازي به
عباده المخلصين المحسنين.

والحمد لله أولا وآخرا وظاهر وباطنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

طفيل أحمد

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي، الهند

٢٠١٦/٧/٢٠

الباب الأول

السودان في القرن العشرين

الفصل الأول:	نبذة عن تاريخ السودان القديم
الفصل الثاني:	الوضع السياسي للسودان فيالقرن العشرين
الفصل الثالث:	الوضع الاجتماعي للسودان فيالقرن العشرين
الفصل الرابع:	الوضع التعليمي والثقافي للسودان فيالقرن العشرين

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ السودان القديم

تقع جمهورية السودان في قارة إفريقيا وتمتد مساحتها حوالي ٢,٥ مليون كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها ١٨ مليون نسمة.^١ وهو بذلك إحدى الدول الأفريقية الكبرى، كما تأتي في المرتبة الحادية عشرة بين بلدان العالم الأكبر مساحة. يمتد السودان على مساحة واسعة ما بين جنوب مصر وحتى المناطق الاستوائية في وسط إفريقيا مما أدى لوجود مختلف العرقيات والثقافات والأديان ولكن الإسلام يشكل الخلفية الثقافية لغالبية سكان السودان خاصة الأجزاء الوسطى والشمالية منه.^٢ فيما تتشكل ثقافة الجنوب وجنوب شرق وغرب السودان من الثقافات الأفريقية الخالصة بأقلية إسلامية. وان موقع السودان الإستراتيجي وغني موارده وثرواته الطبيعية جعله أحد محاور التنافس الاستعماري القديم في إفريقيا. كذلك ظل السودان يمثل أحد أطماع الاستعمار الحديث.

انفصل جنوب السودان وأصبح دولة مستقلة في ٩ يوليو عام ٢٠١١م^٣ بعد حرب طويلة دامية ذهب ضحيتها آلاف من السودانيين في الجنوب، وذلك تحت

١ تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، د. إسماعيل أحمد ياغي و الشيخ محمود شاکر، ج ٢، ص ٤٧.

٢ الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د. حسن أحمد محمود، ص ٣٠٠

٣ https://en.wikipedia.org/wiki/South_Sudan

ضغوط هائلة من الدول الغربية المسيحية، علما بأن جنوب السودان تقطنه الأغلبية المسيحية.

وينقسم سكان السودان إلى أربع مجموعات رئيسية هي: النوبيين والبجا والمتزنجون والعرب، وتوجد مجموعات أخرى من الأجناس أقل أهمية مثل الفور والنوباويين والانفسانا، ومع ذلك تنقسم البلاد من وجهة النظر الثقافية إلى قسمين هما: الشمال والجنوب. ويعتبر الشمال بصفة عامة أكثر تجانسا من الجنوب، وكان ولايزال الإسلام واللغة العربية كعناصر توحيد، إذ ساهما في إحداث ذلك التجانس في الشمال، فكان للشمال فيما عدا دارفور تاريخ مشترك وتقاليد عريقة، إذ نشأت به الممالك والسلطنات وكان منذ أقدم العصور مركزا لقيام الدويلات والممالك. وكان السودان مرتببا دائما عبر التاريخ بمصر الواقعة شماله.^١

وكانت أول دولة أنشئت في السودان في العهد القديم هي مملكة نبتة (٧٢٥ ق م إلى ٣٥٠ ب م)، وكان كاشتا أول ملوك الكوشيين، وهو الذي استولى على السلطة بمصر العليا، وأما بعانخي ابنه الذي خلفه، فقد قام باتباع خطى والده وأتم غزو مصر كلها عام ٧٢٥ ق.م.^٢ حتى أصبح الحاكم لكل من مصر والسودان. وأسس دولة إمتدت من البحر المتوسط حتى مشارف الحبشة، وبهذا صارت كوش قوة هائلة في المنطقة.

١ تاريخ الحركة الوطنية في السودان، برفيسور محمد عمر بشير، ص: ٦-٧

٢ تاريخ السودان، نعم شقير، ص ٢٦ - ٢٧

انتقلت عاصمة كوش من نبتة الى مروى في القرن السادس قبل الميلاد، وصارت مروى عاصمة جديدة لكوش خمسة قرون قبل الميلاد وثلاثة بعده. وكانت كوش أكثر الحضارات التي نشأت في أفريقيا تميزا بطابعها الأفريقي مع إستفادتها بمظاهر الحياة من حولها، كما شهدت بهذا معابد النقعة، فعلى الجدار الخلفي من معبد الأسد نقش الأقدمون أسدا إليها له أربعة أذرع وثلاثة رؤوس، ويعتقد العلماء أن هذا النوع من الفن تسرب من الهند. وعلى مسافة قريبة من هذا المعبد يقوم بناء يظهر فيه التأثير الروماني، وتُوجد في قبور كوش الملكية والشعبية معابد تاريخية تمتد لألف عام، يأتي بعدها الخطر من جنوب الجزيرة العربية، عندما هاجر قوم من هناك إلى داخل الحبشة وأنشؤوا دولة أكسوم التي قويت وأستطاعت أن تحول بين كوش وشرق القارة الأفريقية والمحيط. وأخيراً تمكنت هذه الدولة من قهر كوش عندما قام عيزانا أول ملك مسيحي لها بغزو كوش وتحطيم عاصمتها مروى عام ٣٥٠م.

وتحت ظل حكم الملوك السودانيين تم الحفاظ على مقابر مصر ومعابدها وأضيفت إليها معابد ومقابر جديدة فاستعادت مكانتها ودرجتها بين حضارات العالم القديم،^١ حتى يرى البعض أن فترة سيادة السودانيين على مصر كانت إحدى الفترات القلائل في تاريخ الاستعمار القديم حيث كانت المؤسسات الوطنية والثراء الروحي للأمة المقهورة قد أخذت تنمو وتزدهر بدلا من التذني والفناء تحت سطوة حكام أجنب، وبالإضافة إلى ذلك، أرسلت جيوش نوبية إلى غرب آسيا لمساعدة

International Relations of The Sudan in Napatan Times in Sudan, Thabit, T. ^١

H. vol. 40, pp. 20

شعوب الأمم الأخرى مثل سوزيين وفلسطينيين وفينيقيين لصد هجمات الجيوش الآشورية.^١

وأما المملكة السودانية القديمة الثانية مروى، فكانت حضارتها امتدادا للحضارة النوبية، وأضحت هذه المملكة مركزا تجاريا هاما وحامية عسكرية بالغة الأهمية بسبب موقعها الاستراتيجي، وأنشئت علاقات أيضا مع الدول النامية مثل اكسوم والهند، ويمكن اعتبار ظهور السودان كأمة منذ القرن الثالث الميلادي عندما أخذت الخصائص الإفريقية الأساسية في الحضارة المروية تؤكد وجودها لما اتاحت لها الفرصة في ذلك الوقت،^٢ وأرسل نيرون الذي كان يريد غزو مملكة مروى حملة استطلاعية صغيرة توغلت في البلاد حتى الزهد في حوالي عام ٦٥ الميلادي، وجاء التقرير أن البلاد فقيرة للغاية بدرجة لا تستحق الغزو، وهكذا ترك الرومان فكرة غزو مملكة مروى لتصبح محلا لهجوم الأثيوبيين من الشرق.^٣

ومنذ منتصف القرن الرابع أصبح تاريخ السودان مجهولا وغامضا لا يُعرف عن أخباره إلا النذر اليسير، فقد جاء البلاد قوم لم يكتشف الأثريون بعد إلى أي جنس ينتمون وسماهم علماء الآثار "المجموعة الحضارية". ويمتد عصرهم من سقوط مروى في القرن الرابع الميلادي الي ظهور المسيحية في السودان في القرن

١ نفس المصدر ص، ٢٠

٢ تاريخ الحركة الوطنية في السودان، برفيسور محمد عمر بشير، ص: ٨.

٣ Islam in Sudan, J.S. Trimmingham, p. 45

السادس الميلادي.^١ واستمر الحال على ذلك المنوال حتى ظهرت الدول النوبية الثلاثة: نوباتيا ومقرة وعلوة، مملكة النوباطيين في الشمال والتي تمتد من الشلال الأول الي الشلال الثالث وعاصمتها فرس. ويليهها جنوباً مملكة مقرة التي تنتهي حدودها الجنوبية عند الأبواب التي تقع بالقرب من كبوشية جنوب مروى القديمة وعاصمتها دنقلا العجوز، وأخيراً مملكة علوة وعاصمتها سوبا التي تقع بالقرب من الخرطوم. واعتنقت هذه الممالك السودانية الثلاثة الديانة المسيحية في القرن السادس، وظلت هذه الممالك الثلاثة على ولائها للكنيسة القبطية في مصر، وكان ملوكها يعتبرون أنفسهم حواريين وحماة بطريك الاسكندرية،^٢ وكانت اللغة الإغريقية هي أداة نشر التعاليم المسيحية إلى أن استبدلت فيما بعد باللغة النوبية لتصبح هي لغة الكنيسة.

ثم جاء في تاريخ السودان مرحلة هامة وذلك بسبب دخول العرب والإسلام في ربوع السودان، ولقد نشأت علاقات بين السودان وبلاد العرب قبل ظهور الإسلام بأمد بعيد، ودخل العرب إلى السودان بثلاثة طرق: أولها من شمال بلاد العرب عبر سيناء ثم مصر، وثانيها من الجنوب عبر باب المندب مروراً بأثيوبيا، وثالثها هو الطريق المباشر إلى السودان عبر البحر الأحمر، وبعد ظهور الإسلام ازدادت أهمية هذه الطرق إذ سلك المسلمون العرب تلك الطرق التي سبق أن اتبعها

The Arabs and the Sudan, Y.F. Hassan, p. 16^١

Egyptian contribution to Nubian Christianity in Sudan, F.F. Gadalla, p 38^٢

المهاجرون والتجار منذ عدة قرون.^١ وقبل أن يستسلم السودان للمؤثرات العربية والإسلامية نهائياً، تم عقد اتفاقية مع العرب في الشمال، وعرفت هذه الاتفاقية بإسم اتفاقية البقط في عام ٣١هـ،^٢ والتي قامت بإرساء أسس العلاقات بين المسلمين والنوبة، وبهذا مهدت رسمياً لدخول الإسلام والعرب واللغة العربية الي السودان واستخدمت كأداة سلمية دخل بواسطتها الإسلام إلى السودان، وبعد ذلك ازدادت سرعته في أواخر القرن الثالث عشر، واستمر الحال على ذلك المنوال خلال مائتي سنة حتى سقطت آخر الممالك السودانية المسيحية في أيدي المهاجرين الجدد من العرب المسلمين عام ١٥٠٤م عندما أنشئت مملكة الفونج.^٣ وخلال فترة حكم الفونج امتد انتشار الدعوة الإسلامية وفي أثناء حكمها دخلت الطرق الصوفية في السودان عن طريق الحجاز. وازدهرت الطرق الصوفية ازدهارا واسعا في القرن الثامن عشر خاصة في الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية،^٤ وأصبحت مملكة الفونج أقوى الممالك التي ظهرت في السودان منذ أيام نبته ومروى.

وإلى جانب مملكة الفونج كانت هناك ممالك أخرى أهمها: مملكة العابدلاب وعاصمتها أريجى، ومملكة الجعليين وعاصمتها شندي، ومملكة الميرقاب وعاصمتها بربر، ومملكة الرباطاب وعاصمتها أبو حمد، ومملكة المناصير وعاصمتها سلامات

^١ The Arabs and the Sudan, Y.F. Hassan, p. 16

^٢ تاريخ الحركة الوطنية في السودان، محمد عمرشير، ص ١٠

^٣ The Arabs and the Sudan, Y.F. Hassan, p. 129

^٤ الثقافة العربية في السودان، عبد المجيد عابدين، ص ٩٧

ومملكة الشايقية وعاصمتها مروى. وكانت جميع هذه الممالك تدين بالولاء لمملكة الفونج، وذلك بسبب حاجتها لحماية طرق القوافل التجارية وتطوير التجارة الداخلية والدفاع عن نفسها ضد الغارات المحلية والغزوات الخارجية.

وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأت مملكة الفونج تنهار على أيدي جيوش محمد علي الذي كان واليا على مصر، حتى قيل أن الغزو التركي والمصري يعتبر من وجهة النظر التاريخية الخطوة الأولى التي استهدفت خلق السودان الحديث.

الفصل الثاني

الوضع السياسي للسودان في القرن العشرين

علاقة السودان بالعرب

يعد السودان أحدث البلاد العربية أخذًا بالطابع العربي الإسلامي إذ تسربت إليه القبائل العربية عن طريق البحر الأحمر ومصر، وانقسمت هذه القبائل العربية الوافدة إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى هي مجموعة الجعليين وهي أكثر المجموعات العربية نفوذًا وعدداً، وإنها انتشرت في وادي حلفا حتى جنوب أم درمان. والمجموعة الثانية هي مجموعة جهينة، وهم عرب وفدوا إلى مصر أولاً ثم اتجهوا في القرن الرابع عشر الميلادي نحو السودان حيث استقروا في شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفي شرق ووسط كردفان والمجموعة الثالثة هي الكواهلة وهم استوطنوا في العظيرة والنيل الأزرق وحول الأبيض وكردفان في الغرب.^١ وإن هذه المجموعات القبلية كان لها دور فعّال في أحداث السودان السياسية والاجتماعية.

وقامت في السودان ثلاث ممالك إسلامية وهي: مملكة الفونج ودارفور ومملكة دنقلا، والفونج هي قبائل زنجية زحفت من الجنوب وأسلمت وحالفت القبائل

١ في تاريخ العرب الحديث، د. رافت غنيمي الشبخ، ص ٢٨٠

العربية.^١ وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر في غذائهم الروحي، فدرس نخبة من أبناء هذه المملكة في الجامع الأزهر وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية.^٢ وكذلك إنهم شجعوا القبائل العربية على استيطان ممالكهم، فاشتد ضغط القبائل العربية على السودان وازداد عدد أفرادها الذين استوطنوا في السودان وثبتوا عربيته.

السودان تحت الحكم المصري

كان السودان مجزءا حتى الفتح المصري على يد محمد علي باشا في أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر رغم جهود مملكة الفونج الإسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها إلا أنها باءت بالفشل أمام قوة دارفور، هذا بالإضافة إلى ظهور زعامات دينية صوفية أخرى لأنها لم تكن تهتم بأصول الدين وقواعده الأساسية بشكل مبدئي، وكذلك لم يكن مجيء قوات محمد علي باشا إلى السودان سنة ١٨٢٠م بداية الاهتمام المصري بالسودان، بل إن العثمانيين هم الذين استولوا على بلاد "النوبة"^٣ بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها، فقام الجيش المصري بمحاصرة المنطقة في عام ١٨٢٠م وانتهت الحرب في عام ١٨٢٢م بانتصار كامل للقوات المصرية التي كانت تابعة في ذلك الوقت للإمبراطورية العثمانية، وأصبح الجزء الكبير من النوبة مقاطعة مصرية معروفة بإسم السودان المصري. وتم فتح أهم أجزاء

^١ مملكة الفونج الإسلامية، د. مكي شيكعة، ص ٢٢

^٢ المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، د. السيد رجب حراز ، ص، ٢٤٨

^٣ الجزء الشمالي مما سمي حديثا بالسودان كان جزءا من منطقة يطلق عليها النوبة.

السودان تقريبا في سنة ١٨٢٥م، ومنذ ذلك الحين كانت عملية الفتح قد استمرت في عهد محمد علي باشا وخلفائه حتى استكمل في عهد الخديوى اسماعيل باشا، في ظل الحكم المصري تم إنشاء عاصمة للسودان هي مدينة الخرطوم سنة ١٨٣٠م.^١ وقد استمرت هذه الدولة تحكم السودان حتى عام ١٨٨٥م، وذلك لأن عام ١٨٨١م شهد تطورا سياسيا مهما في تاريخ السودان تمثل في اندلاع ثورة وطنية ضد حكم محمد علي باشا وخلفائه بقيادة محمد أحمد المهدي. وذلك لأن الحكم الذي أسسه محمد علي باشا اتسم ببعض الصفات السالبة لدى السودانيين، وأهم هذه الصفات تتمثل في القسوة الشديدة في التعامل مع السودانيين والضرائب الباهظة والإدارة الجديدة المتمثلة في الحكم المركزي الذي لم يألفه السودانيون. وكانت هذه الأسباب والعوامل التي جعلت أهل السودان يلتفون حول قيادة محمد أحمد المهدي وثورته. وكل ذلك قد أدى إلى نجاح الثورة التي حققت أول انتصاراتها على قوات الحكومة المصرية في عام ١٨٨١م.^٢

وبعد ذلك انتصر الثوار في عدد من المعارك منها معركة شيكان هزموا فيها الجيش المصري بقيادة هكس باشا في نوفمبر ١٨٨٣م. ومن جانب آخر فقد أعطت معركة شيكان قوة دافعة للثورة المهديية من النواحي السياسية والعسكرية،^٣ وبعد هذه المعركة بدأت الثورة تنتشر في شتى أنحاء السودان مثل دارفور وبحر

١ في تاريخ العرب الحديث، د- رافت غنيمي الشبخ، ص ٢٨٢

٢ تاريخ السودان الحديث ١٨٢٠-١٩٥٥، محمد سعيد القدال، ص ١٧٥

٣ دراسات إفريقية، ص، ١٧٣

الغزال وشرق السودان من سواكن حتى القلابات. وأصبحت قوة الثورة تتنامى يوماً بعد يوم في هذه الاثناء وتزداد. ولهذا السبب كان لابد لبريطانيا من اتباع سياسة جديدة لمنع التدخل العسكري في السودان.

وقررت بريطانيا في نهاية الأمر إخلاء السودان من القوات المصرية لتفادي هذا الوضع المعقد. ولذلك تم تعيين البريطاني الجنرال غوردون بصفته حاكماً عاماً على السودان لتنفيذ هذه المهمة، وقد كانت الحكومة البريطانية تثق فيه ثقة كبيرة خاصة وأنه قد عمل في السودان من قبل. وبعد هذا التعيين توجه الجنرال غوردون إلى السودان، وفور مجيئه أصدر إعلاناً للسودانيين يشتمل على ثلاث نقاط:

١. تعيين المهدي حاكماً على كردفان.

٢. تخفيض الضرائب إلى النصف.

٣. السماح بممارسة تجارة الرقيق.

غير أن هذه الإصلاحات الظاهرية التي قام بها الجنرال غوردون لم تكن ذات جدوى، فقد دخل جيش المهدي الخرطوم في اليوم السادس والعشرين من شهر يناير من عام ١٨٨٥ م حيث تم الاستيلاء عليها وقتل الجنرال غوردون.^١ وسبق أن كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت حملة عسكرية مكونة من عشرة آلاف جندي بقيادة اللورد وولسلي،^٢ إلا أن هذه الحملة العسكرية قد وصلت متأخرة، وتمكنت قوات المهدي من مهاجمة العاصمة وإسقاطها في ٢٦ يناير عام

^١ تاريخ العالم الإسلامي، إسماعيل ياغي، ومحمود شاكر، ص ٥٢

^٢ دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. محمد محمود السروجي، ص ٣٨١

١٨٨٥م. وباستيلاء قوات محمد أحمد المهدي على الخرطوم، قد بدأت صفحة جديدة في تاريخ السودان، وهي الفترة المعروفة بفترة الدولة المهديّة والتي تمكنت من حكم السودان ثلاثة عشر عاما تمتد من سنة ١٨٨٥م إلى عام ١٨٩٨م.^١

وبعد موت المهدي في يونيو عام ١٨٨٥م تولى زمام الحكم في السودان عبدالله التعايشي، وبعد جلوسه على عرش الحكم دخل السودان في حروب عديدة ضد أهالي جنوب السودان مضيفا قطاعات كبيرة الى السودان المصرية، منها محاولة الاستقلال عن مصر وتخليصها من الاحتلال الإنجليزي، وقد أدى هذا إلى فوضى اجتماعية واقتصادية في السنوات الأخيرة في السودان.

وسنحت لبريطانيا فرصة ذهبية للقضاء على نفوذ المهديين، فتم إرسال بعثة عسكرية^٢ ضد قوات عبد الله التعايشي تحت قيادة الجنرال هربرت كتنشر وقد حاصره في أم درمان وقتله في شهر نوفمبر عام ١٨٩٨م، وانتهت بذلك دولة المهديّة في السودان.^٣

الحكم الثنائي في السودان

ثم بدأ في تاريخ السودان عهد جديد وعجيب دام أكثر من نصف قرن، وذلك أنه تم توقيع اتفاقية في ١٩ يناير عام ١٨٩٩م بين الحكومتين المصرية

١ في تاريخ العرب الحديث، د- رافت غنيمي الشبخ، ص: ٣٠١-٣٠٢

٢ والغريب أن القوات المصرية التي كانت تحت الاحتلال الإنجليزي، قد انضمت إلى هذه البعثة وهكذا تحركت هذه القوات المصرية والإنجليزية المشتركة ضد الدولة المهديّة.

٣ دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د- محمد محمود السروجي، ص: ٣٩٥.

والبريطانية، وكانت تقضي هذه الاتفاقية بالسيادة المشتركة على السودان، وهكذا أصبح السودان تحت حكم ثنائي مصري وبريطاني، وفي الواقع كان لبريطانيا النصيب الأكبر من هذه السيادة المشتركة بل أن السودان كان تحت السيطرة البريطانية بشكل كامل وأن الشراكة المصرية كانت مجرد شراكة رمزية.^١

ويمكن القول إن اتفاقية الحكم الثنائي الموقعة بين بريطانيا ومصر كانت قد رسخت الوجود الاستعماري البريطاني في السودان بصورة عامة. فلم تعد القوانين والقرارات الوزارية المصرية سارية المفعول في السودان وكذلك لم يبق شئ بالنسبة لمصر غير العلم، وبعض القوات المسلحة تحت قيادة بريطانيا، وازداد ألم المصريين عندما رأوا أن شريكهم (بريطانيا) يستقل في حكم السودان، وخلال فترة الحكم الثنائي جاء تسعة حكام بريطانيين على مسرح حكم السودان، ولكن بالرغم من ذلك لم تهتم حكومة السودان برفع مستوى السكان السودانيين أو التقدم بهم إلى استقلالهم الذاتي، فلم يكن لهم أي نصيب في الحكم على السودان بأي شكل من الأشكال، وكانت أبواب المناصب العالية مغلقة أمامهم تماما، و كان الإنجليز هم الذين يحتلون هذه المناصب العالية، بينما كان شركاؤهم المصريون في الحكم الثنائي يشغلون الوظائف المتوسطة فقط.

وإذا أمعنا النظر في الفترة ما بعد الاحتلال البريطاني في السودان، وجدنا أن السودانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا التدخل الأجنبي، فاندلعت العديد

١ تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج ٢، ص: ٥٤.

من الحركات والثورات ضد هذا الاحتلال. ونجد من حركات المقاومة السودانية التي ظهرت في السنوات العشرة الأولى من القرن العشرين ثورة الفقيه محمد الأمين البرناوي التي اندلعت في منطقة شرق كردفان في عام ١٩٠٣م. وثورة جمعية "اللواء الأبيض"^١ من أهم هذه الثورات. إلا أن بريطانيا اتبعت سياسة القمع في السودان فيما يتعلق بحركات المقاومة، وهي السياسة التي سارت عليها في جميع أنحاء البلاد.

ونزلت الكارثة الكبرى على مصر والسودان إثر مقتل "لي ستاك" قائد الجيش المصري وحاكم السودان العام في ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤م، فقام الجنرال اللنبي بتوجيه الإنذار الشديد الذي كان له أثر عميق في مصر والسودان، وطالب مصر بسحب قواتها من السودان خلال أربع وعشرين ساعة، فتم الانسحاب في غضون أربعة أيام من ٢٩ نوفمبر إلى ٢ ديسمبر ١٩٢٤م.^٢

ومنذ ذلك الوقت انفردت إنجلترا بحكم السودان حسب رغبتها حتى عام ١٩٣٦م، حيث عقدت معاهدة ١٩٣٦م التي تقضي بسماح المصريين حرية الانتقال إلى السودان والتملك والتجارة والتوظيف أي يعود العمل باتفاقية الحكم الثنائي مرة أخرى. وفي الوقت نفسه عملت إنجلترا على فصل جنوب السودان عن شماله بحيث لم يكن يستطيع أحد أن يسافر من شمال السودان إلى جنوبه إلا بتصريح خاص من الحكومة، فكانت هذه محاولة الإنجليز منذ عهد مبكر أن

١ تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم و شوقي الجمل، ص ٣٥٤

٢ المصدر السابق، ص ٣٥٦

يفصلوا السودان من مصر أولاً ثم يقوموا بتجزئته وتقسيمه، وإنهم نجحوا إلى حد ما في وضع بذور التفرقة والنفور بين الجنوب والشمال.

ولكن لما شهد السودانيون المثقفون أن مصير السودان يتم تحديده من قبل القوة الاستعمارية دون الرجوع إليهم، فإنهم اتفقوا على تأليف جمعية أدبية تمثل نشاطها في نادي الخريجين بأم درمان، وقد انعقد أول اجتماع لهذه الجمعية في ١٢ فبراير عام ١٩٣٨م، إلا أن الحكومة السودانية اعترفت بهذه الجمعية كهيئة شعبية تمثل الخريجين فقط.^١ وكان نشاط هذه الجمعية محدوداً حتى الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك اتجهت هذه الجمعية اتجاهاً جديداً له أهمية قصوى في تاريخ السودان، إذ أنها طالبت "بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة".

ودخلت القضية السودانية مرحلة جديدة خلال عام ١٩٥١م-١٩٥٢م، إذ اتجهت الحكومة المصرية إلى عرض قضية السودان على مجلس الأمن ولكن فشلت محاولات الوصول إلى أي اتفاق مع بريطانيا عن طريق المفاوضات، وبعد ثورة ١٩٥٢م رأت الحكومة المصرية أن علاج مشكلة السودان يكمن في الجلاء عن السودان، فتوصلت الأحزاب السودانية إلى اتفاق مع مصر في ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٢م، وصيغت هذه الاتفاقية بشكل مذكرة أرسلتها مصر إلى بريطانيا في ٢ نوفمبر في نفس السنة، واقترحت مصر إعطاء السودانين حق تقرير المصير في

١ تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، عبد الله عبد الرازق ابراهيم ود. شوقي الجمل، ص ٣٥٨

جو حيادي حر خلال فترة انتقالية ينتهي بانتهائها الحكم الثنائي، وتعود السيادة للشعب السوداني.^١ اضطرت بريطانيا إلى الموافقة على هذا القرار، فتم توقيع اتفاق بين الحكومتين (مصر وبريطانيا) في ١٢ فبراير عام ١٩٥٣م. يتم بموجبه منح السودان حق تقرير المصير في خلال ثلاث سنوات كفترة انتقالية، فأجريت أول انتخابات نيابية في السودان في أواخر عام ١٩٥٣م، وقد أعلنت السودان استقلالها رسمياً في ١ يناير ١٩٥٦م وقامت بوضع النظام الجمهوري فيها، تم ترشيحها كعضو في الجامعة العربية في ١٩ يناير وكذلك في الأمم المتحدة في ١٢ نوفمبر من نفس العام.^٢

وبعد الحصول على الاستقلال سعت الحكومات المتعاقبة إلى تحديث الدولة والاقتصاد وخلق هوية وطنية سودانية مبنية على الثقافة العربية والإسلام. ومن هنا بدأ النزاع بين شمال السودان وجنوبه. وبدأ المتمردون الجنوبيون يقاتلون للحصول على استقلالهم، ولكنهم واجهوا العديد من الخلافات الداخلية بينهم حتى توحدوا تحت قيادة جوزيف لاجو.

ثم استولت على السلطة مجموعة من الضباط اليساريين تحت قيادة جعفر النميري عام ١٩٦٩م وتمكنت هذه المجموعة من التغلب على تحديات الطائفية ودخلت في صراع مع الحزب الشيوعي دفعها للبحث عن قاعدة دعم هامة لهم في الجنوب إثر التوقيع على اتفاقية سلام مع الجنرال جوزيف لاغو في أديس أبابا عام

١ تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، إسماعيل أحمد الياغي والشيخ محمود شاکر، ص ٦٤

٢ نفس المصدر، ص ٦٦

١٩٧٢م، ومنح الجنوب قدراً كبيراً من الحكم الذاتي الإقليمي وبحلول عام ١٩٧٣م كانت قد تأسست دولة علمانية ونظام سياسي رئاسي في السودان.

وكان يهدف النميري إلى إضعاف قوى الجماعات السياسية التقليدية التي يمكن أن تشكل تهديداً له، ولذلك قام بإلغاء نظام الإدارة المحلية واستبداله بمجالس منتخبة سيطرت عليها النخب الإدارية والسياسية، وكما همش التطوير الاقتصادي الكثير من الناس في السودان. وكان إبطال العمل بترتيبات استملاك الأراضي التقليدية من بين الأسباب الرئيسية للاستياء في الشمال بينما أدت خطة إنشاء قناة جونجلي لاستغلال مياه النيل بشكل أفضل إلى إثارة الامتعاض لدى الجنوبيين.

ونتيجة لتسلط حكم الفرد والتدهور الاقتصادي وفتور علاقته بالجنوب، اتجه النميري إلى إزالة التهديد الموجه ضد حكومته من قبل الأصوليين الإسلاميين والأحزاب الطائفية، فاتجه لاحقاً إلى مصادر أخرى للحصول على الدعم السياسي. ثم دخل زعيم حزب الأمة الصادق المهدي وحسن الترابي من الإخوان المسلمين إلى حكومة النميري وتوسعت قاعدة الدعم وزاد بذلك من الطابع الإسلامي لحكمه. ومع الضغوط من القوى الشمالية الأخرى التي لم تكن تثق بقاعدة الدعم التي يملكها في الجنوب، أبطل النميري العمل باتفاق أديس أبابا في ١٩٨٣م ملغياً تعديلاته الدستورية للتخطيط لتوجيه عوائد النفط إلى الحكومة المركزية.

فوصل استياء الجنوبيين إلى نقطة الانفجار عام ١٩٨٣م حيث شكل الجنرال السابق جون غرنغ جيش الحركة الشعبية لتحرير السودان في إثيوبيا

واندلعت حرب أهلية ثانية. وكان هدف جون غرنغ هو سودان جديد موحد وعلماني رغم أن معظم الفئات الشمالية الحاكمة ظلت رافضة لمثل هذا العرض وأن العديد من الجنوبيين ظلوا ملتزمين بالانفصال.

وتم فصل النميري عن الحكم في عام ١٩٨٥م وأصبح الصادق المهدي رئيس الوزراء مرة ثانية في ١٩٨٦م، وخلال الحرب الأهلية استخدمت الخرطوم بشكل متزايد الميليشيات القبلية مثل الميسيرية والرزيقات وغيرها في كردفان ودارفور لمحاربة الثوار. وكانت المنافسة السياسية تزرع بذور الشقاق بين حزب الأمة والحزب الاتحادي الديمقراطي والجبهة الإسلامية الوطنية بقيادة حسن الترابي والحزب السياسي للإخوان المسلمين. وفي عام ١٩٨٨م أعيد العمل بالإدارة المحلية في العديد من مناطق الدولة بما في ذلك دارفور. ومع إخفاق الجبهة الإسلامية الوطنية في تأمين موطن قدم لها في دارفور أو الحفاظ على قاعدة شعبية بسبب تأثير حزب الأمة، حاولت الجبهة تقويض وحدة المجموعات العرقية والقبلية الكبرى بدعوة الناس إلى تجاوز الولاءات الضيقة والانتماء للإسلام.

وفي عام ١٩٨٩م قاد الجنرال عمر حسن البشير انقلاباً عسكرياً مطلقاً بالتنسيق التام مع حسن الترابي والجبهة الإسلامية القومية. ويمر السودان في هذه الأيام بمرحلة حاسمة في استفتاء السودان الجنوبي حول تقرير المصير، ولكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو هل يوجد من العناصر المؤسسية ما يبرر وجود دولة في الجنوب وكذلك يضمن لها شيئاً من النجاح؟ فالجواب هو النفي،

وأيضاً واجهت حكومة سلفاكير مياردبت كثيراً من الانتقادات اللاذعة بأنه باء بالفشل الذريع في تحقيق التنمية في الإقليم.^١

وهناك أسباب وعوامل عديدة لقضية السودان والتي سببت إلى نشوب الأزمة السياسية من جديد: من أهمها اختلال التنمية بين الشمال والجنوب وقيام دكتاتوريات على أساس ديني مما عمق الفوارق بين الحكومة ومواطنيها المسيحيين، وأطماع القوى الكبرى في منطقة حوض النيل الغنية بالأراضي الخصبة والثروات الهائلة ومعادنها وعدم قدرة الحكومة المركزية على السيطرة المطلقة على كامل محالها، وتغذية الدول المجاورة لأعمال الشغب والصراع وكذلك المد الصهيوني الذي يسعى وطأة أقدامه في شرق أفريقيا، والسبب الحقيقي لذلك كله أنه قام الاستعمار البريطاني بعد فصل السودان من مملكة مصر بمشروع تقسيم مناطق السودان وبعد استقلاله ظهرت هذه الفكرة عن الجنوبيين على انفصال الجنوب عن السودان وإقامة دولة مسيحية.

١ مجلة النهضة عدد: ٢٠١١،٤م الصادرة من ولاية كيرالا، الهند

الفصل الثالث

الوضع الاجتماعي للسودان في القرن العشرين

إن المجتمع السوداني لين العريكة وسهل المعشر ولا تكاد الغربة تتسلل إليك وأنت تجالس أحدا من السودانيين، وهي سمة تميز السودانيين من الآخرين، فضلا عن تميزهم بالبساطة وعدم التكلف، وإذا أمعنا النظر في البحث عن الوضع الاجتماعي السوداني في القرن العشرين، وجدنا أن المجتمع السوداني له جذور وأسس قديمة، وهو حافل بالقيم الاجتماعية الناصعة . وأن المجتمع السوداني له دور فعال في تشكيل وحدة وطنية منذ القدم. وتوجد هناك قبائل عدة أسهمت في تطوير المجتمع السوداني، أهمها:

البيعة: وهي تسكن في الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر ونهر عطبرة، تنقسم هذه القبيلة إلى أربعة أقسام: وهي "البشاريون" في شمال السودان، و"الأمرار" في أنحاء ميناء بورت سودان، و"الهدندوة" تمتد ديارهم من سواكن إلى سنار، و"بني عامر" في الجنوب الشرقي حيث تمتد أوطانهم من طوكر في الشمال إلى حدود أرتريا في الجنوب.^١ ولهذه القبيلة لغة خاصة وهي "التبداوي" أو "بداويت" بالإضافة إلى اللغة العربية، وإنها تعيش حياة غاية في البساطة معتمدة على الزراعة والرعي.

١ التطور الإقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٣١٤ .

النوبيون: إنهم سكنوا في الأراضي الملاصقة لنهر النيل من شمال أسوان إلى بلدة الدبة وكوتي، ولما جاء العرب إلى هذه البقعة من الأرض، فإنهم اختلطوا بهم وتأثروا بهم عن طريق المصاهرة إلا أن هذه الهجرات العربية لم تكن بوسعها أن تقضي على ثقافتهم النوبية، ولأجل ذلك بقيت اللغة النوبية بلهجاتها المتنوعة جنباً إلى جنب مع اللغة العربية، وانقسمت هذه القبيلة النوبية إلى فئتين: فئة المزارعين وفئة التجار، فالفئة الأولى أي المزارعون أنهم استقروا في مناطق خاصة وزاولوا مهنة الزراعة بينما كان التجار قد اشتهروا بنشاطاتهم التجارية في جميع أنحاء السودان.

القبائل العربية: يمثل النظام القبلي في المجتمع السوداني ركناً أساسياً في بنائه وتشكيله وإن كان بشكل مبدئي، والقبائل العربية التي وفدت إلى السودان، فإنها أثرت في المجتمع السوداني بوجه خاص، انقسمت هذه القبائل الوافدة إلى ثلاث مجموعات: **مجموعة الجعلية:** انتشرت هذه المجموعة في المنطقة الممتدة من وادي حلفا إلى أم درمان، وهي أكثر المجموعات العربية نفوذاً وعدداً.^١

مجموعة الجهينة: وهم عرب وفدوا إلى مصر أولاً ثم اتجهوا جنوباً نحو السودان حيث استقروا في شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفي الجهات الشرقية والوسطى من كردفان، ومن أشهر هذه المجموعة: الشكرية، البقارة، والكبابيش.^٢

مجموعة الكواهلة: وهي تسكن في العظيرة والنيل الأزرق وحول النيل الأبيض وكردفان في الغرب. وهي المجموعة الصغيرة في السودان مقارنة مع الجهينة.^٣

١ في تاريخ العرب الحديث، د- رافت غنيمي الشبخ، ص: ٢٨٠.

٢ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٣٣٥.

٣ نفس المصدر، ص: ٣٣٨.

وتوجد هناك مجموعات أخرى تلعب دورا هاما في بناء المجتمع السوداني

مثل سكان الزوج، وتتمثل هذه المجموعة فيما يلي:

١ - الدنكا: وتعتبر هذه المجموعة من أكثر المجموعات النيلية عدداً وانتشاراً.

٢ - الشلك: يتميز الشلك بأنهم جماعة متميزة قائمة بذاتها لا تنقسم إلى فئات كثيرة، وإنها

تشكل وحدة سياسية واجتماعية وثقافية، وتسكن في الضفة الغربية من النيل الأبيض.^١

فهذه المجموعات القبلية كانت تشكل ركنا أساسيا في بناء المجتمع

السوداني، ومن أبرز السمات لهذه القبائل هي ولاء الفرد الشديد لقبيلته التي كان

ينتمي إليه، وكان هذا الولاء يبلغ أحيانا إلى درجة القداسة، ومن السمات الأخرى

للقبائل السودانية هي وجود زعيم أو شيخ لها، وكان هذا الزعيم أو الشيخ يتمتع

برجاحة العقل والتجربة ويكون طاعنا في السن، وهو المتحدث بإسمها. وبما أن

السودان كان تحت الحكم المصري لفترة طويلة من الزمن، فإن الإدارة المصرية هي

كانت تستعين من هؤلاء المشايخ في عديد من الأمور السياسية والاجتماعية

والاقتصادية، وبدورها كانت الإدارة المصرية تعمل على تكريم هؤلاء المشايخ

تشجيعاً لهم في أداء واجباتهم في أحسن وجه.

ومن السمات الأخرى التي كان يتميز بها المجتمع السوداني، وجود مجلس

الأجاويد، وكان من واجبات هذا المجلس الإشراف على الأمور القضائية التي تكون

نتيجة للنزاعات التي تنشأ بين هذه القبائل، وكان مجتمع القبيلة السوداني يسوده

١ نفس المصدر، ص: ٣٤٦.

الوثام والسلام الاجتماعي، وأن المشاكل التي كانت تحدث في بعض الأحيان تعود أكثرها إلى الاختلاف حول أماكن المرعى، وذلك لأن معظم هذه القبائل تعتمد على الزراعة ورعي الإبل في الحصول على قوتها. وأما المشاكل الأخرى فتكاد تكون غائبة تماما عن هذا المجتمع، فهكذا كان مجتمع القبيلة السوداني.

الرق في المجتمع السوداني

كانت تجارة الرقيق شائعة في المجتمع السوداني منذ القدم، وكان الرقيق السوداني يلقي معاملة طيبة في جميع الجوانب التي عمل بها، وكانت هناك علاقة وطيدة بين الرقيق ومالكهم وخصوصا بين المسلمين منهم، بل يمكن القول إنه كاد أن يصبح واحدا من أفراد البيت لأنه كان يستمتع بحقوق كثيرة، وفي بعض الأحيان كانت تخصص له قطعة أرض لكي يقوم بزراعتها وكذلك يمنح يوما في الأسبوع للقيام بأعماله الخاصة.¹ هكذا كان الرق قد تغلغل في المجتمع السوداني، وأصبح ركنا أساسيا من أركانه، وألف الناس العلاقات الاجتماعية السائدة بين الرقيق وأسيادهم وأولياء أمورهم.

ولكن عندما تم فتح السودان على أيدي القوات المصرية في عهد محمد علي باشا، فإن الإدارة المصرية حرمت تجارة الرقيق، وذلك لأن الناس بدأوا استغلال هذه التجارة خاصة الأوروبيون والأجانب الذين كانوا يأتون إلى السودان بغرض التجارة، فبعض منهم من كان يزور أسواق الرقيق للاطلاع على شيء، فإذا أعجبتهم أية امرأة سودانية أو حبشية ابتاعوها بثمن بخس إرضاء لغرائزهم حتى إذا

١ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٣٦٢.

اطفأوا جمرة شهواتهم أطلقوا سراحها و أظهروا أمام العالم بأنهم دعاة تحرير الرقيق في إفريقيا، إلا أنه من الملاحظ أن تحرير الرقيق في بلاد لا تستطيع فيها المرأة أن تعيش بدون رجل يقوم بشؤونها، وتكون النتيجة أنها تضطر إلى كسب قوتها اليومية عن طريق غير شرعي يتمثل في الدعارة.

"وقد استغل الأوروبيون ما كان يسود المجتمع السوداني في حق المالك في ما يملك من رقيق فأفرتوا في التسري لدرجة أن الواحد منهم كان يتقلب بين أربعين جارية، وله من بعضهن أطفال يعجز عن إعالتهم، والطامة الكبرى كانت تحدث حين يغادر هذا الرجل الأوروبي السودان إلى بلاده تاركا الأم مع أطفالها فتضطر إلى بيع جسدها مشيعة الفاحشة في المجتمع".^١

ولأجل ذلك حرمت الحكومة المصرية هذه التجارة، وكانت هذه المحاولة قاصمة الظهر بالنسبة للحياة الاجتماعية في السودان، فقد كان الرقيق منتشرين في حياة الناس لأنهم كانوا الأيدي العاملة في الزراعة والري والصناعة، ولأجل ذلك كان السودانيون أكثر سخطا على الحكومة المصرية وأكثر تأييداً للثورة المهدية، ولما جاء السودان تحت السيطرة المهدية أبيحت تجارة الرقيق.

العادات والتقاليد السودانية

إن السودان يعد صورة مصغرة من قارة إفريقيا من حيث التنوع الشديد للمجموعات السكانية التي تعيش في أرجائه، فكان من الطبيعي أن تنتوع معه عادات وتقاليد أهل هذه البلاد، لذلك نجد أن كثيرا من العادات والتقاليد السودانية

١ نفس المصدر ص: ٣٧٠.

ترجع جذورها إلى التراث الحضاري الشعبي النوبي السابق على الإسلام كطقوس الأعراس والجنائز والشلوخ ووضع الوشم على الشفاه والجسد وتزيين المنازل وطلاتها. والاعتقاد بأن بعض الأعشاب والأشجار تؤثر في الناس وكذلك الرقص وآلات الصيد كالحراب وبعض الأدوات المنزلية والمباني مثل القطيه ومنها الزار الذي هو في أصله طقوس وثنية للقبائل الأفريقية انتقل من الحبشة إلى السودان، وتشتهر القبائل السودانية بالطبيعة المحافظة والتدين العام والذي يربط الفرد والمجتمع. وترتبط العادات والتقاليد السودانية بالمناسبات الدينية مثل شهر رمضان وعيد الاضحى وعيد الفطر وأيضا بالمناسبات الاجتماعية الخاصة مثل الزواج والمآتم.

والزواج هو من أبرز المناسبات الإجتماعية التي تبدو فيها ملامح السودان العربية الإفريقية إلا أن هذا الزواج يختلف ويتباين تماما باختلاف القبيلة، ويلعب النسب دورا هاما في الزواج، وأن القبائل العربية تحترم النسب جدا بل تنزله في المرتبة الأولى عند زواج بناتها.

أثر الطريقة الصوفية في المجتمع السوداني

دخل الإسلام في السودان بعد الصلح بين ملك النوبة والقائد الإسلامي الصحابي الجليل عبد الله بن سعد ابن أبي سرح القرشي رضي الله عنه، وانتشر فيه من خلال المصاهرة والعلاقات السلمية، وكان الإسلام في بداية الأمر يتسم بالطابع السني في طبيعته العامة ولكن بعد تدفق القبائل البدوية العربية من جهينة إليه من

جنوب مصر، غلب عليه الجهل بأحكام الدين وتفاصيل الشريعة، وبما أن الطريقة الصوفية كانت موجودة في المناطق المجاورة، فجاء دعاة الطرق الصوفية إلى السودان وقاموا بنشرها فيه، وبدأ السودانيون البسطاء يلتفتون حول هؤلاء الدعاة والمشايخ إذ أنهم وجدوا عند هؤلاء الناس ما قد ينقذهم من أوضاعهم المتردية ماديا وروحيا وهكذا كثر الإقبال على الطرق الصوفية وازداد مؤيدوها حتى كاد كل مسلم سوداني ينضوي تحت طريقة صوفية. وانتشرت في السودان طرق صوفية عديدة أهمها ما يلي:

الطريقة القادرية:

تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكانت هذه الطريقة أكثر انتشاراً في العالم الإسلامي عامة وفي السودان خاصة، دخلت هذه الطريقة في السودان على يد الشيخ تاج الدين البهاري عام ١٥٤٥م،^١ ومن أقطاب هذه الطريقة الشيخ عبدالله الحمال جد الدكتور حسن الترابي زعيم الحركة الإسلامية السودانية الحديثة، وكانت هذه الطريقة وثيقة الصلة بالحاكم طوال تاريخ السودان، وكانت هذه الطريقة متممة بالطابع السلمي والتسامح والوفاء.

الطريقة السمانية:

تنتسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، الذي كان يقيم بالحجاز، وأخذه عنه الشيخ السوداني أحمد الطيب البشير. وأشهر من الشيخ عبد الرحيم وقيع الله في كردفان، والشيخ قريب الله ولد أبو صالح في أم

١ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، د- شوقي ضيف، ص: ٦٣٥.

درمان والشيخ عبد المحمود نور الدائم بالجزيرة وسط السودان^١. وتتميز هذه الطريقة بتعدد مراكزها الدعوية ولا تشترط أن يكون شيوخ الطريقة وخلفائها من نسل الشيخ المؤسس، ولهذا السبب استطاع الإمام المهدي السوداني من استقطاب أتباع الطريقة السمانية في ثورته على الاستعمار التركي وتحرير السودان من نيره في عام ١٨٨٥م.

الطريقة الشاذلية:

تنسب هذه الطريقة إلى أبي الحسن الشاذلي، وجاءت هذه الطريقة إلى السودان بجهود الشيخ حمد أبو دنانه، إنه قدم إلى السودان من المغرب في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وأقام بقرية سقادي بشمالي السودان وقام بنشر هذه الطريقة في هذا الإقليم. وتعد الطريقة الشاذلية من أول الطرق الصوفية انتشارا في السودان، والمعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية وتهاجم على حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش في السودان، وأشهر فروعها الطريقة المجذوبية التي تنتشر في شمالي السودان في منطقة الدامر وفي شرق السودان^٢.

الطريقة الختمية:

تعتبر الطريقة الختمية حديثة النشأة مقارنة بالطرق الصوفية الأخرى في السودان، فقد تأسست عام ١٨١٧م على يد السيد محمد عثمان الميرغني وهو من

١ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٤٣٠.

٢ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، د- شوقي ضيف، ص: ٦٣٥.

أشرف مكة، أرسله أستاذه الشيخ أحمد بن إدريس إلى السودان للدعوة إلى الإسلام وإرشاد الناس إلى أمور دينهم ودنياهم، وتنتشر هذه الطريقة في مصر وشرق القارة الأفريقية وغربها وأوسطها وشمالها بجانب مركزها في السودان. وسميت هذه الطريقة أيضا بالطريقة الختمية. وأشهر فروعها الطريقة الإسماعيلية التي انتشرت في إقليم كردفان ودنقلة. و تحتل مكانة مرموقة بين الناس، وهي تعتبر من أوسع الطرق الصوفية انتشارا في السودان، وهذه الطريقة تمتاز بخلوها من البدع والخرافات.^١

الدعوة المهدية

تتمثل المهدية في إحياء الدين دون التقيد برأي إمام متبوع من أئمة الفقه أو شيخ يقتدى به من زعماء الطرق الصوفية، ويرى المهدي أن الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والشريعة الإسلامية من الخرافات والبدع التي طرأت عليها. وإنه قام بإقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق، ورجم الزاني، وحرم على أنصاره شرب الخمر وتدخين الحشيش واستخدام الفاحش والاستماع إلى الموسيقى، ودعت المهدية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان، وأن المهدية تشبه بالحركة الوهابية في التشدد في مبادئ التوحيد وتوجيه الناس إلى الكتاب والسنة ومحاربة البدع.^٢

وكذلك تشبه الدعوة المهدية بالدعوة السنوسية التي تتمثل في البساطة في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل خفض المهر ومنع النساء من لبس الذهب والفضة وخروجهن مكشوفات الرؤوس وعدم الاحتفال بالأعراس ومنع البكاء وراء

١ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٤٣٨.

٢ في تاريخ العرب الحديث، د- رأفت غنيمي الشيخ، ص: ٢٨٩.

الميت، وإبطال السحر والتعزيم.^١ إلا أن صاحب الدعوة المهديّة محمد أحمد المهدي قد ادعى بأمر لم تجد قبولا حتى عند السودانين، مثلا إنه ادعى بكونه هو المهدي المنتظر الذي ظهر من أجل تخليص البلاد من الشرور والخرافات والآثام وإقامة دولة جديدة على أسس الدين القويم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه في المنام، ووصف انتقاله من جزيرة أبا إلى جبال النوبة بالهجرة ومن صحبه بالمهاجرين ومن استقبلوه في جبال النوبة من أهل كردفان بالأنصار، فكان من المستبعد أن يقبل السودانيون كل هذه الدعاوى، وكان السنوسيون والسلفيون أكثر الناس ريبية وشكا في ذلك، ولأجل ذلك لم تدم الدعوة المهديّة أكثر من ثلاثة عشر عاما وانهارت في عام ١٨٩٨م،^٢ وبالإضافة إلى هذه الطرق انتشرت عشرات الطرق الصغيرة والفرعية في السودان، وأسهمت في تشكيل المجتمع السوداني والوحدة الوطنية، وكذلك تأثر السودان بالحركة السلفية عن طريق أحمد بن إدريس الفاسي.

وبعد خضوع السودان تحت الاستعمار الثنائي المصري الإنجليزي بدأ الاستعمار في وضع اللبنة الأساسية لبناء القطاع الحديث في السودان، وقام بتطوير خدمات الصحة والتعليم وافتتح كلية غوردون التذكارية. واهتم الاستعمار بالقطاع الرعوى والزراعي والقطاعات الأخرى، كما كرس الاستعمار لفكرة الإدارة الأهلية على خلفية النظام القبلي السائد في السودان، وساهم أيضاً في خلق التنافر القبلي مستفيداً من التنوع والتعدد الثقافي والعرقى الموجود في السودان.

١ الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د- حسن أحمد محمود، ص: ٣٧٠.

٢ في تاريخ العرب الحديث، د- رأفت غنيمي الشبخ، ص: ٣٠٢.

فتبين لنا أن البناء الاجتماعى فى السودان كان خاضعاً للسياسات الاستعمارية المركزية ولعلاقات الإنتاج الزراعية والرعية وسيادة قيم الريف. وفي هذه الأثناء ظهرت الحركات الاجتماعية من أجل تحقيق الاستقلال ومجابهة المستعمر الإنجليزى، فكان ميلاد أول حركة اجتماعية متمثلة فى النقابات فى الأربعينيات من القرن العشرين، وهذه الحركات الاجتماعية هى امتداد لكل الحركات التحررية والنضالية ضد المستعمر، والتي نضجت بصورة واضحة مع حركة اللواء الأبيض ومؤتمر الخريجين.

وبعد الحصول على الاستقلال فى يناير ١٩٥٦م واكتمال شكل النظام السياسى بتسليم السلطة لحكومة منتخبة ديمقراطيا وارتضاء نظام الحكم الديمقراطى الليبرالى خرج السودان من الاستعمار إدارياً، ولكنه لم يخرج فعلياً من التبعية المفروضة عليه كجزء من دول العالم الثالث، ولكن أهم ما يميز هذه المرحلة ظهور الحركات الاجتماعية فى عباءة الحزبية، وخاصة مع المد الاشتراكى التقدمى الذى طغى على المثقفين والمتعلمين فى تلك الفترة، فكانت كل الشعارات مرتبطة بالقضاء على الرجعية والتخلف والتحرر من أشكال الاستعمار القديم والجديد، فأصبحت الحركات التقدمية هى التى تهيمن على كل الحركات الاجتماعية التقليدية. وشهد الاقتصاد السودانى فى ذلك الوقت انهياراً كبيراً فى كل قطاعاته الحيوية وتردى وضع القطاع العام وزادت نسب البطالة والهجرة، وتأثر البناء الاجتماعى بهذه التحولات الكبيرة على المستوى الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى.

الفصل الرابع

الوضع التعليمي والثقافي للسودان في القرن العشرين

كان الوضع التعليمي في السودان يتمثل في شكل "خلاوي" أو "زوايا" حينما استولى عليه محمد علي، وكانت هذه الخلاوي أو الزوايا تلعب دورا فعالا في نشر التعليم خاصة التعليم الديني بين أبناء السودان، وكان التعليم الديني متأثرا للغاية بالطريقة الصوفية، والتي كانت قد انتشرت في معظم أنحاء البلاد في ذلك الوقت. ولما تم فتح السودان على يد القوات المصرية، لم تعتمد الحكومة المصرية إلى إنشاء المدارس الحديثة كما كانت في مصر بل إنها لجأت إلى إرسال الطلاب السودانيين إلى المدارس الإعدادية المصرية لكي يتلقوا التجربة الحديثة من التعليم، ولكن عندما ازداد عدد الطلاب المبعوثين في المدارس المصرية، أرادت الحكومة المصرية نقل هذا النوع من التعليم الحديث إلى إقليم السودان نفسه، وبدأت المحاولة الأولية في عهد عباس باشا الأول حينما تم إنشاء مدرسة إعدادية في الخرطوم عام ١٨٤٤م برئاسة رفاعة الطهطاوي، فكانت هي أول محاولة تشهدها أرض السودان لإدخال التعليم المدني الحديث.^٢

ثم توسعت النهضة التعليمية الحديثة أو حركة التعليم الحديث في عهد إسماعيل، فأنشئت خمس مدارس حديثة في مديريات الخرطوم ودنقلة والتاكة، وكانت هذه المدارس تلعب دوراً رئيسياً في نشر الوعي الحديث بين أبناء السودان

١ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، د- حمدنا الله مصطفى حسن، ص: ٤٧٣.

٢ الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، د- حسن أحمد محمود، ص: ٣٥١.

حتى أضيفت إليها مدرستان: واحدة في مصوع والثانية في سواكن، ولم يتوقف هذا اللون من التعليم الحديث في السودان، بل استمرت هذه المدارس في أداء واجباتها والتي زاد عددها عاما بعد عام، ولم يقتصر هذا التعليم على شمال السودان فحسب، بل إنه امتد إلى مديرية خط الاستواء.^١

ولكن هذه المدارس كانت أكثرها تتركز على نشر التعليم الديني المتأثر بالطريقة الصوفية والتي بلغت ذروتها في عهد محمد أحمد المعروف بالمهدي حتى بدأ السودانيون يعدون هذا النوع من التعليم جزءا من رسالتهم الدينية. وعلى كل حال استمر إرسال البعثات الطلابية إلى مصر لكي يتخصصوا في مجالات شتى من الزراعة والصناعة، ولكي يكونوا نواة طيبة في السودان يمكن الاعتماد عليهم في المستقبل، إلا أن مستوى التعليم والثقافة في السودان لم يتطور مثلما كان في مصر وذلك لأن التوسع في التعليم بعد محمد علي كان على خطى وئيدة لا تلائم مع تناسب السكان السودانيين، وذلك لأنه لم توضع برامج التعليم التي تناسب أحوال السودانيين وتتمشى مع مستوياتهم العلمية والثقافية أو تفتح أمامهم آفاق التعليم على نطاق واسع، ولذلك لم يكن أي أثر قوي لهذه النهضة التعليمية الحديثة في حياة السودانيين، والسبب الثاني وراء ذلك هو أن السودان كان في حالة الاستقرار السياسي في تلك الفترة، ولكن مع بداية الاستعمار المصري الإنجليزي في بداية القرن العشرين بدأ عهد جديد في مجال التعليم والثقافة في السودان. وكان الغرض من التعليم هو خلق طبقة من الصناع المهرة

١ نفس المصدر ص: ٣٥٣.

والفنيين يقومون على أمور الزراعة والصناعة وعلى نشر نوع من التعليم بين الناس بالقدر الذى يساعدهم في معرفة القواعد الأولية لجهاز الدولة، وخاصة فيما يتعلق بالعدالة والقضاء. وتدريب طبقة من أبناء السودانيين لشغل الوظائف الحكومية.

فتطورت الأحوال التعليمية والثقافية في السودان خاصة بعد الاستعمار المصري الإنجليزي، وكان أول مظاهرها إنشاء الجامعات والمدارس، ففي عام ١٨٩٩م وضع الحجر الأساسي لكلية غوردون التي جمع تكاليفها الجنرال كتشنر في لندن لتخليد ذكرى الجنرال غوردون،^١ والتي أصبحت فيما بعد جامعة الخرطوم. وجلبت لها الكتب من جميع أنحاء العالم، وإنها أخذت تتطور بسرعة. وتوجه السودان توجهها خاصاً إلى شؤون التعليم في جميع مراحلها بعد أن خرج الكتب القديمة تأليفاً وترجمة ونشراً وكثر عدد القراء والأدباء في هذه البلاد، وانتشرت المجلات والصحف اليومية.

وافتتحت أول مدرسة للبنات في السودان عام ١٩١١م، ثم ازداد عددها إلى خمس مدارس بعد مضي ثلاثة عشر عاماً. وفي عام ١٩١٢م وافقت الحكومة الاستعمارية بناء على طلب العلماء على إنشاء معهد أم درمان العلمي، ويمثل المعهد بداية التعليم الدينى النظامى بالسودان الذى تبنى نظام الأزهر. وقد تطور المعهد العلمى في منتصف الستينات من القرن العشرين ليصبح جامعة أم درمان الإسلامية في ١٩٦٥م. ثم أفتتحت كلية الطب تخليداً لذكرى كتشنر عام ١٩٢٤م،

١ تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر، د- إسماعيل أحمد ياغي، و الشيخ محمود شاکر، ص:

وتعتبر كلية كتشنر أول كلية طب في شمال إفريقيا أنشئت على نهج متناسق ومتكامل ولم تتقيد بمنهج كليات الطب بإنجلترا.^١

وأصبحت كلية غوردون كلية الآداب عام ١٩٤٠م، ثم تحولت إلى جامعة الخرطوم عام ١٩٥٦م، وبذلك أصبحت أول كلية إفريقية مرتبطة بجامعة لندن تتحول إلى جامعة مستقلة تمنح شهادتها الخاصة. وأنشأت جامعة القاهرة فرعاً لها بالخرطوم عام ١٩٥٥م شاملاً كليات الآداب والقانون والتجارة ولحقت بها كلية العلوم. وتحول هذا الفرع في عام ١٩٩٣م إلى جامعة النيلين والتي توسعت لتشمل كليات علمية أخرى.

ولما استقل السودان عام ١٩٥٦م ظهرت محاولات عديدة لتطوير التعليم في السودان في كافة المجالات، في عام ١٩٦٩م حدث تغيير سياسي في البلاد حيث عقد أول مؤتمر قومي جامع لمناقشة قضايا التعليم وتحديد أهدافه، وكان محاولة لوضع أهداف وأسس لبناء منهج قومي، وفي عام ١٩٧٣م وضعت أول وثيقة لأهداف التربية والتعليم في السودان، وعلى الرغم من استمرار محاولات إصلاح التعليم في السودان منذ عهد الحكم الثنائي، إلا أن أهدافه ظلت غامضة ومتسمة بالشمولية وبعيدة عن المعتقدات الدينية والقيم المرتكزة على عقيدة غالبية أهل السودان وعادات وتطلعات المجتمع السوداني، وقد نتج عن تلك الأهداف مناهج

١ نفس المصدر، ص: ٥٦.

ضعيفة مترهلة متفككة، يلحظ فيها انفصال واضح بين محتوياتها، والمرتكزات العقائدية والبناء الحضاري والتراث الثقافي والاجتماعي لأهل السودان.

وفي عام ١٩٧٥م أنشئت جامعتا جوبا والجزيرة كأول جامعتين بالولايات، وفي عام ١٩٩٠م بدأت ثورة التعليم العالي التي أثمرت عن قيام عدد كبير من الجامعات في الولايات. وبدأ معهد الخرطوم الفني كمدرسة ملحقة بوزارة الأشغال لإعداد الفنيين في مجالات الهندسة المدنية والميكانيكية. ويعتبر معهد الخرطوم الفني أساس التعليم الفني والتقني في السودان. وسمي فيما بعد بمعهد الكليات التكنولوجية الذي تحول في عام ١٩٩٠م إلي جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا. ونشأت بمدينة أم درمان مدرسة الأحفاد الأهلية عام ١٩٦٠م وتحولت إلي كلية الأحفاد للبنات عام ١٩٦٦م التي تحولت إلي جامعة الأحفاد للبنات عام ١٩٩٥م، وأنشئت كلية أم درمان الأهلية في عام ١٩٨٦م والتي تحولت إلي جامعة أم درمان الأهلية في عام ١٩٩٥م . بعد ذلك تتابع إنشاء الجامعات والكليات الأهلية.

وشهد السودان منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين تطورات وتغيرات أساسية في التعليم العام الذي شملت نوعيته وانتشاره لمقابلة المتطلبات التنموية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد، ويهدف النظام التعليمي في السودان إلى إعداد الناشئة وتمكينهم من المشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأن الحكومة الحالية تحت رئاسة عمر حسن البشير تبذل قصارى جهدها من أجل النهوض بمستوى التعليم العالي في السودان.

الباب الثاني

تطور الرواية العربية في السودانحتى عام ٢٠١٠م

- | | |
|---------------|---|
| الفصل الأول: | نبذة عن تطور الرواية العربية |
| الفصل الثاني: | تطور الرواية العربية في السودان |
| الفصل الثالث: | المواضيع والقضايا التي تعالجها الروايات السودانية |
| الفصل الرابع: | دراسة مقارنة بين الروايات السودانية والروايات الأخرى مثل الرواية المصرية واللبنانية |

الفصل الأول

نبذة عن تطور الرواية العربية

تعريف الرواية:

لغة:

الرواية كلمة مشتقة من كلمة الري بمعنى نقل الماء من مكان إلى مكان آخر لري الأرض أو إشباع الظم، ثم استخدمت لنقل الخبر من شخص إلى آخر، ثم ارتبطت هذه الكلمة بعلم الحديث النبوي الشريف حيث يروي راو رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بها الآخرين. وبعد ذلك ارتبطت بالتاريخ والأدب. ثم توسع معناها حتى أصبحت الرواية مرادفة للقصة والقصة الطويلة.

و اصطلاحا:

إن الرواية لها تعريفات عديدة، من أهمها: "الأ نضع حدا للرواية، لأنها كشكل ثقافي يمكن أن تشتمل كل موضوع يهتم به، بدءا من الفلك وانتهاء بالتحليل النفسي."^١ وقريب من هذا التعريف ما ذهب إليه إدوين موير "أن الرواية لاشكل لها، لأن الحياة التي تصورها لاشكل لها."^٢ ويرى فورستر "أنها قصة نثرية خيالية ذات امتداد معين."^٣ والرواية لها تعريف آخر: "أنها سرد نثري، أوقصة

^١Cassell's Encyclopedia of Literature v. 1, p, 387.

^٢ بناء الرواية، لإدوين موير: ترجمة إبراهيم الصيرفي، ص ٦

^٣ أركان الرواية، إي-أيم فورستر: ترجمة عياد كمال، ص ٣١

ممتدة امتدادا شاسعا، وفيها شخصيات وأحداث، تمثل الحياة في الماضي أو الحاضر، مرسومة في حبكة معقدة كثيرا أو قليلا.¹ كذلك نجد هناك تعريفات أخرى مثلا: أن الرواية "تجربة إنسانية، يعبر عنها أدبيا بأسلوب نثري سردا وحوارا، في حبكة معقدة من خلال تصوير شخصية مأزومة أو مجموعة أفراد، يتحركون في إطار واقع اجتماعي محدد المكان والزمان، ولها امتداد معين من ناحية الطول أو القصر، الأمر الذي يحدد شكلها النوعي من حيث كونها رواية طويلة أو قصة قصيرة." ويمكن من هذه التعريفات أن ننتهي إلى أن الرواية: "تجربة أدبية تصور بالنثر حياة مجموعة من الشخصيات تتفاعل مجتمعة لتألف إطار عالم متخيل غير أن هذا العالم المتخيل ينبغي أن يكون قريبا مما يحدث في الواقع الذي يعيشه الكاتب."

فتعد الرواية تشكيلا للحياة البشرية ويعتمد هذا التشكيل على حدث الناس من خلال شخصيات متفاعلة مع الأحداث والبيئة التي تدور فيها هذه الأحداث وتصل في النهاية إلى نتيجة اجتماعية أو سياسية أو فلسفية.

ولها أربع سمات رئيسية: ١- شكل أدبي سردي يحكيه راو. ٢- أطول من القصة تغطي فترة زمنية طويلة. ٣- تكتب في لغة نثرية. ٤- عمل قوامه الخيال.

عناصر الرواية

إن العناصر المهمة التي يركز عليها العمل الروائي هي:

¹Encyclopedia Britanica. V, 16, p. 973

١- الحدث:

يفترض في كل رواية أن تقع أحداثها في نظام معين يسمى حبكة، إذ يجب أن ترتبط حوادث الرواية بشخصياتها ارتباطاً منطقياً يجعل من الموضوعات وحدة فنية ذات دلالة محددة.

٢- الشخصية:

الشخصية هي الكائن الإنساني الذي يتحرك في سياق الأحداث، وهي تنقسم إلى قسمين: الشخصية النامية: وهي تنمو بنمو الأحداث وتقدم على مراحل أثناء تطور الرواية وهي في حالة صراع مستمر مع الآخرين، أو في حالة صراع نفسي مع الذات،^١ والشخصية المسطحة: وهي لا تكاد تتغير من البداية حتى النهاية، وإنما تثبت على صفحة واحدة تكاد لاتفارقها.^٢

٣ البيئة:

ويراد بها الظروف المكانية والزمانية الثابتة والطارئة التي ترافق وقوع الأحداث داخل القصة، ويكون لها تأثيرها في تحديد مواقف الشخصيات وتصرفاتها.

٤- السرد والحوار:

هما الوعاء اللغوي الذي يحتوي على كل عناصر القصة وسمات اللغة.

^١ القصة والرواية، عزيزة مريدين، ص ٢٨

^٢ دراسة في نقد الرواية، طه الوادي، ص ٢٧

أقسام الرواية

للرواية عدة أقسام رئيسية: الرواية التعليمية، الرواية التاريخية، الرواية الاجتماعية والرواية الفلسفية وغيرها:

١ - الرواية التعليمية:

فهي من أهم أقسام الرواية التي تركز جميع عناصرها على إيقاظ الشعور والوعي التعليمي في المجتمع حيث يقرأها القارئ من غير سامة ولا ملل، ويجد في نفسه الأمل والرجاء للتقدم في مجال التعليم والارتقاء، وهي أقدم الفنون التي حاولت أن تتخذ شكلاً روائياً في الأدب العربي الحديث، والهدف من هذا القسم المميز من الرواية تعليم وتنقيف القراء.

ويرجع الفضل في ذلك إلى رفاة رافع الطهطاوي كما يقول الدكتور طه محسن البدر في كتابه تطور الرواية العربية الحديثة في مصر: "ويعتبر رفاة رافع الطهطاوي أول من وضع البذور الأولى لنشأة الرواية التعليمية في كتابه تخلص الإبريز وفي روايته المترجمة مغامرات تليمتك."

٢ - الرواية التاريخية:

هي من أهم أقسام الرواية ويكون الهدف من عرضها في قالب الرواية نشر الوعي التاريخي بين أفراد المجتمع. وأن الذين كتبوا الروايات التاريخية أنهم استمدوا

موضوعات رواياتهم من تاريخ العرب والإسلام. وفي طليعتهم جرجي زيدان^١
ومعروف الأرنؤوط.^٢

٣- الرواية الاجتماعية:

هذا القسم من الرواية هو أوسع أنواع القصة الحديثة انتشاراً. وأكثر ما
عالجه الكتاب المعاصرون، وإنهم استمدوا موضوعات رواياتهم من واقع المجتمع.

٤- الرواية الفلسفية:

هي الرواية التي تجمع بين دفتيها القضايا الفكرية والاجتماعية فتكون مزجاً
من النوعين ولها ميزات خاصة كتلك التي تتجلى في محاولة الكاتب للجمع بين
الأسلوب القصصي المشوق والمبادئ التي يحاول الكاتب عرضها وتقديمها.

تطور الرواية العربية

اختلف النقاد والأدباء حول نشأة الرواية العربية الحديثة، فالبعض يرى أن
الرواية الحديثة فن جديد مستورد من الغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع
عشر في بداية عصر النهضة الأدبية الحديثة في مصر وبلاد الشام، بينما يرى
البعض الآخرون أن العرب قد كتبوا الأدب الروائي والقصصي منذ وقت مبكر

^١جرجي زيدان رائد الرواية التاريخية، وهو أديب لبناني هاجر إلى مصر وله في باب القصة إحدى
وعشرون رواية خصص منها ست عشرة لتاريخ العرب والإسلام وأربعاً لتاريخ مصر الحديث وواحدة
للانقلاب العثماني ١٩٠٨م، وغير هذه الروايات كتاب في تاريخ التمدن الإسلامي، وآخر في تاريخ
آداب اللغة العربية.

^٢هو أديب سوري معاصر وله روايات تاريخية عديدة منها: "سيد قريش" و"عمر بن الخطاب" و"طارق
بن زياد" و"فاطمة البتول" وغيرها. ورغم أن هذه الروايات تاريخية، تسودها نزعة عاطفية.

ويستشهدون في هذا الخصوص بملاحم عنتره ورأس الغول وسيف بن ذي يزن
والسيرة الهلالية وحكايات ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران وقصة حي بن يقظان
وغيرها. والحقيقة أن جذور الأدب القصصي كانت موجودة منذ زمن قديم في أدب
كل مجتمع سواء في ذلك المجتمع العربي والمجتمعات الأوربية وغيرها، ولكن
الرواية بخصائصها الفنية نشأت في العقود الأولى من القرن الثامن عشر،^١

أما العرب فلم يكتبوا الرواية إلا في أواخر القرن التاسع عشر في مصر والشام.
وإن الرواية بشكلها الراهن لم يكن يعلمها الكتاب القدماء والسابقون بل إنها دخلت في
الأدب العربي بعد أن تأثرت بحضارة الغرب الحديثة، وإنها تطورت كما تطورت القصة
وبرزت أولاً بالترجمة من الأدب الغربي وكانت الترجمة مصدرها الأول حتى ما بعد
الحرب العالمية الثانية، وهي إنتقلت إلى العربية من الترجمة كما يقول الدكتور شوقي
ضييف: "فكان لنا في العصور الوسطى قصص شعبية ولكن لم يكن لنا قصص
فصيحة ولما اتصلنا بأوروبا وأخذنا نتأثر بأدبها فاتجه أدبنا إلى القصص الغربية
وحاولوا أن يترجموها وكان رفاة الطهطاوي في مصر هو الرائد لهذه الحركة، فترجم
سنة ١٨٦٧م رواية "مغامرات تليماك" لفنلون وسماها "مواقع الأفلاك في وقائع
تليماك".^٢ وهذه الرواية مشتملة على الحكايات النفيسة في ممالك أوروبا وتعد أول
مظهر من مظاهر النشاط الروائي في مصر في القرن التاسع عشر، وكان الهدف

١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ٢٧

٢ الأدب العربي المعاصر في مصر، د- شوقي ضيف، ص ٢٠٨

منها تقديم نصائح للملوك والحكام وتقديم مواعظ لتحسين سلوك عامة الناس،^١ بينما كان الأدب الرسمي قبل ذلك يتمثل في شعر ركيك يفتقر إلى الحياة وأدب المقامات بل يمكن القول إن الأدب العربي كان معظمه يقوم على المهارة اللغوية واللعب بالألفاظ.

ولكن لما دخل التعليم الحديث في مصر والشام وقامت الإرساليات التبشيرية في هذه البلاد بنشاطها التعليمي والثقافي، فكان من نتيجة هذا التعليم الحديث واحتكاك العرب بالغرب أن برز على الساحة جمهور جديد من القراء يقبل على القراءة في الآداب الأوروبية مباشرة أو من خلال الترجمة. وكان الاهتمام في عهد محمد علي منصبا على الترجمة العلمية والكتب الدراسية إلا أن عهد اسماعيل يعد بداية العصر الذهبي لازدهار الترجمة الأدبية، لأن في عهده انصرفت جهود المترجمين إلى الأعمال الأدبية. فترجم رفاعه الطهطاوي رواية "مغامرات تليماك" لفنلون المذكورة أعلاه (١٨٦٧م) وكذلك ترجم بشاره شديد "الكونت دي مونت كريستو" للإسكندر (١٨٧١م) وترجم عثمان جلال "بول وفرجينى" لبرناندا دي سان بيير تحت عنوان مسجوع "الأمانى والمنة في حديث وقبول وورد جنة" (١٨٧٢م) وترجم يوسف سركىس "جول فرن" بعنوان: "الرحلة الجوية في المركبة الهوائية" (١٨٧٥م).^٢ فكان الإقبال الشديد لجمهور القراء على أمثال هذه الأعمال الأدبية سببا رئيسيا في ازدهار حركة الترجمة فترجمت مئات الروايات من اللغة الفرنسية وحدها حتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين.

١ تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، ص

وبالرغم من عيوب الأعمال المترجمة آنذاك إلا أن الفضل يعود إلى المترجمين في تقديم الأشكال الأدبية الحديثة إلى القراء العرب خاصة إلى الذين لا يعلمون اللغة الأجنبية.

وكانت ردود الفعل قد اختلفت لدى هؤلاء القراء سواء بالنسبة للقوالب الحديثة أو الأفكار والآراء الوافدة، فرأى البعض فيها غزوا ثقافيا يجب محاربتة، حينما رأوا مدى شعبية الروايات المترجمة في أوساط القراء العرب، ودعوا إلى الانصراف عنها كلية والعكوف على الاستفادة من التراث العربي القديم والحضارة العربية القديمة، كما دعا إلى ذلك فتحي زغلول (المتوفى عام ١٩١٤م)، وكان يعتقد الأب لويس شيخو: "أن تسعين بالمائة من الأعمال المنشورة، إنما هي ترجمات تافهة وغير أخلاقية يطغى عليها الحب"،^١ وفي نفس الحين اتجه محافظون آخرون إلى إحياء المقامة كما فعل محمد المويلحي (١٨٨٥-١٩٣٠م) الذي نشر مقامته "حديث عيسى بن هشام" في عام ١٩٠٧م، وحافظ إبراهيم (١٨٦٨-١٩٣٢م) الذي نشر "ليالي سطيح" في عام ١٩٠٦م، وكما فعل محمد لطفي جمعة (١٨٨٩-١٩٥٣م) الذي نشر "ليالي الروح الحائر" عام ١٩١٢م وغيرهم.

وكان يرى جمهور المثقفين من كبار المفكرين كالإمام محمد عبده أنه ينبغي الاستفادة مما يساعد على تقوية المجتمع العربي والمسلم، سواء يوجد في الحضارة الغربية أو في التراث العربي القديم، وهذا الفريق قد حاول توظيف الروايات في

^١ The Egyptian Novel & its main trends, Hamdi Sakkut 1913-1952

معظم الأحيان لأهداف تربوية أو أخلاقية أو تاريخية أو اجتماعية. منهم: علي مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣م) الذي نشر روايته "علم الدين" عام ١٨٨٢م وأحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢م) الذي نشر عددا من الروايات التاريخية ومصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤م) الذي قدم كثيرا من الأعمال القصصية المعربة أو المؤلفة وكذلك محمد حسين هيكل (١٨٨٦-١٩٥٦م) الذي نشر روايته "زينب" في عام ١٩١٣م.

ورأى البعض الآخر أن الوافد إلينا حضارة عالمية ستشمل كافة المجتمعات إن عاجلا أو آجلا، ولأجل ذلك يجب تبنيها بدون اضاءة للوقت والجهد في إحياء تراث كان ملائما لزمه،^١ ومن هؤلاء: فرانسس مراث (١٨٣٦-١٨٧٣م) الذي ألف "غابة الحق" عام ١٨٦٥م، وسليم البستاني اللبناني (١٨٤٧-١٨٨٦م) الذي كتب "الهيام في جنان الشام" عام ١٨٧٠م وكذلك هناك رجال آخرون الذين أقبلوا على تبني الشكل الغربي دون تردد.

بداية الرواية العربية

كما أنه من المعلوم أن اتجاهها جديدا ظهر في الأدب العربي الحديث خاصة في أواخر القرن التاسع عشر في مصر ولبنان، وكان أصحابه ميالين إلي الأدب الغربي، فإنهم بدأوا يترجمون القصص والروايات الغربية التي كانت موضوعاتها في أغلب الأحيان موضوعات رومانتيكية مثل الحب والجنس دون

١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، د- حمدي السكوت، ص ٣٢

الانتباه إلى الآثار السلبية التي تتركها هذه القصص والروايات في العقيدة والثقافة العامة، وفي نفس الوقت أنتج هؤلاء الكتاب مؤلفات قصصية منقطعة عن الجذور العربية، مطبوعة بطابع التقليد للقصة الغربية تغلب عليها نزعة رومانتيكية، والغرض منها التسلية.

وقد جاءت هذه العملية الأولى علي يد الشاميين أولاً، منهم: فرانسس مراه (١٨٧٣-١٨٣٦م) السوري الذي نشر روايته "غابة الحق" عام ١٨٦٥م وهي رواية أخلاقية و"لعها أول رواية عربية مؤلفة"،^١ وسليم البستاني (١٨٤٧-١٨٨٤م) اللبناني الذي ألف "الهيام في جنان الشام" عام ١٨٧٠م وموضوعها قصة بين رجل وفتاة يلتقيان تارة ويفترقان تارة أخرى ولكن يتزوج المحبان في النهاية، و"زنوبيا" عام ١٨٧١م، وموضوعها تذكّار تاريخي للصراع بين ملكة تدمر وبين الرومان، و"بدور" عام ١٨٧٢م وموضوعها حول أميرة أموية عشقت عبدالرحمن الداخل، و"أسماء" عام ١٨٧٣م وموضوعها قصة رجال أحبوا فتاة وكل منهم يحاول أن يجلبها إليه، و"فاته" عام ١٨٧٧م و"سلمى" عام ١٨٧٨م و"ساميه" عام ١٨٨٢م. وخلاصة القول إن موضوعات رواياته تتراوح بين التاريخ والاجتماع.

وكان من أبرز اللبنانيين الذين ظهوروا في تلك الفترة المبكرة الكاتب العزيز الإنتاج جرجي زيدان، الذي وصفه أنيس المقدسي قائلاً: توفي هذا الكاتب سنة ١٩١٤م بعد أن ترك للأجيال في باب القصة إحدى وعشرين رواية

١ نفس المصدر ص ٣٣

خصص منها ست عشرة لتاريخ العرب والإسلام وأربعاً لتاريخ مصر الحديث وواحدة للانقلاب العثماني سنة ١٩٥٨م^١، والذي أصدر أكثر من عشرين رواية تاريخية تهدف إلى تعليم التاريخ إذ يختار جرجي زيدان فترة من تاريخ العرب التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين تتصارعان للنفوذ والسلطة، وإنه يعتبر من رواد الرواية التاريخية. ولكن روايات جرجي زيدان رغم أهميتها الكبيرة في تسيير النهضة الروائية تنقصها جوانب فنية لما كان كثير من رواياته يقوم الجانب غير التاريخي منها - غالباً - على الأحداث والمؤامرات والمغامرات والحب والقتل^٢، ومن رواياته: "المملوك الشريد" و"أرمانوسة المصرية"، قدم فيها الأحداث التاريخية التي صاحبت فتح العرب لمصر، و"فتاة غسان"، عرض المؤلف في هذه الرواية الأحداث التاريخية التي صاحبت الغزوات الإسلامية الأولى، و"عذراء قريش"، و"غادة كربلاء" و"الحجاج بن يوسف"، و"فتح الأندلس"، و"شارل عبد الرحمان"، و"العباسة أخت الرشيد"، و"عبد الرحمان الناصر" وغيرها^٣. تحتوي روايات جرجي زيدان على عنصرين أساسيين: العنصر الأول هو عنصر تاريخي يعتمد على الحوادث والأشخاص التاريخية، والعنصر الثاني هو عنصر خيالي يقوم على علاقة غرامية والحب بين محبين^٤.

١ الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي، ص ١٦

٢ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، د- حمدي السكوت، ص ٣٤

٣ تطور الرواية العربية الحديثة، لعبد المحسن طه بدر، ص ١٩٣-١٩٤

٤ نفس المصدر ص ١٩٥

ومن الروائيين اللبنانيين الذين ألفوا روايات تاريخية واجتماعية في هذه المرحلة، فرح أنطون الذي ألف رواية "الوحش الوحش الوحش" أو "سياحة في أرز لبنان" عام ١٩٠٣م، و"الدين والعلم والمال" عام ١٩٠٣م و"أورشليم الجديدة" عام ١٩٠٤م، تحدث فيها المؤلف عن فتح العرب لبيت المقدس في عهد الخليفة عمر، ويوجد فيها عنصر غرامي ولكنه أضعف بكثير من العنصر الغرامي عند جورج زيدان، إلا أن روايات فرح أنطون كانت كما يقول الدكتور سهيل إدريس: "خليطاً من الفنون القصصية ففيها النزعات التحليلية والاجتماعية والأخلاقية والتاريخية والآراء الفلسفية"، ومن اللبنانيين الآخرين الذين كتبوا روايات تاريخية واجتماعية، أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠م) الذي نشر روايته "زنبقة الغور" (١٩٠٧م) و"خارج الحريم"، ونقولا حداد (١٨٧٢-١٩٥٤م) وإنه كان أكثر الروائيين الاجتماعيين إنتاجاً، إنه ألف عشرات الروايات وكلها ترمي إلى أهداف تربوية وأخلاقية واجتماعية، ومن رواياته: "حواء الجديدة" (١٩٠٦م) وهي نقد للناموس الاجتماعي الجائر الذي يتجاوز عن خيانة الرجل أو خلاعته ويحاسب المرأة على وقوعها بين يديه حساباً ثقيلاً، و"آدم الجديد" (١٩١٤م) وهي تاريخ آل الخزامي، و"العين بالعين" ذكر فيها المؤلف تجلية الطبع البشري في تطرفه بين الخير والشر، و"بينة لبنان" وهي تصور قصة حب فتاة وشاب عاشا في العهد الإقطاعي، وكذلك تلقي الضوء على مطامع الدولة العثمانية والدول الأوروبية في الاستعمار على لبنان

١ محاضرات عن القصة في لبنان، د- سهيل إدريس، ص ٧

وسوريا، ويعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧م) الذي نشر "فتاة مصر" (١٩٠٥م)،
ومن المهاجرين جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١م) الذي نشر "الأجنحة
المتكسرة" (١٩١٢م) وهي تتسم بالرومانتيكية والرمزية.

وخلاصة القول إن الرواية العربية كانت أغلبها في هذه المرحلة تقليدا
للقصة الغربية، يغلب عليها السرد التاريخي أو الاجتماعي دون ارتباط بمذهب فني
واضح.

الرواية الفنية

يرى معظم الأدباء والنقاد أن تاريخ الرواية العربية الناضجة من حيث الفن
يعود إلى محمد حسين هيكل الذي يعتبر الرائد الأول لها، كما يقول أحمد حسين
هيكل: "تعتبر "زينب" أول رواية فنية واجتماعية في تاريخ الأدب العربي الحديث،
وذلك لواقعيتها وسيرها على القواعد الفنية للرواية إلى حد كبير".^١

ويقول حمدي السكوت: "إن التاريخ الحقيقي للرواية المصرية والعربية بالمعنى
الدقيق للكلمة انما يبدأ بعام ١٩١٣م حين ظهرت رواية "زينب" لمحمد حسين
هيكل".^٢ وقدم فيها المؤلف واقع الريف المصري وجوانب الحياة الريفية وهي على حد
تعبير يحي حقي: "أفضل القصص في وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا"^٣، وبعد
نجاح رواية "زينب" اتجه عديد من الكتاب إلى كتابة الرواية منهم: إبراهيم عبد القادر

١ تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد حسين هيكل، ص ١٩٨

٢ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ٣٧

٣ فجر القصة المصرية، يحي حقي ص ٤٨

المازني الذي نشر "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١م) وتوفيق الحكيم الذي أصدر "عودة الروح" (١٩٣٣م) و"يوميات نائب في الأرياف" (١٩٣٦م) و"عصفور من الشرق" (١٩٣٨م) و"الرباط المقدس" (١٩٤٤م)، وعباس محمود العقاد الذي نشر "سارة" (١٩٣٨م) و"وطه حسين الذي كتب "أديب" (١٩٣٦م) و"شجرة البؤس" (١٩٤٤م) و"بجي حقي الذي نشر "البوسطجي" (١٩٣٣م) و"قنديل أم هاشم" (١٩٤٤م)، وكل هذه الروايات سيرة ذاتية مثل "زينب" على اختلاف في الدرجة.^١

وبعد ظهور رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل تقلل الإنتاج الروائي حيث لم تظهر إلا ثلاث روايات فقط حتى نهاية العشرينات من القرن العشرين، وهي: رواية "ثريا" (١٩٢٢م) لعيسى عبيد، حاول المؤلف فيها إبراز الشخصية المصرية والتعبير عن الواقع المصري،^٢ تصور الرواية قصة حب البطل وديع نعوم مع ثريا وهي شابة جميلة ومتقفة، يحبها ويريد الزواج منها ولكنها ترفض وتريد أن تتزوج للثراء والمكانة الاجتماعية، فتغير دينها المسيحي لكي تتزوج أحمد بك وهو مسلم شاب تركي وثري. إلا أن وديع بطل الرواية يستمر في حبه لها ويحلم برجوعها ذات يوم، وللحصول على حبه إنه يفتح ورشة كبيرة وراح يبذل أقصى جهوده لكسب الثروة الهائلة، ولكن لسوء الحظ، لم يذكر الكاتب مصير بطله، هل تحقق حلمه أم لا؟، إن هذه الرواية تعوزها جوانب فنية، و"رجب أفندي" (١٩٢٨م)

^١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ٣٩

^٢ تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، ص

لمحمود تيمور، كان تيمور في هذه الرواية أكثر حماسة في تصوير البيئة الشعبية وشخصياتها،^١ وتحكي الرواية أنه كيف يقع البطل رجب تحت تأثير الأرماني الحاج أحمد حلجيان الذي يدعي بتحضير الأرواح. تستحوذ على رجب فكرة الاتصال بوالديه اللذين توفيا في بواكير عمره، ولكنه بعد ذلك يدرك أن حلجيان دجال من الدجالين والمشعوزين. وتحت تأثير من الغيظ أنه يخنق حلجيان ويلجأ إلى ملجأ المجانين لبقية حياته. يقوم الكاتب في هذه الرواية بتحليل الصراع الدائر بين الباعث الديني وبين اعترافه بالطبيعة الحقيقية لحلجيان بالرغم من أن هذا الصراع مفروض من قبل الكاتب ولا ينشأ من تصرفات البطل. ونشرت الرواية الثانية لتيمور "الأطلال" عام ١٩٣٤م وتركز على الطبقة الارستقراطية التركية، وتعالج القضايا المختلفة مثل السادية والعلاقة غير الشرعية أكثر من القصص المصرية الأخرى، ورواية "ابنة المملوك" (١٩٢٦م) لمحمد فريد أبو حديد. و"حواء بلا آدم" لطاهر لاشين (١٩٣٤م)، يعبر المؤلف في هذه الرواية عن إحساسه بآس المثقفين من أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة، الذين يحاولون شق طريقهم في الحياة ولكن لا تمتنعهم تعويضا عن جهودهم إلا العذاب واليأس.^٢ تحكي هذه الرواية قصة حواء وهي بنت من أسرة فقيرة، تسعى حواء لتحسين مستواها المعيشي عن طريق التعليم ولكنها تحرم من المنحة الدراسية التي تسعى للحصول عليها منذ وقت طويل وتحصل عليها بنت من أسرة الطبقة الارستقراطية. فتدرك حواء أن المكانة الاجتماعية هي

^١ نفس المصدر ص ٢٣٩

^٢ نفس المصدر ص ٢٠٧

أقوى من المؤهلات العلمية، إلا أنها تقرر فرض شخصيتها على الآخرين ولأجل ذلك تصبح حواء ناشطة فعالة في الحياة الاجتماعية حتى أنها تقع في حب رجل من الطبقة الارستقراطية وهو رمزي، وبالرغم من أن رمزي معجب بمواهبها المدهشة إلا أنه لا يريد الزواج معها، فيتزوج في طبقة الارستقراطية. فتنهار آخر أمل حواء في الحياة، فتنحدر وتموت. وتصور الرواية عدم قدرة فتاة ألمعية معتزة بنفسها على سد الفجوة بين عالمين متناقضين، وشخصية حواء هي شخصية ديناميكية مع أفكار اجتماعية سامية وتوجد في الرواية كثير من وجوه البراعة الفنية إلا أنها تنقص بعض الجوانب الفنية، مثلا التعاطف المفرط بشخصيات الرواية.^١

ثم اتجه كتاب آخرون إلى كتابة الرواية منهم: طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦١م) وتوفيق الحكيم (١٨٨٩-١٩٨٧م) وإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩م)، وتأثر كل منهم ما عدا المازني بالفكر الأوربي وثقافته تأثرا كبيرا، فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك في كتاباتهم الروائية. نشرت رواية "الأيام" لطه حسين في جزئين عام ١٩٢٩م، هذه الرواية سيرة ذاتية، استخدم الكاتب فيها ضمير الغائب لسرد القصة، وصور بأسلوب أخذ المحن والشدائد التي عاناها منذ صغره والمآسي التي ألمت بأسرته، وتعد وثيقة للمجتمع المصري. وقدم الدكتور طه حسين خلال نفس الفترة أي خلال الحربين العالمين المحاولة الثانية وهي "أديب" شبه سيرة

^١Oringins of Modern Arabic Fiction, Moosa Matti, p 178

ذاتية. ونشرت روايته الأخرى هي "دعاء الكروان"، تحكي هذه الرواية قصة اغتصاب مهندس فتاة بدوية يقتلها عمها دفاعا عن حرمة أسرته، ثم تقرر أختها للانتقام من المهندس وذلك دفاعا عن كرامة أسرتها ولكنها خلال هذه العملية تقع في حبه وتتزوج. تتمتع الرواية بقلب متماسك وبوحدة الموضوع وعمق في رسم الشخصية. ورواية "شجرة البؤس" فهي تصور قصة شاب يتزوج مع فتاة قبيحة المنظر بدون أن يراها قبل الزواج وذلك وفقا للتقاليد الاجتماعية الراجحة، فإنه يتزوج مع امرأة أخرى ولكنه يتكبد خسارة مالية ويبلغ إلى حد الإفلاس. ويلوم قدره ويموت، فتتأسف أرملته على سوء الحظ ولا تعترفان بأن يؤسهما كان بسبب زوجهما.^١

نشر إبراهيم عبد القادر المازني رواية "إبراهيم الكاتب" عام ١٩٣١م، قدم فيها الكاتب القضايا الخلقية والاجتماعية وتعالج هذه الرواية إمكانية الحب مع نساء عديدات في وقت واحد. تتميز الرواية بلغة رشيقة ووصفها الجميل. وظهرت رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم عام ١٩٣٢م، تصور الرواية حالة أسرة مصرية من الطبقة المتوسطة، وكيف أنهم يقعون في حب جارة وماذا يحدث بمصيرهم في نهاية المطاف. وصدرت رواية "يوميات نائب في الأرياف" عام ١٩٣٧م، و"الرباط المقدس" عام ١٩٤٤م و"عصفور من الشرق" عام ١٩٣٨م. ونشرت رواية "سارة"

١ نفس المصدر ص ١٧٧

لعباس محمود العقاد عام ١٩٣٨م، تحلل هذه الرواية علاقة الرجل بالمرأة المشكوك فيها.^١

وكذلك برز علنا الساحة الروائي الكبير نجيب محفوظ وهو أبرز وأشهر الشخصيات التي ظهرت في القرن العشرين في تاريخ الرواية العربية، ويمكن أن نقسم أعماله إلى ثلاث مراحل: الأولى: المرحلة التاريخية التي قدّم فيها رواياته التاريخية، مثل "عبث الأقدار" (١٩٣٩م) و"رادوبيس" (١٩٤٣م) و"كفاح طيبة" (١٩٤٤م)، والثانية: المرحلة الاجتماعية، إنه اتجه في هذه المرحلة إلى كتابة الروايات الاجتماعية، فقد كتب "خان الخليلي" (١٩٤٥م): تركز هذه الرواية على حب أخوين لفتاة، وهي تقدم صورة واقعية لحياة وآمال وإحباطات الطبقة المتوسطة من المجتمع المصري في الفترة قبل الحرب العالمية الثانية، و"القاهرة الجديدة" (١٩٤٦م): تصور هذه الرواية تصويرا دقيقا للمجتمع المصري الذي يعاني من الفساد الخلقي والسياسي وتبحث عن القيم والمثل بشدة،^٢ و"زقاق المدق" (١٩٤٧م) وإنها تصور سكان زقاق المدق وأسلوب معيشتهم. و"السراب" (١٩٤٨م) و"بداية ونهاية" (١٩٤٩م) وكذلك الثلاثية: "بين القصرين" و"قصر الشوق" و"السكرية"، فقد كتبها في عام ١٩٥٢م ولكنه لم يستطع نشرها بسبب ضخامتها ويقال إنه حينما قدّمها إلى الناشر للطبع

١ مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية، ص ٦١ - ٦٢

٢ A Short History of Modern Arabic Literature, M.M. Badawi, p 137

فقال الناشر "اي الداهية دي"^١ وتم نشرها في عام ١٩٥٦م، ثم كتب "اللس والكلاب" (١٩٦١م) و"السمان والخريف" (١٩٦٢م) و"ثرثرة فوق النيل" (١٩٦٦م) و"ميرامار" (١٩٦٧م).

الثالثة: المرحلة النفسية أوالميتافيزيقية، ظهرت فيها المجموعة القصصية القصيرة الأولى، مثل "همس الجفون" (١٩٣٨م)، ثم ظهرت روايته المشهورة "أولاد حارتنا" (١٩٦٧م) و"الطريق" (١٩٦٤م)، و"الشحاذ" (١٩٦٥م) ومجموعة القصص القصيرة "دنيا الله" (١٩٦٣م) وكذلك "خمارة القط الأسود" و"تحت المظلة" (١٩٦٧م)، فكل هذه المراحل كانت مجرد علامات على الطريق التي سلكها نجيب محفوظ منذ عام ١٩٣٩م حتى عام ١٩٧٣م. وبعد ذلك ظهرت رواياته الأخرى منها: "المرايا" و"ملحمة الحرافيش" و"حضرة المحترم" و"يوم مقتل الزعيم" و"عصر الحب" و"أمام العرش" و"العائش في الحقيقة" و"الباقى من الزمن ساعة" وغيرها.

وكذلك بدأ الوعي القومي في البلاد العربية الأخرى بتأثير مصر في مجال الرواية، فظهرت في لبنان قصص وروايات عديدة مثلما كانت القصص والروايات المصرية وعالجت هذه القصص والروايات القضايا القومية والمشاكل الاجتماعية فظهرت رواية "العمال الصالحون" (١٩٢٧م) لإلياس أبو شبة والتي تصور انتحار طفل في السابعة من عمره ليتخلص من حياة الشقاء التي تسومه إياها امرأة أبيه. وكرم ملح كرم الذي أنقذ الرواية اللبنانية من هاوية السقوط وأحيائها من جديد، من

١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ٦٠

رواياته: "بونا أنطون" (١٩٣٧م)، و"صرخة الألم" (١٩٣٩م)، و"الشيخ قرير العين" (١٩٤٤م)، وقد جمع في رواياته الاتجاه التاريخي والاجتماعي، إلا أنها لا تمثل أية قيمة فنية ولم تضيف جديداً إلى الرواية العربية اللبنانية.^١ ولطفي حيدر الذي نشر رواية "عمر أفندي" (١٩٣٧م)، إنه صوّر فيها كوارث اجتماعية للحرب العالمية الأولى. وأحمد مكّي الذي كتب رواية "النداء البعيد" (١٩٣٩م)، تتمحور هذه الرواية حول اختلاف الأديان حيث يمنع من الزواج متحابان.

وبالرغم من أن اللبنانيين كانوا قد كتبوا الرواية قبل المصريين إلا أن الرواية الناضجة فنيا لم تظهر في لبنان إلا في عام ١٩٣٩م حين ظهرت رواية "الريغيف" لتوفيق يوسف عواد الذي يعتبر قمة الروائيين اللبنانيين في هذه الفترة، هذه الرواية تدور في قرية "ساقية المسك" خلال الحرب العالمية الأولى وتصور حياة الطبقة المتخلفة في المجتمع اللبناني تحت الحكم العثماني وقيام الثورة العربية التي انتهت بطرد العثمانيين والتبشير بالقومية العربية، وتقدم صورة الظلم الاجتماعي الذي تتعرض له أسرة أبو سعيد وأمثالها من الفقراء الذين لا يستطيعون الحصول على الريغيف إلا بشق الأنفس، والذي مات بعضهم جوعاً بفعل ظروف الحرب واستبداد الحكام العثمانيين وجشع الإقطاعي "إبراهيم بك فاخر" الذي يتحكم في ممتلكاتهم

١ محاضرات عن القصة في لبنان، د- سهيل إدريس، ص ٤٧

(بالرهن أولاً ثم بالاستيلاء عليها حين يعجزون عن السداد) ويمتص دماءهم دون أن يمنحهم إلا أقل القليل وهو وأمثاله أعوان للسلطة العثمانية الحاكمة.^١

وروايته الثانية "طواحين بيروت" التي ظهرت بعد أكثر من ثلاثين عاماً في ١٩٧٢م والتي تدور أحداثها في عام ١٩٦٨م وتصور الفساد السياسي والصراع الطائفي وكذلك تتبأ بالحرب الأهلية اللبنانية التي ذهب ضحيتها المؤلف فيما بعد عام ١٩٨٨م. ومن الروائيين اللبنانيين الآخرين: الأستاذ سهيل إدريس، وليلى البعلبكي، وليلى عسيران، وإميلي نصرالله التي كتبت رواية "الإقلاع عكس الزمن" ورواية "طيور أيلول"، وتتميز رواياتها باهتمامها الكبير بقضية النزوح من القرية اللبنانية إلى أمريكا وكندا أو حتى إلى بيروت أو المدينة،^٢ وحنان الشيخ، التي نشرت رواية "حكاية زهرة" (١٩٨٠م)، ظهرت هذه الرواية حينما ظهرت الحركة النسائية بالمنصة العربية وتركز على قضية المرأة، وإلياس خوري، ورشيد الضعيف.

وأما البلدان العربية الأخرى التي خطت خطوات هامة في مجال الرواية، هي: سوريا حيث ظهرت جهود جديرة بالذكر، ومن أهمها: روايات معروف الأرنؤوط التاريخية كرواية "سيد قريش" (١٩٢٩م)، و"عمر بن الخطاب" (١٩٣٦م)، إلا أنها من الناحية الفنية أقرب إلي جهود الفترة الأولى. ومن الروائيين السوريين الآخرين: شكيب الجابري الذي كتب رواية "نهم" (١٩٣٧م) وهي أول

١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ١١٢

٢ نفس المصدر، ص ١١٥

رواية سورية فنية،^١ ورواية "قدر يلهو" (١٩٣٩م) و "قوس قزح" (١٩٤٦م) و"وداعا يا أفاميا" (١٩٦٠م)، وتصور رواياته جانبا من حياته قضاها في الدراسة ومغامراته النسائية وموقفه من الجمال والمرأة وأفكاره الوطنية والنزعة الرومانسية. ومطاع صفدي وحليم بركات وفاضل السباعي وحنّا مينا وغيرهم.

وفلسطين حيث ازدهرت الرواية العربية وحقت نجاحا كبيرا رغم المدة القصيرة التي عاشتها، ومن الروائيين الفلسطينيين: سحر خليفة، ويحيي يخلف، وتوفيق فياض، وليانة بدر، وغسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا، وإميل حبيبي. ويرى بعض المؤرخين لظهور الرواية الفلسطينية الناضجة بعام ١٩٤٣م حين صدرت رواية إسحاق موسى الحسين "مذكرات دجاجة" ولكن الإجماع يكاد ينعقد على أن رواية غسان كنفاني القصيرة "رجال في الشمس" هي أول رواية فلسطينية مكتملة من حيث الفن، وهي من أشهر وأروع رواياته مستوحاة من المأساة الفلسطينية،^٢ وأما الرواية الأولى فهي نوع من القصص على لسان الحيوان.^٣

نشر غسان كنفاني في حياته أربع روايات قصيرة وهي: "رجال في الشمس" (١٩٦٣م) و"ما تبقلكم" (١٩٦٦م)، و"أم سعد" (١٩٦٩م)، و"عائد إلى حيفا" (١٩٧٠م).

^١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، ص ١٢٥

^٢ A Short History of Modern Arabic Literature, M.M.Badawi, p190

^٣ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت ص ١٤٥

وجبرا إبراهيم جبرا الذي كان شاعرا وروائيا وناقدا ورسّاما و مترجما من طراز رفيع، فإنه نشر رواية "صراخ في ليل طويل" (١٩٥٥م)، و"صيادون في شارع ضيق" (١٩٦٠م) و"السفينة" (١٩٦٩م) و"البحث عن وليد مسعود" (١٩٧٨م). وتدور رواياته عادة حول متقفين عرب يكشفون عن إحاطة واسعة بالحضارة الغربية قديما وحديثا كما تبرز تقنيات الرواية الحديثة والتصميم المتقن والشاعرية المتدفقة في سائر أعماله.

وفي العراق حيث ظهرت الرواية الفنية على يد غائب طعمة فرمان في عام ١٩٦٦م حين كتب رواية "النخلة والجيران" بينما يرى نقاد آخرون أن الرواية الفنية بدأت في العراق مع ظهور رواية "الدكتور إبراهيم" (١٩٣٩م) التي كتبها ذو النون أيوب. ومن أشهر الرواية في العراق: "خمسة أصوات" لغائب طعمة فرمان، و"الرجع البعيد" لفؤاد التكرلي و"الوشم" لعبد الرحمن مجيد الربيعي.

وفي المملكة العربية السعودية حيث ولد عبد الرحمان منيف عام ١٩٣٣م وبدأ الكتابة في الأربعين من عمره وأصدر خمس عشرة رواية تقريبا منها: "عالم بلا خرائط" (١٩٨٢م) التي كتبها بالاشتراك مع الروائي الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا، وروايته الأولى هي: "الأشجار واغتيال مرزوق" (١٩٧٣م)، و"شرق المتوسط" (١٩٧٥م) و"النهايات" (١٩٧٧م) و"سباق المسافات الطويلة" (١٩٧٩م) و"حين تركنا الجسر" (١٩٧٩م)، و"مدن الملح" (المكونة من خمسة أجزاء وهي: "التيه"

و"الأخدود" و"تفاسيم الليل والنهار" و"المنبت" و"بادية الظلمات" (١٩٨٤-
١٩٨٩م).

وإنه كاتب ملتزم تتناول رواياته كلها تقريبا قضية الحرية؛ حرية المواطن العربي ضد القهر السياسي والسجن والتعذيب. وروايته "مدن الملح" تعتبر أطول الروايات العربية تقع في خمسة مجلدات وهي واحدة من الروايات المتميزة كما يقرر منيف نفسه: "أن كل ما كتبه من روايات قبل "مدن الملح" كان بمثابة تمارين تؤهله لكتابة هذه الرواية التي كان يحلم بكتابتها منذ وقت بعيد".^١

وكذلك ظهرت الرواية العربية في المغرب، ومن الروائيين المغاربة: عبد الكريم غلاب الذي نشر رواية "دفنا الماضي" (١٩٦٦م) و"المعلم العلي" (١٩٧١م) ومبارك ربيع الذي أصدر رواية "الريح الشتوية" في جزئين، (١٩٧٧-١٩٧٨م) على التوالي، و"الطيبون" (١٩٧٢م) وأحمد المديني الذي كتب رواية "وردة للوقت المغربي" (١٩٨٢م). ومحمد زفزاف الذي كتب رواية "أرصفة وجدران" (١٩٧٤م). وفي الجزائر: كتب عبد الحميد بن هدوقة روايته الأولى: "ريح الجنوب" (١٩٧٩م) وهي تعد أول رواية جزائرية ناضجة من حيث الفن.^٢ وبعد ذلك توالى الروايات الأخرى، فقد نشر الطاهر وطيار رواية "الزلال" (١٩٧٤م)، و"اللاز" (١٩٧٤م).

١ الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي، د- حمدي السكوت، ص ١٧٩

٢ نفس المصدر، ص ٢٢٢

وفي تونس: نشرت رواية "مولد النسيان" لمحمود المسعدي عام (١٩٧٤م)، ورواية
"عائشة" لبشير بن سلامة عام (١٩٨٢م)، و"التوت المر" (١٩٦٧م) لمحمد العروسي
المطوي، و"البحر ينشر ألواحه" (١٩٧٥م) لمحمد صالح الجابري، و"قي بيت العنكبوت"
(١٩٧٦م) لمحمد الهادي بن صالح، و"التحدي" (١٩٧٢م) لمحسن بن ضياف.
وفي ليبيا: نشر أحمد إبراهيم الفقيه روايته "حقول الرماد" (١٩٨٥م)،
وثلاثيته: "سأهبك مدينة أخرى" و"هذه تخوم مملكتي" و"تفق تضيئه امرأة واحدة"
(١٩٩١م) وكذلك كتب إبراهيم الكوني رواية "تزييف الحجر"، حيث صور فيها
الصحراء الليبية تصويراً موغلاً في الرمز.

الفصل الثاني

تطور الرواية العربية في السودان حتى عام ٢٠١٠م

تمهيد

وجد الأدب السوداني في شكل قصص شفوية وقصائد سردية وحتى قبل وقت طويل من روايات وقصص قصيرة وأصبحت تعرف باسم الأنواع الأدبية، ومعظمها كانت حتى وقت قريب، تنتقل من جيل إلى جيل شفويا، وتصف عدد كبير من القصص مآثر الرجال العظماء والحروب الشهيرة، أو تتصل بحياة أبطال من العصور القديمة العربية. بعضها تتمتع بموضوع ديني وتركز حول المحاسن وشجاعة معروفة، وكذلك الشخصيات الدينية المحلية والصوفية. أما تلك القصص التي هي عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم النبي وصهره، تعرف بسيرة الكرار أي حياة علي. معظم الحكايات الشفهية منمقة للغاية ومبالغ فيها، وتصف الشخصيات المركزية التي يتمتع بها الرجل من جرأة كبيرة وشجاعة.

هناك أيضا القصص التي تصور المجتمع السوداني في القرى والبلدات، وتسمى هذه القصص الأخيرة ذات المواضيع العلمانية بـ"أحاجي".^١ وهي عادة

١ أحاجي و/الحجا بمعنى العقل، كانت الجدات في زمن مضى يسلمن الأطفال بعيد المساء بحكايات ومسائل من الأتس يقال لها الحُجا. كان الغرض من هذه الحكايات شحذ الأذهان وإدخال السرور على نفوس الأطفال ريثما يغلب عليهم النعاس.

يقصها رجال كبار السن من أفراد المجتمع، وفي معظم الأوقات تكون في المناطق الريفية حيث وسائل التعليم محدودة وإيقاع الحياة اليومية هو أكثر استرخاءً، تكون لها دائما نهاية سعيدة ومليئة بالمشاهد الخيالية والخرافات التي تصف قوى سحرية من الجن والغيلان.^١

وأشهر حكايات الأحاجي هي قصة فاطمة السمحة، أجمل فتاة في القرية، فاطمة يعجبها العديد من الرجال ولكنهم جميعا لا يستحقون لها، ذات يوم يخطفها غول ويأخذها أسيرا، وعندما يصل خبر سجنها إلى الأمير الشاب الوسيم، فيقرر لإنقاذها من أيدي الغول، الأمير وفاطمة يقعان في الحب وفي نهاية المطاف يتزوجان، ولا تزال قصصهما ذائعة منتشرة في الوسط الريفي ولها شعبية واسعة .

وترتبط بعض الروايات بالقصيدة، وهذه تشمل المغامرات من همبتا الذين كانوا قطاع الطرق يجوبون صحارى السودان، على الرغم من أنهم كانوا لا يؤمنون بالقانون ولا بالقيم الإجتماعية ولا بالسلطة المدنية وعاشوا أوقاتهم عبر وسائل غير مشروعة، تم تخليدهم في القصص السودانية الشعبية مثل الرجل الشجاع الباسل ملون مع رمزهم الخاص من الأخلاق.

ويمكن مقارنةهم بالصعاليك أو الشعراء المنبوذين في الجزيرة العربية في العهد الجاهلي ما قبل الإسلام الذين أيضا كانوا لا يعترفون بالمجتمع وقيمه ويعيشون على النهب والسلب ويقضون أوقاتهم عابثين منتقلين من واد إلى واد ومن

١ الأحاجي السودانية لعبد الله الطيب، ص ٥

، والذين كتبوا عن أشعارهم ودرسوا أحوالهم يلقون اللون على مجتمعهم الذي طردهم وجعلهم منبوذين، وهناك نوع آخر من قصة القصيدة ينتمي إلى صنف المديح كتب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتحظى قصائد المديح بشعبية خاصة في شمال السودان.^١

وقع الانتقال من الأدب الشفوي المنقول من الصدور إلى الأدب المضبوط في الأوراق في بداية القرن العشرين بظهور الصحافة على الساحة السودانية، ومن هنا أخذت القصص الشعبية والأشعار الشفوية طريقها إلى الطباعة والظهور في بعض الصحف الأولى للبلاد.

كانت "جريدة السودان" من أقدم الصحف في البلاد السودانية حيث ظهرت لأول مرة عام ١٩١٣م، وكانت تنشر باللغتين العربية والإنجليزية مرتين في الشهر، وكانت آثارها محدودة للغاية على الأدب السوداني، لأن الكتاب كانوا ينشرون المواد التي تمت الموافقة عليها من قبل السلطة، وكانت المقالات أولا تكتب باللغة العربية ثم تترجم إلى اللغة الإنجليزية بحيث يتمكن البريطانيون من الاطلاع على ما كان يكتب فيها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السودان في مطلع القرن كان تحت الحكم الثنائي الأنجليزي- المصري الذي استمر من ١٨٩٩م حتى عام ١٩٥٣م عندما أصبحت البلاد مستقلة بالحكم الذاتي، وحصلت على الاستقلال الكامل في عام ١٩٥٦م. كانت "جريدة السودان" إلى حد ما جريدة رسمية، وكانت رسميا في لهجة وأفادت باستمرار الأخبار من وجهة نظر من هم في السلطة.

١ في مدح النبي، لأحمد ابراهيم عثمان

وكانت "الرائد" أول صحيفة سودانية كان لها تأثير كبير على الأدب القومي، والتي ظهرت في عام ١٩١٤م كورقة أسبوعية واجتماعية.^١ أنشئت "الرائد" من قبل تاجر يوناني أقام مطبعة في العاصمة السودانية الخرطوم، لطباعة صحيفة يونانية، فاقترب إليه ثلة من المثقفين السودانيين الذين شعروا بأن هناك حاجة شديدة لنشر الأدب باللغة العربية، إلى ذلك التاجر اليوناني وطلبوا منه ببدء جريدة عربية توافق هوى الشعب السوداني الذي كان يلهف إلى صدور جريدة عربية شعبية خالصة غير حكومية.

ساهم الأديب المصري يوسف وهبي والأكاديمي السوري فؤاد الخطيب الذان كانا يدرسان اللغة العربية وآدابها آنذاك في كلية غردون في الخرطوم مساهمة فعالة في رفع مستوى الرائد الأدبي والسياسي ونشرت لهم مقالات أدبية رفيعة تناولت جهات شتى، وتولى المثقفون السودانيون منصب رئاسة التحرير، ولكن الكاتب الذي لعب دورا هاما في تطوير الأدب السوداني هو عبد الرحيم قليلات الكاتب والشاعر المعروف، وفي دور رئاسته ازدهرت الصحيفة ازدهارا واسعا، رحب بمساهمات الشعراء والكتاب المعروفين وغير المعروفين أيضا حبا منه في تشجيعهم.، وكثيرا ما كانت قصائد قليلات تتلى خلال المناسبات الدينية، مثل احتفالات المولد النبوي، وطبع له في عام ١٩١١م مجموعة من قصائده في كتيب وسماه نسمات الربيع، وكان هذا هو العنوان الذي استخدمه في عام ١٩٢٣م عندما

١ ملامح من المجتمع السوداني، حسن نجيلة ص ٨

نشر مجموعة من الأشعار الثورية والوطنية، وتم قراءة مختارات منها أيضا بمناسبة المولد النبوي، وقادت قصائده الثورية الجمهور إلى سببت لهم قدرا كبيرا من القلق والإضطراب، من أجل تجنب أي محاولات تلهب مشاعر الأمة في البلاد وتحركه ضد الإستعمار الغاشم، ألقى القبض على قليلات في عام ١٩١٧م وتم ترحيله إلى مصر في أعقاب نشر مقال وصف فيه الفقر والبؤس للشعب السوداني.

بعد ترحيل قليلات بقيت الرائد تنشر باستمرار لبعض الوقت تحت رئاسة تحرير حسين شريف، وهو أول صحفي سوداني تدرّب تدريبا مهنيا، وأنشأ شريف صحيفة أسبوعية أخرى في عام ١٩١٩م بإسم "حضارة السودان".^١ وكانت الصحيفة منبرا لكثير من الكتاب الناشئين خلال عشرينات وثلاثينات القرن العشرين (١٩٢٠-١٩٣٠)، ولعبت دورا هاما في تطوير الأدب السوداني المعاصر، وفي عام ١٩٢٠م، أخذت الصحيفة تتجه إلى السياسة عندما تم نقل ملكيتها بالإشتراك إلى علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي ويوسف الهندي، قادة الختمية والأنصار والهندية على التوالي، والتي كانت الطوائف الدينية الرئيسية الثلاثة في السودان في ذلك الوقت، كما أعطت الصحف السودانية المثقفين فرصة لنشر كل من القطع الأدبية والمقالات السياسية التي تؤكد على الهوية العربية الإسلامية للبلاد، وتعرب عن عدم رضاهم عن الحكم الاستعماري البريطاني.

^١Development of contemporary literature in Sudan, Eiman Al-Nur, p. 151

أصبحت الاحتفالات بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم تركيزا ونقطة تجمع للحركة القومية التي كانت آنذاك في مراحلها المبكرة. وفي الصيف والشتاء لعام ١٩٢٤م، اندلغ الغضب المكبوت الذي كان قد تجمع تدريجيا بين قطاعات واسعة من المجتمع السوداني ضد البريطانيين فجأة في احتجاجات عنيفة، مستوحاة من انتفاضة ١٩١٩م ضد البريطانيين في مصر، انتشر الحماس الثوري في السودان حيث تم تشكيل جبهة سودانية مصرية موحدة ضد الحكم الاستعماري البريطاني.

كانت انتفاضة ١٩٢٤م بداية طريق طويل حرج في السودان، فقد زرعت بذور أفكار سياسية جديدة وقادتهم إلى فهم الواقع السيئ المحيد بهم من كل جانب، ولكن نضجت عقولهم فأصبحوا على دراية ووعي بالتطورات الاقتصادية والعلمية المبتكرة التي كانت تجري على قدم وساق في الأجزاء الدول الأكثر تقدما في العالم.

بدأ السودانيون يدركون أهمية العلم في حياتهم وكشرط أساسي للدول النامية للحصول على الإستقلال عن الحكم الاستعماري قبل عام ١٩٢٤م، معظم الطبقة السودانية أصبحت تدرك أهمية الأدب في تحريك مشاعر الشعب والمجتمع ويمكن التقدم من خلاله.^١

^١ الفكر السوداني أصوله وتطوره، لمحمد ابراهيم المكي، ص ٨٣

ولكن سرعان ما سحقت انتفاضة عام ١٩٢٤م وأصبحت البلاد غارقة في جو من الكآبة والإحباط، معلنة بداية فترة مظلمة في تاريخ الفكر والثقافة السودانية، ووضع الشباب بشكل عشوائي في السجون بينما نفي الآخرين إلى بلاد أخرى، وتقلص المثقفون السودانيون إلى حالة من اليأس الشديد.

كانت السلطات البريطانية تعتمد في السابق على الزعماء الدينيين والقبليين والشيخ في حكم البلاد في قمع الثورات سابقا، فطلبت منهم دعمهم مرة أخرى في قمع تمرد عام ١٩٢٤م وكانوا يعتقدون أن المثقفين السودانيين هم أساس الثورة وكانوا عازمين على تشكيل حكومة جديدة حرة في الخرطوم والتي ستبعد جميع الزعماء الدينيين والقبليين المقربين من قبل بريطانيا. انضم معظم الزعماء وشيوخ القبائل إلى القوات البريطانية لقمع الانتفاضة، طمعا في الحصول على مناصب تمكنهم من إدارة البلاد ولعب دور فعال حسب سابق.

خلال هذه الفترة المظلمة كان هناك غياب تام لأي نشاط علمي ملموس، وكان توجيه طاقات المثقفين على نحو أساسي إلى الأدب، وإن المثقفين الذين شاركوا في الانتفاضة شعروا بأنهم استنزفوا عاطفيا، ومن بينهم أولئك الذين لم يسجنوا أو لم يتم ترحيلهم، فبدؤا يركزون أنفسهم لتطوير أدب وطني بعد أن تركوا بلا أمل وخابوا في تحقيق آمالهم وتحقيق أهدافهم الخاصة.

ومن أبرز الأدباء الذين كانت لهم الريادة في إحياء الأدب السوداني الوطني وتحديثه على سبيل المثال: حمزة الملك طمبل وعرفات محمد عبد الله، الذين سعوا من خلال الأدب إلى تأسيس الاستقلال من الحكم الاستعماري ومن تحالفها مع مصر، في هذا الوقت بالذات شعر الكثير من السودانيين باليأس والكآبة تماما من إخوانهم المصريين الذين فاوضوا استقلالهم عن بريطانيا، دون التدخل نيابة عن السودانيين ودعمهم في سعيهم للحصول على الحكم الذاتي.^١

أراد المثقفون السودانيون في جهودهم الرامية إلى إقامة الأدب الوطني، في البداية النأي بأنفسهم عن الأدب الغربي وكذلك عن الأدب المصري، وكان واحدا من هؤلاء الأبطال الأكثر حماسا للأدب السوداني الوطني مصري باسم محمد النويحي بعيد عن تأثيرات الأدب المصري.^٢ وأدرك المثقفون السودانيون على نحو تدريجي أهمية الأدب الغربي، وخاصة أهمية الأدب الإنجليزي في تطور الأدب الوطني. ورأوا أيضا أن هناك الكثير الذي يمكنهم التعلم من أعمال الكتاب المصريين المعاصرين.

على الرغم من أن الفترة المظلمة بعد هزيمة ١٩٢٤م شهدت الانسحاب من الحياة العامة في العديد من المثقفين الشباب، فإنها بشرت أيضا بظهور مجموعة جديدة من المثقفين يختلف نمطه في التفكير، فقد جاءت مجموعة تعرف باسم "الجيل الرائد"، وقرر أعضاءها المضي قدما بحذر وحيطة واضعين في اعتبارهم

١ نفس المصدر ص ٨٥

٢ نفس المصدر ص ٨٥

أخطاء أسلافهم متعظين به، وكان هدفهم الأول هو إقامة نظام تعليمي جيد في طول البلاد وعرضها، وإنهم شنوا حملة واسعة لتأسيس مدارس جديدة ذات معايير عالية ونشر الصحف والمجلات، وتشكيل المجامع الأدبية والنوادي الثقافية والمؤسسات الأكاديمية.

وكان هناك مركزان رئيسيان لنشاطات أندية المتخرجين في مدينتي أم درمان وود مدني، تأسس الأول في الأصل في عام ١٩٠٨م ويرأسه مسؤول بريطاني، والثاني في عام ١٩٣٦م. وبدأت الأندية نشاطاتها كمجتمعات أدبية، ولكن جاءت لاحقا لتشمل قضايا أخرى ذات مصالح وطنية. اتخذت الأنشطة الأدبية والثقافية في مدينة أم درمان دورها بتشكيل دوائر للقراء، حيث تجتمع مجموعة صغيرة في بعض المنازل لقراءة ومناقشة الكتب والصحف والمجلات المستوردة من مصر وإنجلترا، وأصبحت مجموعات القراء مألوفة بين عامي ١٩٢٧م و ١٩٣٤م لدرجة أنه كان اعتبر عدد الكتب المقروءة من قبل فرد واحد مقياسا ودليلا على النشاط الفكري لذلك الفرد.^٣

أولئك الذين شاركوا في هذه التبادلات الثقافية تأثروا بشدة بالأدب المصري المعاصر. وقدمت كتابات أوائل الكتاب المصريين المعروفين في القرن العشرين مثل طه حسين، العقاد، والمازني، آفاقا جديدة يمكن أن ينظر المثقفون السودانيون

١ تاريخ السودان الحديث، لمحمد سعيد القدال، ص ٣٠٧

٢ الزعيم الأزهري وعصره، لبشير محمد سعيد، ص ٤٣

٣ مؤتمر الخرجين، لمحمد بشير، ص ١٢٤

من خلالها إلى العالم الخارجي بما فيه أوروبا. وكان من بين الشعراء السودانيين، عبد الرحمن شوقي ومحمد الأمين علي مدني، حسين المنصور، والتيجاني يوسف بشير، إنهم ظهروا على الساحة الأدبية وأعمالهم أصبحت شعبية موازدهرت المسرحية أيضا، وشكلت فرقة مسرحية تحت قيادة الصديق فريد.^١ وأصبحت المسرحيات المبنية على الحياة السودانية والمواضيع التاريخية، مثل خراب سوبا شعبية مع الجماهير، وكانت سوبا مملكة مسيحية في وسط السودان الذي دمرته سلطنة الفونج الإسلامية في بداية القرن السادس عشر. ووفقا للأسطورة كان هناك في سوبا امرأة شريرة مع بنت جميلة، وكانت المرأة العجوز تقوم بإغراء فرسان من مختلف القبائل للقتال، واعدة المنتصر بيد إبنيتها في الزواج. وكانت العديد من المسرحيات ساخرة، وبسبب المناخ السياسي وجدت عدد قليل منها طريقها إلى الطباعة.

إن الدائرة الأدبية التي تأسست في واد مدني على بعد ١٥٠ كيلومترا جنوب الخرطوم، كانت تسمى في الأصل "جمعية ود مدني"، ولكن جاءت لاحقا تعرف بإسم "الجمعية الأدبية"، وتم تدريب أعضائها في الخطابة والتحدث أمام الجمهور وتشجيعهم على المشاركة في المناقشات، أثبت عمل الجمعية مؤثرا بين المثقفين، مما أدى إلى تأسيس الكونغرس للخريجين. وكانت الكونغرس قد أنشئت أصلا كجمعية الخريجين من كلية غوردون ولكنها جاءت في وقت قريب لتشمل معظم

١ نفس المصدر ص ١٢٤

المتعلمين السودانيين بين أعضائها. وكانت الكونغرس مسؤولاً عن إقامة يوم التعليم الخاص والمهرجان الثقافي.

كان يوم التعليم حدثاً سنوياً يعقد في العديد من المدن والقرى على الصعيد الوطني لجمع الأموال، وساعدت عائدات الأحداث لتمويل صندوق يستخدم فقط لتحسين مستوى التعليم، وكان الحماس من الجمهور لهذه المناسبة هائلاً، وساعدت العائدات لإنشاء مدارس ثانوية عديدة سرعان ما تجاوز عددها تلك المدارس الثانوية التي تمولها الدولة. وكان يعقد المهرجان الثقافي كل عام في مدن مختلفة. وثبت أيضاً أن تكون هذه مناسبة شعبية إذ أنها خلقت مناخ استرخاء من الاحتفالات التي أشرفت حياة معظم الناس بما فيهم المتواجدين في المناطق الريفية النائية.

كان هناك إثنان من المنظمات الأدبية الهامة الأخرى، مجموعة هاشماب وأبو رؤوف. وتآلف السابق بشكل رئيسي من الخريجين الذين ينتمون إلى عائلة هاشماب وأصدقائهم الذين يعيشون في حي شهير في أم درمان.^١ وكان أعضاء أبو رؤوف جماعة نخوية الذين لم يعتبروا احتياجات بقية السكان، وقدموا أنشطة أدبية لحواشيهم فقط.

إنهم كانوا معادين للبريطانيين واتبعوا سياسة المقاومة السلبية.^٢ إنهم أحبوا الأدب وتجنبوا السياسة لأنهم اعتقدوا بأنها كانت دونهم. في البداية استلهموا من الأدب المصري الحديث، ولكن سرعان ما تحولوا إلى الأدب الإنجليزي، وخصوصاً

١ نفس المصدر ص ١٢٤

٢ نفس المصدر ص ١٢٥

إلى كتابات الجمعية الفابية التي دعته إليها المثل الاشتراكية.^١ وكان معظم أعضاء أبو رؤوف علمانيين، وجدوا صعوبة في التوصل إلى تفاهم مع انتشار الحماس الديني في البلاد. وكانوا يعارضون تماما لقادة الطوائف الدينية المختلفة، التي اعتبروها متخلفة وخاضعة أيضا للبريطانيين. ومع ذلك استمرت الطوائف الدينية في الازدهار في السودان. وأصبحت نفوذها على نطاق واسع لأن بعض المثقفين حاولوا كسب تأييد الزعماء الدينيين في نضالهم ضد الجماعات الفكرية المتنافسة الأخرى.^٢

وكان من بين المجموعات الثلاث، مجموعة هاشماب الأكثر سخبا ونفوذاً أسست منشورا أدبيا في عام ١٩٣٤م، سمي بـ"الفجر". بعد ذلك، جاءت مجموعة تعرف بإسم مدرسة الفجر. كان هدف الدورية تعزيز القضايا القومية. وإنها كانت أكثر فكرية على نطاق واسع، أضيق منها سياسية.^٣ وكانت سياسة الدورية خلال أول عامين إحياء الشعر العربي وتخليط الضوء على تاريخ السودان. كما شجعت الدورية الكتابة الإبداعية الخالية من التحيز الديني أو القومي. كان على الكتاب أن يقوموا بالتمييز بين سياسة الأمة وقيمها الثقافية .

وهكذا في حين أنهم عارضوا علنا للبريطانيين كمستعمرين، واصل المثقفون السودانيون استلهمهم من الأدب الإنجليزي. وفقا لكاتب سوداني، إن التراث الفكري

١ تاريخ السودان الحديث، لمحمد سعيد القدال، ص ٣٢٢-٢٣

٢ نفس المصدر ص ٣٢٥

٣ مؤتمر الخرجين، لمحمد بشير، ص ١٢٥

الإنساني هو تراث مشترك وعالم المثقفين فوق الممارسات غير الأخلاقية والقدرة التنافسية لعالم السياسة والاقتصاد.^١ بدأ كثير من السودانيين المتعلمين يقرؤون الأدب الإنجليزي في الأصل أو في الترجمة.

إنهم أيضا تعرفوا على الأعمال الأدبية الفرنسية والروسية، باللغة الإنكليزية أو بالترجمة العربية. وإلى جانب الأدب الغربي، اهتم الكتاب السودانيون اهتماما خاصا بالأدب العربي الحديث، وبخاصة أعمال المؤلفين اللبنانيين والسوريين والمصريين.

وأصبح الأدب للسودانيين وسيلة للتعبير عن المشاعر القومية والوطنية. وكان الشعر خلال النصف الأول من القرن الماضي نوعا سائدا. وخصصت مجلة الفجر قسما خاصا للشعر، ونشر عدد من الشعراء السودانيين أول مؤلفاتهم في تلك المجلة. ويعكس الشعر السوداني عموما الخلفية العربية والإفريقية المختلطة في البلاد. والنوع الآخر المهم للتراث الثقافي العربي/ الإفريقي هو أغنية.

بينما اتبع الشعر نمط القصيدة العربية التقليدية في الصور الخاصة به والأسلوب، وكان مكتوبا باللغة العربية الفصحى، وكانت لغة الأغاني خليطة من اللغة العربية الفصحى والعامية السودانية. تم تغنيها مرافقة مزيج من الإيقاعات الإفريقية والعربية، والأغاني السودانية، جنبا إلى جنب مع الشعر، أصبح التعبير عن أمة بحثا عن هويتها وتراثها الثقافي.

١ نفس المصدر، ص ١٢٦

بصرف النظر عن الشعر والأغاني قدمت المجالات وخصوصا مجلة "الفجر" و"النهضة السودانية" مجالا لنوع أدبي آخر: القصة القصيرة . وكانت أولى قصص قصيرة قصص الحب التي تحتوي دائما على عنصر ملحوظ من الميلودراما والمبالغة. ويبدو أن القصص القصيرة قد تأثرت بالتقاليد العربية السودانية الشفهية والأدب الغربي أو الأدب الفرنسي على وجه التحديد. وكان الكاتب المصري المنفلوطي قد ترجم عددا من الروايات الرومانسية الفرنسية والقصص القصيرة إلى اللغة العربية. خلال النصف الأول من القرن الماضي، كانت صيغة عربية لأدب المنفلوطي الروائي الفرنسي شهيرة بين الجمهور من خلال القراءة العامة عبر العالم العربي، وتوفر مناظر رومانسية لأولئك الذين رأوا حياتهم بدون أي فعالية ومحبطة. على الرغم من إعجاب القصص القصيرة الرومانسية واسعة النطاق، كثير من المثقفين، من بينهم عرفات محمد عبد الله، رئيس تحرير جريدة الفجر، انتقدوا محتواها الرومانسية وشجعوا الكتاب على معالجة القضايا الاجتماعية الأكثر إلحاحا. إنه قال إن الكتابة عن الحب والعشاق غريبة على طريقة الحياة السودانية حيث قلما يختلط الرجال والنساء بكل حرية، وأن قصص الحب تعطي انطباعا خاطئا عن المجتمع السوداني.

في عام ١٩٣٤م، أعلنت "الفجر" في عددها في ديسمبر لمسابقة عن القصة القصيرة. كانت القصص التي سيتم تحديدها في السودان، وتصوير الشخصيات السودانية وتحديدا مع الموضوعات السودانية. ويمكن اعتبار الروايات

التي تدور في بلد آخر إلا إذا اطمأن القضاة أن القضايا التي نوقشت فيها كانت ذات الصلة بالسودان.

أعرب محمد أحمد محبوب عن أفكار مماثلة في كتابه نحو الغد (١٩٧٠م). إنه اشترط أن الموضوعات المحلية والوطنية يجب أن تتشكل أساس وجوه الأدب السوداني، مع إيلاء اهتمام خاص لمشاكل الناس وآمالهم وتطلعاتهم. واقترح أيضا أن الكتاب يجب أن يستخدموا اللغة العربية الفصحى، ولكن يمكن لهم أن يشملوا أيضا عناصر من العربية العامية السودانية، عند الضرورة، لإعطاء أعمالهم بصمة صادقة. يعتبر محبوب وعبد الله، وبعض من معاصريهم بأنهم ينتمون إلى جيل من الرواد في تطوير الأدب السوداني. إنهم كانوا أول من قاموا بتمهيد الطريق للأجيال القادمة من الكتاب الذين تأثروا بالفكر الغربي، والذي قدموه إلى الكتابة السودانية. هذا هو بالضبط هذان عنصران الغربي والسوداني، الذين يميزان الرواية في السودان.

تطور الرواية العربية في السودان

فيما يتعلق بتطور الرواية العربية السودانية فإنها جاءت منذ فجر النهضة الوطنية حتى ظهرت رواية "تاجوج" لعثمان هاشم في عام ١٩٤٨م، ورواية "إنهم بشر" ١٩٦٠م لخليل عبد الله الحاج الذي كتبها في عام ١٩٥٤م ولكنه لم يستطع نشرها إلا في عام ١٩٦٠م في القاهرة، وتتميز هذه الرواية بتيار الواقعية الاشتراكية والواقعية الاجتماعية، ولكن يوجد هناك بعض الخلاف بين الكتاب السودانيين على أي عمل يؤهل كأول رواية سودانية. ويعتقد بعض النقاد أن قصة الحب المأساوية

لعثمان محمد هاشم "تأجوج" التي نشرت في عام ١٩٤٨م، يمكن أن تسمى رواية. ويستند هذا العمل على قصة تقليدية منقولة شفها عن عشاقين سيئ الطالع من قبائل مختلفة، الشاعر المحارب والبطلة مسمى تأجوج. إن المؤلف وذلك باستخدام القصة الأصلية كإطار العمل، أدخل في عمله الكثير من التفاصيل التي تصور بعض التقاليد والعادات السودانية. أصبحت تأجوج الأولى في سلسلة طويلة من الأعمال الخيالية المتعاملة مع الرومانسية والبطولة. على الرغم من نواقص كثيرة فيها، بما في ذلك وصف ساذج إلى حد ما، وغالبا ما تصنف على أنها رواية. بينما يرى البعض أن روية "إنهم بشر" لخليل عبد الله الحاج هي الرواية السادسة في تاريخ الروايات السودانية باعتبار تاريخ صدورها وهو العام ١٩٦٠م. كتبت هذه الرواية في عام ١٩٥٤م ولكن لم تجد طريقها إلى النشر إلا في عام ١٩٦٠م، فأصبحت هذه الرواية ثاني الروايات السودانية من حيث الريادة والبدائية. وهي رواية مكتملة نجح مؤلفها في كتابة رواية تحمل المقاييس والمعايير الفنية للعمل الروائي على حد تعبير الناقد محمد المهدي بشرى.^١ ونشرت رواية "قرية الروح" للدكتور إبراهيم الحردلو، ، وصدرت رواية "الاختيار" للسر محمد طه، ورواية "درر" عام ١٩٣٦م لسميرة مصطفى، و"عدالة السماء" و"الابتساماة الأخيرة" لجعفر نصر. ونشرت رواية "بداية الربيع" عام ١٩٥٨م، و"النَّبْع المُر" عام ١٩٦٦م، و"القفز فوق حائط قصير" عام ١٩٧٦م لأبي بكر خالد، كلها تصور

^١ مسار الرواية السودانية، عثمان شنقر

الصراعات السياسية السودانية والصراع الطبقي. كما أنها تركز على الماركسية والشيوعية مقابل جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من المنظمات الأصولية الإسلامية. وتنتقد روايات خالد علنا أولئك الذين هم غير ناشطين سياسيا. ويمثل التزامه السياسي الخاص موقف العديد من المفكرين السودانيين خلال فترة حرجة في تاريخ البلاد.^١

و"الفرغ العريض" لملكة الدار محمد، والتي نشرت في عام ١٩٧٠م بعد عام واحد من وفاة الكاتبة. تسببت الرواية إلى إثارة ضجة كثيرة، ويرجع ذلك أساسا إلى حقيقة أنها كتبت من قبل امرأة وتصور، لأول مرة، حياة المرأة العاملة والصعوبات التي تواجهها في المجتمع السوداني. على الرغم من أهميتها في كونها أول عمل خيالي يعطي صورة شخصية للمرأة السودانية الحديثة، والرواية يشوهها الاتجاه الرومانسي الطاغي والأوصاف الرعوية من الريف السوداني.

واستمرت البطولة الرومانسية لتشكل عنصرا رئيسيا من أوائل الأعمال الخيالية السودانية، حتى عندما كانت الواقعية الاجتماعية قد أصبحت على نطاق واسع في الآداب العربية الأخرى، وخاصة الرواية والقصة القصيرة في مصر. على الرغم من حقيقة أن الكتاب السودانيين قرؤوا الأدب الغربي في الترجمة بشوق، ومعظم الروايات المصرية المتعلقة بالواقعية الاجتماعية التي تم نشرها في ذلك الوقت، وأنهم استمروا في إنتاج الروايات الرومانسية عاطفيا. عندما كتب بدوي عبد القادر خليل روايته الأولى، "الهائم على الأرض" أو "رسائل الحرمان"، والتي نشرت

١ بانوراما الرواية العربية الحديثة، سيد حامد النساج، ص ٢٥١

في القاهرة في عام ١٩٥٤م، إنه استخدم أسلوباً رومانسياً للغاية يخلو من الواقعية.^١ وكان الاتجاه الرومانسي في الروايات السودانية سائداً طوال الخمسينات والستينات من القرن العشرين. كما ظهرت رواية "حتى تعود" لشاكر مصطفى عام ١٩٥٩م، و"سر الدموع" لمحمد عثمان صبار عام ١٩٦٩م، و"حياة الدموع" للهندي عوض الكريم عام ١٩٦٣م. كان الاتجاه الرومانسي يتغلب في هذه الروايات كلها. وأقحمت القضايا السياسية في الرواية في الستينات من القرن العشرين، يعطي الكاتب عبد الفتاح سوردابي في رواية "مأساة القبور" وصفاً متحركاً من الصراع الطبقي في قرى غرب السودان، وتركز الرواية على مجتمع القرية، واصفةً معاناة حياة العمال الزراعيين اليومية القاسية، ثم ظهرت رواية "من أجل ليلي" عام ١٩٦٠م للسر حسن فضل، وتصور هذه الرواية نضال العمال السودانيين والمعاناة التي يواجهونها، وهي تصور أيضاً ظهور طبقة وسطى السودانية التي كان مقدرها أن تلعب دوراً هاماً في النضال ضد السلطة شبه الإقطاعية من قادة الدينيين والقبليين. ظهرت رواية أخرى "لقاء عند الغروب" لأمين محمد زين عام ١٩٦٣م، تصور هذه الرواية أنشطة السياسية الطلابية خلال الأربعينات، وتحدث عن صعود الأحزاب السياسية قبل الإستقلال وأثناء الفترة ما بعد الإستقلال، وتم التركيز في هذه الرواية على الدور النشط للطلاب في الحياة السياسية في

^١Development of contemporary literature in Sudan, Eiman Al-Nur, p. 155

السودان، والدور المركزي الذي لعبه الطلاب في الإطاحة بالنظام العسكري في
ثورة أكتوبر ١٩٦٤م.^١

على الرغم من أن الأدب السوداني المعاصر بما فيه من شعر وأغنية
شعبية وقصص قصيرة وأنواع الرواية المختلفة نما وازدهر في السودان بينما ظل
الأدب السوداني غير معروف خارج البلاد، يرجع هذا إلى تفوق الآداب العربية
المصرية وغيرها وتأخر السودانيين.

وهناك سبب آخر أن معظم الكتاب السودانيين خصوصاً الروائيين على ما
يبدو أنهم تخلوا عن الكتابة بعد محاولتهم الأولى، ولم ينشروا أي شيء بعد ذلك من
العمل الأول، ظهر الأدب السوداني خاصة الرواية إلى حيز الوجود مرة ثانية
بفضل بعض الكتاب أمثال أبي بكر خالد وغيره، ليصل إلى قمة التميز مع أعمال
الطيب صالح، وأنه الكاتب السوداني الأول الذي وضع الأدب السوداني بقوة على
الخريطة الأدبية الدولية.

بدأ الكاتب الروائي أبو بكر خالد (١٩٣٥-١٩٧٦) حياته الأدبية كصحفي
ومذيع، أمضى قدراً كبيراً من الوقت في القاهرة حيث كان يعمل في القسم السوداني
من راديو القاهرة، كما أنه كتب بعض المقالات والقصص القصيرة ونشرها في
مجلات وصحف مصرية مختلفة، خاصة صحيفة المساء.

١ بانوراما الرواية العربية الحديثة، لسيد حامد النساج، ص ٢٥٠

أدخل أبو بكر خالد القضايا الاجتماعية في رواياته: البداية الربيع (١٩٥٨م)، والنبأ المر (١٩٦٦م)، والقفز فوق الحائط القصير (١٩٧٦م)، التي نشرت في القاهرة، خاصة المشاكل التي تواجه النساء والشباب في مجتمع محافظ، وعلى الرغم من تركيزه على القضايا الاجتماعية الواقعية، شخصية خالد في روايته الأولى، لا تبدو مقتنعة مع مشاعر عميقة بما فيها ردود الفعل على الأحداث من حولهم، يفقد فيها التحليل النفسي العميق، ولكن يوجد هذا التحليل النفسي أكثر وضوحاً في روايته القفز فوق الحائط القصير التي مثلت نقطة تحول في مهنته الأدبية وجعلته معروفاً لدى الجمهور العربي خارج السودان. قرأ خالد مثل العديد من الكتاب السودانيين الآخرين، وأعجب بروايات نجيب محفوظ. تأثر الكاتب المصري واضح في معظم أعمال خالد الروائية. إنه في الأصل سما أول روايته بـ"أم درمان الجديدة" مثل "القاهرة الجديدة" لنجيب محفوظ، قبل تغييرها إلى "بداية الربيع" التي تعرف الآن بذلك العنوان.

ويمكن أيضاً أن نلاحظ الانحراف إلى تقليد بعض الكتاب المصريين في أعمال الكتاب السودانيين الآخرين، بما في ذلك ملكة الدار محمد، وذلك لأن الثقافة المصرية كانت أول منبع يستقي منه الكتاب السودانيون، محاولين تقليد الأساليب والتقنيات المصرية، كانت خطوة طبيعية بالنسبة لهم قبل أن يتمكنوا من تطوير أسلوبهم الخاص، حاول أمين الدرديري في كتابه "الرواية السودانية الحديثة" إلى وضع الفرق بين اشتراكية نجيب محفوظ وخالد، قائلاً إن محفوظ

يعطي شخصياته حرية التصرف والعمل كما أنهم كانوا يفعلون في واقع الحياة، في حين شخصيات خالد هي ثابتة ومتوترة بسبب رؤيته الحياة من خلال توجهه السياسي والإيديولوجي.^١

يميل المؤلفون السودانيون إلى كتابة رواياتهم باللغة العربية الأدبية أو الكلاسيكية، وفي بعض الأحيان يدخلون إلى لغتهم العناصر المعجمية أو تعبيرات من الخلفية السودانية الخاصة بهم، وأن اللغة العربية العامية السودانية، من ناحية أخرى، هي وسيلة معتادة للأدب المنتقل شفهيًا، سواء كان ذلك نثراً أو شعراً. وكان إبراهيم إسحاق إبراهيم، معاصراً لخالد، الذي قرر إدخال العربية العامية في رواياته "حدث في القرية" (١٩٦٨م) و"عمل الليل والبلدة" (١٩٧١م). رأى إبراهيم أن العامية فقط يمكن أن تعطي الأدب السوداني هويته المميز.^٢ وكان هو نفسه لم يكن متحمساً فقط عن استخدامها في الأعمال المنشورة، ولكنه كان ينتقد هؤلاء الكتاب، مثل ملكة الدار محمد، الذين استخدموا اللغة العربية الفصحى لاستحضار الأجواء السودانية وطريقة الحياة. وإن اللغة العامية التي استخدمها إبراهيم هي مجموعة متنوعة إقليمية يتكلم بها الناس في غرب السودان والتي يصعب فهمها على أجزاء أخرى من العالم العربي، وهذا العامل جنباً إلى جنب مع إصرار المؤلف على إدخال قضايا محدودة في رواياته، كان يعني أن رواياته ليست معروفة خارج السودان.

^١ الرواية السودانية الحديثة، أمين بابكر الدريبري، ص ٢٢

^٢Research in African Literature, v.28 p. 158

وبسبب التاريخ الاستعماري الحديث للسودان، كثير من المثقفين السودانيين كانوا على دراية جيدة باللغة الإنجليزية. وقد تم تعزيز معرفة اللغة الإنجليزية لدى بعض المثقفين لسبب مزيد من الفترات التي قضوها في بريطانيا، إما كطلاب أو المهنيين المقيمين هناك. نشر السر حسن فضل روايته أيامهم الأحدى (١٩٦٩م) باللغة الإنجليزية. هذه الرواية تصف الأحداث الرئيسية في يوم واحد خلال ثورة أكتوبر ١٩٦٤م التي أطاحت بنظام جنرال إبراهيم عبود العسكري. ويقدر ما يتعلق بجدارة أدبية لهذه الرواية، اتفق النقاد على أنها تفتقر إلى العمق وتشبه مذكرات قصيرة أكثر من أي عمل للكتابة الإبداعية.^١

ثم برز على ساحة الرواية الروائي الكبير الطيب صالح برواياته منذ مطلع الستينات، وتعد هذه الفترة من الستينات من القرن العشرين قفزة نوعية في الرواية السودانية حيث صدرت رواية "من أجل ليلي" للسر حسن فضل عام ١٩٦٠م، و"لقاء عند الغروب" لأمين محمد زين عام ١٩٦٣م، وتتناول هذه الرواية الموضوعات الاجتماعية الشائكة، مع التركيز على العلاقات المتوترة بين الرجل والمرأة، بأسلوب واقعي رومانسي ولغة سهلة وسرد ممتع،^٢ وظهرت رواية "عرس الزين" عام ١٩٦٣م و"موسم الهجرة إلى الشمال" عام ١٩٦٦م للطيب صالح، وهي تركز جميع روايات الطيب صالح على الصراع بين القديم والحديث وبين المدينة والقرية، والصراع بين الحضارة الشرقية والغربية، و"سخرية الأقدار" لمحمد مختار

^١ نفس المصدر ص ١٥٨

^٢ أمين محمد زين بذاكرة الرواية في السودان، عبد العزيز بركة ساكن

محمد عام ١٩٦٧م، و"صراع" لعبد الفتاح خَضر عام ١٩٦٨م، و"دغدغة الأمل" لحسن أمين عام ١٩٦٨م، و"حدث في القرية" عام ١٩٦٩م لإبراهيم إسحاق.

ويمكن القول إن التيار الرومانسي ظل خلال هذه الفترة سائداً عند معظم هؤلاء الكتاب والروائيين السودانيين. وكذلك برز عدد لا بأس به من الروائيين السودانيين الذين واصلوا أعمالهم الروائية في السبعينات من القرن العشرين، مثلاً صدرت رواية "أعمال الليل والبلدة" عام ١٩٧١م، ورواية "مهرجان المدرسة القديمة" عام ١٩٧٦م، ورواية "أخبار البنت ميكايا" عام ١٩٨٠م ورواية "وبال في كليمندو" عام ١٩٩٩م لإبراهيم إسحاق، و"ضوء البيت" عام ١٩٧١م و"مريود" عام ١٩٧٨م للطيب صالح، و"صالح الجبل" عام ١٩٧٦م، و"الحوش الأبيض" عام ٢٠٠٧م لمختار عجوبة، و"جزيرة العوض" (١٩٧٩م) لعمر الحميدي، والتي وصفها جمال محمد أحمد بأنها رواية السبعينات في العربية، و"القفر فوق حائط قصير" عام ١٩٧٦م لأبي بكر خالد، وظلت الواقعية بتياراتها العديدة سائدة في هذه الحقبة من الزمن.

وفي الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن العشرين، قام بعض الروائيين السودانيين بمحاولات جديدة لكتابة الأعمال الروائية، نشر الدكتور فرانسيس دينق، وهو دبلوماسي سوداني سابق كان يعيش في الولايات المتحدة آنذاك، روايتين سياسيتين باللغة الإنجليزية: الأولى هي "بذور الخلاص" عام ١٩٨٦م والثانية هي "صرخة البومة" عام ١٩٩١م. على الرغم من أن الرواية الثانية ترجمت إلى اللغة العربية، ويبدو أن لكل منهما لم يكن تأثير قوي سواء في السودان أو في بقية العالم العربي.

ولكن ترتفع درجتها كونها مساهمة كبيرة من قبل كاتب ولد في الشمال الناطق باللغة العربية، يكتب من منظور جنوب السودان، لأنه ينتمي ثقافيا وعرقيا للأقلية غير العربية في الجنوب. وهذه خطوة كبيرة في الأدب السوداني، لأن الأعمال السابقة بالموضوع الجنوبي وغير العربي في الحقيقة لم تكن موجودة.

وظهرت رواية "أحزان الشجر والغابة" عام ١٩٨١م لمكي محمد علي، تتحدث هذه الرواية عن جيلين من السودانيين: جيل عاصر الاستعمار البريطاني شمالا وجنوبا واستهدف شطر منه لتأثير المبشرين الذين عملوا في الجنوب بوسائل ناعمة ومحبة بل مرغوبة تجعل التحول عن الولاء للوطن ممكنا في ظروف انعدام التنوير الثقافي والسياسي والديني معا، وجيل هو الذي ورث الاستقلال، فتحول عند البعض إلى اقتتال على المغام، أو اقتتال للانفصال،^١ وظهرت رواية "الخرطوم وداعاً" لبابكر علي ديومة عام ١٩٨٥م، و"مسرة" لبشرى هباني عام ١٩٨٦م، و"التراب والرحيل" لإبراهيم بشير عام ١٩٨٩م.

تواصلت مسيرة الرواية العربية السودانية في التسعينات من القرن العشرين وما بعدها. فظهرت رواية "الفرقة الموسيقية" عام ١٩٩١م لأحمد الملك، تنتقد هذه الرواية الحكم العسكري في السودان بعد سقوط النظام الديمقراطي عام ١٩٨٩م،^٢ وصدرت روايته الثانية "عصافير آخر أيام الخريف" عام ١٩٩٦م. ونشرت رواية "مدن بلا نخيل" عام ١٩٩٢م، تحكي هذه الرواية قصة الإنسان الطموح الذي يعيش على

^١ الريف في الرواية العربية، د. محمد حسن عبد الله، ص ٢٦٥

^٢ المشهد الروائي في السودان، صحيفة المدينة، العدد ٢٢٤٩٩٩

هامش الحياة ويموت على هامش الحياة، ورواية "بيت النخيل" عام ٢٠٠٦م لطارق الطيب، وظهرت رواية "أهل البلاد الشاهقة" لمحمد الحسن البكري عام ١٩٩٧م. وصدرت رواية "سماء بلون الياقوت" عام ١٩٩٦م ورواية "كرمكول" عام ١٩٩٧م، و"نار الزغاريد" عام ١٩٩٨م، ورواية "مهر الصياح" عام ٢٠٠٢م لأمير تاج السر، تتحدث هذه الرواية عن الثقافات المتنوعة التي استوطنت أرض السودان وأصبحت جزءاً أصيلاً من تاريخها وحضارتها، فهي رواية ذات طابع تاريخي،^١ وكذلك نشرت روايته الشهيرة "صائد اليرقات" عام ٢٠١٠م، تركز هذه الرواية على نقد لاذع لواقع الحال الذي آل إليه الفن الروائي إلى درجة تشويبه من قبل فئة من الروائيين الذين يمتنون الكتابة ويجعلونها أداة للكسب والمعاش.^٢

وظهرت رواية "رماد الماء" عام ٢٠٠٠م لعبد العزيز بركة ساكن، وهي رثاء مرير على الوحدة الوطنية التي كانت قائمة في السودان، ونبوءة عن الانفصال الذي حدث مؤخراً تتبأ به الكاتب مبكراً قبل وقوعه بسنين،^٣ وكما ظهرت روايته الثانية "الطواحين" عام ٢٠٠١م و"سمر الفتنة" عام ٢٠٠٢م و"الطريق إلى المدن المستحيلة" عام ٢٠٠٠م، و"أحلام في بلاد الشمس" عام ٢٠٠١م، و"الضفة الأخرى" عام ٢٠٠٢م لأبكر آدم إسماعيل، و"الغنيمة والإياب"، و"مندكورو - برق

^١ الينابيع السحرية ومسرات الخيال - لمحات من روايات أمير تاج السر، ص ٢٠

^٢ صحيفة الاتحاد الرسمية للكاتب

^٣ أساليب السرد في الرواية العربية، د- صلاح فضل، ص ١٨٥

وهلال" عام ٢٠٠١م لمروان حامد، و"الجبذانة" لعمر عبّاس، و"مسار الأسراب"
لإبراهيم سليم، و"الخريف يأتي مع صفاء" عام ٢٠٠٣م لأحمد محمد الملك.
وظهرت رواية "ذاكرة شرير" عام ٢٠٠٤م لمنصور الصويم، وصدرت رواية
"المترجمة" عام ١٩٩٩م و"أضواء ملونة" عام ٢٠٠١م و"المئذنة" عام ٢٠٠٥م
وغيرها لليلي أبو العلاء، إنها كتبت رواياتها باللغة الإنجليزية إلا إنها ترجمت إلى
العديد من اللغات بما فيها اللغة العربية. وظهرت رواية "أغنية النار" عام ١٩٩٨م
ورواية "صهيل النهر" عام ٢٠٠١م لبثينة خضر مكي، وكذلك صدرت رواية "كش
ملك" عام ٢٠٠٠م لزينب بليل.

وظهرت رواية "الأنهار العكرة" عام ٢٠٠٣م لعماد البليك، تحكي هذه الرواية
مسألة الاغتراب، والإحباط والانهزام الذي يعاني منه المغترب،^١ وظهرت روايته
الثانية "دماء في الخرطوم" عام ٢٠٠٨م. وصدرت رواية " الكونج" عام ٢٠١٠م
لحمور زيادة، تصور هذه الرواية قصة قرية مملوءة بالأساطير.

يمكن القول إن مسيرة الرواية العربية في السودان تشابه مسيرة الرواية
العربية في البلدان العربية الأخرى ولكنها بدأت متأخرة ولم يكن مسارها تصاعديا
مستمرًا، إلا أن الألفية الجديدة شهدت جهودا جبارة للنهوض بالرواية العربية
السودانية حتى قيل إن "ما نشر من روايات خلال الألفية الجديدة، يفوق ما تم نشره
خلال القرن العشرين كله."^٢ فمن خلال هذا العرض الموجز لتطور الرواية العربية

^١ الرواية السودانية كوثيقة اجتماعية، مبارك الصديق

^٢ مسار الرواية السودانية، عثمان شنقر

السودانية يتجلى لنا أن الرواية السودانية واكبت جنباً إلى جنب مع مثيلاتها في البلدان العربية الأخرى.

وأيضاً يمكن القول إن أول اتصال للرواية السودانية مع العالم الخارجي قد بدأ مع أعمال الطيب صالح (٢٠٠٩م - ١٩٢٩م). ولم يكن كاتب سوداني قبله أو بعده له تأثير مماثل أو أنه اكتسب الكثير من الشهرة والإعجاب، داخل وخارج السودان على حد سواء. الطيب صالح الذي عاش لسنوات عديدة في بريطانيا، حيث كان يعمل في قسم اللغة العربية لهيئة الإذاعة البريطانية، نشر أول عمل له، وهو مجموعة قصص قصيرة بعنوان "دومة ود حامد" في بيروت عام ١٩٦٦م. وسبق أن نشرت القصص في سلسلة في المجلات المختلفة. في نفس العام أنه نشر أيضاً روايته الأولى "عرس الزين". هذه الأعمال جلبت له بعض الاعتراف المتواضع. ولكنه حقق شهرة واسعة على مستوى العالم مع روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" والتي ظهرت في عام ١٩٦٨م. وقد ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الإنجليزية بعد عامين. نشر الطيب صالح روايتين أخريين، ضوء البيت (١٩٧١م) ومريود (١٩٧٨م). وقد تم طبع هذه في مجلد واحد بعنوان بندر شاه. على الرغم من أنه لم يكتب أي عمل كبير منذ ١٩٧٠م، إنه بقي إلى حد بعيد الكاتب الأبرز في السودان.

الفصل الثالث

المواضيع والقضايا التي تعالجها الروايات السودانية

إذا أردنا أن نقف على الموضوعات والقضايا التي عالجتها الروايات السودانية منذ بدايتها، ووجب علينا أن نضع في الاعتبار تلك الرواية في سياقها التاريخي لأن هناك يوجد فرق شاسع بين كتابة الرواية وصدورها، فعلى سبيل المثال كتبت ملكة الدار محمد عبد الله روايتها الشهيرة "الفراغ العريض" في الأربعينات من القرن العشرين إلا أنها وجدت طريقها إلى الطباعة في السبعينات من القرن المنصرم وكذلك رواية "إنهم بشر" كتبها خليل عبد الله الحاج في عام ١٩٥٤م إلا أنها نشرت في عام ١٩٦٠م.

وموضوع هذه الرواية هو الطبقة الكادحة أو بعبارة أخرى الطبقة البروليتارية الرثة، تصور الرواية حياة هذه الطبقة الفقيرة وعلاقاتهم فيما بينهم ومع الآخرين في أم درمان. وكذلك تصور شعورهم المتسم بالحق والكراهية تجاه الفئة الاجتماعية المتخلفة من خلال شخصية عبد المتعال كما تفيد الرواية: "فموقف التاجر الغني عبد المتعال - المتعالي الأكبر الذي ينظر لهذه المجموعة التي تجاوره السكن -

وبضمهم حي واحد، وزقاق واحد على أنهم حيوانات مؤذية لا تستحق العيش ولا الحياة.^١

حاول الكتاب والروثيون السودانيون خاصة بعيد فترة الاستقلال إلى معالجة القضايا الاجتماعية في رواياتهم المختلفة، مثلا قضية الزواج وإجبار الفتاة على الزواج، والتعليم، وحرية العمل، وحتى حرية الحب. كما أنهم عالجوا قضية المغالاة في المهور بالإضافة إلى قضية الفقر والجهل والمرض والسياسة والحرية ومواضيع وقضايا أخرى. مثلا تناولت ملكة الدار محمد في روايتها "الفراغ العريض" الأوضاع الاجتماعية للمرأة والقيود التي تكبلها من التقدم والعقبات التي تقف أمامها والحوجز التي كانت تواجهها المرأة السودانية. وتشير هذه الرواية إلى الهيمنة الذكورية في البيئة السودانية، فالأب غائب عن مسؤولياته المباشرة نحو الأسرة، ولكن هذا الغياب غير معقول ولا يلقي أي لوم عليه في إطار العادات والتقاليد السودانية، وتنتقل رعاية البنت لغياب أبيها إلى الجد والأعمام ثم ابن العم، ورغم استغناء البطلة المادي فإن والدتها تجزم دائما بضرورتها إلى من يحميها، فحين ما لجأت إلى والدتها لتقتصص لها من ابن عمها سيد الذي قام بضربها ضربا مبرحا مع أخته حين اكتشف أمر علاقة أخته سارة مع صديقه صلاح، كان رد الأم عليها: "إنّ الوريقات المعطرة والهدايا البراقة التي ينصبها بعض الشبان شراكا للفتيات الرعنات الطائشات هي التي تقودهن الى نهاية قاسية وعرة، وأنت ليس لك ما

^١ رواية إنهم بشر، خليل عبد الله الحاج، ص ٤

لإبنتي عمّك من حماية، فأين أبوك؟ وأين أخوك؟"،^١ فسيّد له السيادة المطلقة في كل شيء.

وكذلك تناول أبو بكر خالد في جميع رواياته بدأ من "بداية الربيع" و"النبع المر" حتى "القفز فوق الحائط القصير" القضايا الاجتماعية التي وجدت في السودان آنذاك حيث أن رواياته كلها تعدّ مرآة للمجتمع السوداني خاصة في فترة الاستعمار وفي بداية عهد الاستقلال. وتعرض الحياة الاجتماعية بغية معالجة المشاكل أو الصراعات، والبحث عن الصلات السببية بين البيئة الاجتماعية للإنسان ومآله أو التعارض بين قيم الطبيعة، وتصوير العالم الداخلي للإنسان وتناقضاته.

وعالج عمار البليك في روايته "الأنهار العكرة" قضية الاغتراب وما يعاني المغترب من الانهزام والإحباط، يقول بطل الرواية: "يوم أن ارتفعت بي الطائرة في السماء بدت الخرطوم من تحتى كقطعة لحم مسرطن نزعته عن جسدي، كأنني كنت اقضي ساعات حياتي الأخيرة التي انتهت بشنقي وصعود روحى الي السماء، كنت أقول ذلك واكتشف بعد زمن وجيز عندما تخدرت بجراح الاغتراب أن ذلك الشيء الذي صعد السماء في فجر شتوي حار هو جسدي وليس روحى كنت أعيش بجسدي طوال السنوات العشر التي مضت تركت عاداتي المألوفة أن اقرأ أو اكتب أو حتى أفكر - أصبحت مجرد آلة على شكل إنسان تماماً مثل طاحونة

^١ رواية الفراغ العريض، ملكة الدار محمد عبد الله، ص ٣٠

العوض... تبدأ في طحين الذرة والقمح في الفجر ولا تسكت إلا المساء... وأنا
اجلس وحيداً في غرفتي الصغيرة في وقت متأخر من الليل - كنت أخال أن
الطاحونة قد توقفت عن الطحين، وبدأت في الأئين واكتشفت أن ذلك الأئين كان
أنيبي في حين تدفقت الدموع على الطالة التي اجلس وراءها محاولاً استرجاع
مقدرتي القديمة على الكتابة"^١

وناقش العباس على يحيى في روايته "مناهات قاع المدينة" قضية الزواج
السري أو ما يطلق عليها بظاهرة الزواج العرفي، وهي ظاهرة خطيرة للغاية متفشية
في المجتمع السوداني.^٢ وكذلك ناقشت رواية منصور الصويم "ذاكرة شرير" قضية
المهمشين والبؤساء في المدينة، وكيف أنهم يجازفون حياتهم لكسب قوتهم.

وقدم عبد العزيز بركة ساكن في روايته "رماد الماء" قضايا الحرب، وتعد
هذه الرواية رثاء مريراً على الوحدة الوطنية التي كانت قائمة في السودان، ونبوة
عن الانفصال الذي حدث مؤخراً تنبأ به الكاتب مبكراً قبل وقوعه بسنين. وكذلك
أبرز الروائي الكبير أمير تاج السر في روايته "صائد اليرقات" قضية هامة وهي
تشويه الثقافة من خلال الحروف والكلمات وعدم اكتراث الأدباء بتقديم شيء نافع
جديد هادف يخدم مصالح الأمة العربية بوجه خاص والمجتمع الإنساني بوجه عام،
وكذلك تعرض غلبة المادة والمادية وعدم فصوح الهوية وغياب الهدف النبيل
وانحطاط الفكر وانتشار الرزيلة في الكتابات الأدبية.

^١ رواية الانهار العكرة، عماد البليك، ص ٩

^٢ الرواية السودانية كوثيقة اجتماعية، مبارك الصادق

وقدم لنا الطيب صالح في رواياته قضايا ومواضيع ذات أهمية بالغة، وتركز جميع رواياته على موضوع مركزي واحد وهو الصراع بين القديم والحديث وبين القرية والمدينة والصراع بين الحضارتين أي الحضارة الشرقية والحضارة الغربية.

يبدأ الصراع بين الحضارتين عندما يسافر مصطفى سعيد بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" إلى لندن بعدما رأى ما يحمل الاستعمار من الاحتقار والحدق تجاه السودانيين، وهناك يواجه نفس المعاملة، حينما تقول له جين موريس: "أنت بشع، لم أر في حياتي وجها بشعا كوجهك"^١، وحتى شيلا غرينود وهي خادمة في مطعم سوهو تقول له: أختي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلا أسود ولكنني لا أبالي"^٢. فالاحتقار الكامن حتى في قلوب النساء، فهو الذي سبب إلى إثارة الرغبة في الأخذ بالثأر من تلك الحضارة وأهلها.

وكذلك يتجلى الصراع بين الشرق والغرب لدى عودة الراوي من لندن إلى قريته، وحينما يسأله أهل القرية عن الغرب وما فيه، كما يقول الراوي: "سألوني عن أوروبا: هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون إن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال، وسألني ود الرئيس: "هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟"^٣

^١ موسم الهجرة إلى الشمال ص ٣٦

^٢ نفس المصدر ص ٧٦

^٣ نفس المصدر ص ٧

فهكذا يشتد الصراع بين الحضارتين وبين الجنوب والشمال، والشمال هنا عبارة عن التقدم العلمي والجنوب نقيضه أي التخلف، فهي علاقة المتقدم بالمتخلف وعلاقة المستعمر بالمضطهد والقاهر بالمقهور وبالعكس، فهذا الإحساس بالاستغلال والاضطهاد يجبر المقموع والمضطهد أن يأخذ الثأر من تلك الحضارة، فيتحول المقموع والمستعمر إلى القامع والمستعمر، ويريد الانتقام بأي شكل من الأشكال.

وكذلك تعالج الرواية قضية الصراع النفسي الذي يجده الرجل في داخله، كما أن بطل الرواية مصطفى سعيد لما عاد إلى وطنه بعد قضاء سبع سنوات في السجن فإنه لم يتمكن من التكيف في وطنه أيضاً، إنه عاش غريباً في الغرب وبدأ يعيش غريباً حتى في بلده، لا يجد له القرار، فكان من الطبيعي أن يقوم بالانتحار ويتنازل عن حياته التعيسة والمحبطة. كما تتجلى قضية الأصالة والاعتراب والهوية في هذه الرواية كما يقول الراوي بعد عودته إلى قريته: "ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير، أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق قامتها، فأحس بالطمأنينة، أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مخلوق له أصل، له جذور، له هدف".^١ ويقول في موضع آخر: "الوجه هناك كنت اتخيلها قمحية أو سوداء، فتبدو وجوها لقوم أعرفهم، هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا

^١ نفس المصدر ص ٦

نبتت في فناء دارنا، ولم تثبت في دار غيرها".^١ فهكذا تبرز الرواية أهمية الجذور والأصول في حياة الإنسان.

إلا أن المؤلف يتخذ موقف تصالح وتسامح بين الحضارتين كما يقول الراوي: "وكونهم جاءوا إلى ديارنا لا أدري لماذا، هل معنى ذلك أننا نسلم حاضرتنا ومستقبلنا. إنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة، سكك الحديد والبواخر والمستشفيات والمصانع والمدارس ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل، سنكون كما نحن قوم عاديون، وإذا كنا أكاذيب فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا".^٢

وأيضاً تتناول هذه الرواية قضايا الهوية والأصالة والاعتراب وحق تقرير المصير وأزمة الهجرة الداخلية والخارجية والصراع بين التقليد والحداثة وقلة الاتزان بين القلب والعقل وغيرها من الموضوعات والقضايا التي تحير القارئ كثافتها. والهجرة الداخلية هي في الواقع اغتراب وغربة وهي تتمثل في الغربة عن الذات رغم الالتصاق الوثيق بها. والحنين إلى الوطن عنصر طاغ على كتاباته الروائية والقصصية.

وكذلك تعالج رواية "عرس الزين" قضية الصراع بين المدينة والقرية التي تتمثل في الدين، كما نجد في هذه الرواية سلسلة من العلاقات المتوترة بين الزين والحنين الذين يمثلان الإسلام الشعبي، وبين الإمام الذي يمثل الإسلام الرسمي ويتقاضى راتبه من الحكومة، وكان للطريقة الصوفية تأثير كبير على سكان

^١ نفس المصدر ص ٥٣

^٢ نفس المصدر ص ٥٣

السودان، فلهما اعتقادات كثيرة عن كرامات الأولياء، وكان من هؤلاء الأولياء "الحنين" الرجل الصوفي وكان الشيخ "الحنين" يقضي ستة أشهر في القرية منصرفاً إلى الصيام والصلوة، ثم يغيب عنها ستة أشهر ثم يعود إليها قادماً من حيث لا يدري أحد، يظن الناس أنه يجتمع في الصحراء مع أولياء آخرين ويقضي أوقاته معهم في العبادة. وكان الزين الصديق الوحيد للشيخ الحنين في القرية.

وتتمتع شخصية الزين بمصادقة مع العجزة والمعاقين في القرية: مثل عثمانة الطرشاء وموسى الأعرج. ولأجل ذلك كانت تذيع أمه أن ابنها ولي من أولياء الله. وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية وجدنا أن الشيخ الحنين كان بمثابة المعجزة بالنسبة لأهل القرية، فهذا الشيخ الحنين هو الوحيد الذي استطاع أن يخلص سيف الدين من قبضة الزين بينما عجز الناس عن إنقاذه، ولم يقل شيئاً إلا: "الزين... المبروك، الله يرضى عليك"^١، فانفكت قبضة الزين عن سيف الدين، وهو كان ساكناً هادئاً بين الحياة والموت. وأنه قد بارك لأهل القرية: "ربنا يبارك فيكم، ربنا يجعل البركة فيكم"^٢، وبالفعل فقد حلت بركات على القرية في شكل المشروعات والخيرات بشكل متلاحق، وارتفعت أسعار القطن، وقامت الحكومة ببناء مدارس ومستشفى وغيرها، فالشيخ الحنين والزين يمثلان الإسلام الشعبي المتسم بالطابع الصوفي بين أهالي القرية.

^١ عرس الزين ص ٤٧

^٢ عرس الزين ص ٦٠

والإمام هو يمثل الشرع والإسلام الرسمي، إنه كان يلهبهم بخطبه الرنانة، ويذكرهم بأمور يحلو لهم أن ينسوها من موت وأخرة وفرائض، وقد انقسم سكان القرية بسببه إلى ثلاث مجموعات: الأولى، كان أغلبها من الرجال الكبار والعقلاء وكان هذه المجموعة تعامل الإمام معاملة حسنة، وكانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد، ويجودون عليه بالأموال والهدايا. والثانية: فهي مؤلفة من الشبان العابثين الذين يعادون إمام المسجد، فقد سافروا وتعلموا ورجعوا إلى البلد، وتأثروا بالمادية الصارخة والآراء الإشتراكية، فكانوا يشربون الخمر ويعابثون. والثالثة: هي مجموعة العصاة المؤلفة من سبعة رجال وهم مسؤولون عن كل شيء يحل بالقرية، وكان الإمام يعاديهم بالرغم من أنه سجين في قبضتهم، فهكذا نجد الصراع بين المدينة والقرية عن طريق الإسلام الرسمي والإسلام الشعبي.

وكذلك تتناول رواية "عرس الزين" قضية الرق في المجتمع السوداني، كما قدم الطيب صالح نموذجا منها: "موسى الذي لا يذكر الناس إسمه، ولكنهم يسمونه الأعرج، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلا يتفطر قلبك على كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق، كان عبدا رقيقا لرجل مؤسر في البلد... ولما توفي آلت الثروة إلى ابنه السفية فبدها وطرد موسى... فعاش على حافة الحياة في البلد، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة".^١ وكما أشار إلى هذا الجانب عثمان حسن أحمد قائلا: "والرواية تتعرض في نكاء ودقة إلى مسائل حساسة في

^١ نفس المصدر ص ٣٧

حياتنا نتجنبها ونتجنب الحديث عنها"، ففضية الرق في المجتمع السوداني قد عالجه الطيب صالح في هذه الرواية بذكاء ودقة. ونجد فيها الصراع بين القديم والجديد وهو تغلغل المدينة إلى القرية تحت رعاية العادات والتقاليد والعقائد الخاصة بسكان القرية. وكذلك تتناول رواية "بندر شاه" المكونة من جزئين "ضوء البيت" و"مريود"، قضية الصراع بين المدينة والقرية وبين القديم والحديث، ففي الجزء الأول يقدم الطيب صالح قصة الصراع حول رئاسة الجمعية التعاونية بين محجوب وأولاد بكري، وجماعة محجوب أنهم كانوا يتولون زمام الحكم منذ زمن بعيد، ويتصرفون فيه كما يشاءون فيتم توجيه النقد إلى الإدارة في الجمعية التعاونية من خلال الشخصية "عشا البايات" لأنه لم يكن يتوقع أحد أن يقوم عشا البايات بتوجيه الاتهام إلى محجوب بالفساد. كما يقول ود الريس: "إن الطريفي ولد بكري كان أول المتكلمين قرأ عريضة طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم. اتهم محجوب بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال وهلم جر."¹

وفي الجزء الثاني تشتد هذه التغييرات، فيتولى بعد ذلك جيل الشباب زمام الأمر من أيدي الشيوخ، ويودون إدخال التحديث في القرية ومعالجة المشاكل المصاحبة، وتصف مريم، وهي شخصية بارزة في الرواية، التغيير الكبير الذي طرأ على القرية وخاصة في أنظار أولئك الذين يتمسكون بالنفور من القديم ويدعون إلى التمسك بالجديد وتشجيعه، وإن عوامل التقدم فتعتبرها مريم إحدى الأحلام التي تسعى إلى تحقيقها كما

¹ ضوء البيت ص ٥٢

تقول للراوي الذي هو حبيبها أيضا: "تسكن البندر سامع؟ البندر الموية بالأنايب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد، فاهم؟ أتمبيلات وتطورات، أسباليات ومدارس وحاجات وحاجات، البندر، فاهم؟ الله يلعن ود حامد بحم ورماد، فيها المرض والموت ووجع الرأس، أولادنا كلهم يطلعوا أفندية، فاهم؟ زراعة أبدأ، وحياة محجوب أخوي زراعة ما نزرعها أبدأ." ¹ فإنه من الملاحظ أن مريم هي الفتاة المثقفة الوحيدة في القرية هي أيضا تود التطور والتقدم، وتسعى إلى التغيير نحو الأفضل. ونجد في رواياته مناحي عديدة من الحياة التي تمثل علاقة الشرق بالغرب ونظرة الأخير إلى الشرق واستعباده والصراع المتواتر بين الحضارات والثقافات والآثار السيئة والأزمات المتوالية على المجتمع العربي والشخصيات في رواياته توحى إلى قضايا سياسية واجتماعية.

وتهيمن على أعمال الطيب صالح عدد من المواضيع والصور، من بينها تصويره للمرأة على أنها أقوى شخصيات، والدور الكبير الذي يلعب نهر النيل في حياة شخصياته في محيط ريفي. تركز رواية الطيب صالح على حياة القرية السودانية، متمثلة في ود حامد، القرية التي تحتل مركز الصدارة في جميع أعماله تقريبا، ويحدث في أول عمل منشور رئيسي له. كما تلعب ود حامد دورا هاما في موسم الهجرة إلى الشمال، على الرغم من حقيقة أنه تم جزء كبير من الرواية في إنجلترا. يتكون كل عمل سواء كان رواية أو قصة قصيرة أيضا من الشخصيات النسائية القوية التي تتمرد بطريقتها الخاصة على التقاليد القديمة من المجتمع

¹ مريود ص ٦٦

الرفي الذي يهيمن عليه الذكور. تظهر الشخصية المركزية النسوية في كل عمل كمصدر من الحب والتضحية ورمزا لحلم قرينتها من التقدم والازدهار.

في رواية عرس الزين، على سبيل المثال، نعمة، أجمل فتاة في القرية تصر على أخذ مصيرها في يديها الخاصة، وتكون مفاجأة لكثير من زملائها القرويات. إنها عنيدة ومستقلة وامرأة شابة، مختلفة عن غيرها من النساء في قرينتها. تصر نعمة كطفل على الذهاب إلى المدرسة لتعلم القرآن الكريم. إنها لا ترد حقيقة أنها هي الفتاة الوحيدة بين الأولاد. عندما تكبر فإنها تصر على الزواج من أجل الحب الرجل من اختيارها. مثل نعمة، فاطمة في ضوء البيت هي الفتاة الوحيدة التي تذهب إلى المدرسة مع البنين. هي أيضا تدرس القرآن وتتعلم عن ظهر قلب. إنها تتنافس مع البنين على عدة جبهات، بحيث أن أي طفل قد يكون كاذبا إذا قال إنه هزمها في الجري أو السباحة أو تسلق أشجار النخيل.¹ عندما يأتي شخص غريب إلى القرية، فاطمة ترحب به وتعلمه القرآن. عندما يطلب منها أن تتزوجه، تقبل على الرغم من المعارضة من شيوخ العائلة والقرية. ولم تجر العادة في القرى السودانية للشابات على زواج الغرباء. ويقدم صالح في رواياته العديد من النساء اللواتي تفعلن ذلك. والذهاب ضد التقاليد من قرينتهن، فإنها تظهر قوة شخصية ليس فقط في الزواج من شخص غريب، ولكن تقبله أكثر أو أقل من قبل محيطتهن. والشخصية الهامة الأخرى التي تتزوج من شخص غريب هي حسنة في موسم

¹ ضوء البيت للطيب صالح، ص ١١١

الهجرة إلى الشمال. بعد وفاة زوجها، يجبر أحد شيوخ القرية تقريبا حسنة على الزواج منه. لكنها عازمة على رفضها له حتى لو كان ذلك يعني الحاجة إلى قتله. تقتل حسنة الرجل في ليلة زفافها وبعد ذلك تأخذ حياتها الخاصة.

وفي رواية مريود، مريم المرأة الجميلة هي شخصية مركزية يحلم محميد عنها بعد مغادرة القرية بناء على نصيحة جده، كان محميد قد تزوج مريم لو بقي في القرية ولا يتركها للبحث عن مستقبل أفضل. يعود عندما تكون مريم على فراش الموت. ويرى أنها حتى تقترب من الموت هي رائعة وخلافا للآخرين: انها ليست مريضة، بقيت على سريرها لمدة يوم واحد فقط، كما أنها كانت قد قررت فجأة أن تترك. ١ يذكر محميد أن مريم كانت قوية الإرادة وتحب الحياة. كانت تحلم دائما لمستقبل أفضل من القرية يمكن أن تعطي لها. انها تتوق للمياه عبر الأنابيب والكهرباء والسفر بالسكك الحديدية. ٢ حتى في مرحلة الطفولة تمردت ضد دور المرأة التقليدي في ود حامد وغيرها من القرى السودانية. انها ميزت نفسها من الفتيات الأخريات من خلال ارتداء ملابس الرجال، عمامة وجلابية، العمامة التقليدية وعباءة من الرجال السودانيين، تميز نفسها كولد والذهاب إلى المدرسة مع البنين: ولماذا لا؟ وبما أن المدارس الحكومية تقبل البنين فقط، وأنا ذاهب لارتداء جلابية وعمامة ما هو الفرق بين البنين والبنات. ٣ ولكن مريم لم تعش لتحقيق أحلامها من حياة أفضل لنفسها ولغيرها من

^١ مريود لطيب صالح ، ص ٨٠

^٢ نفس المصدر ص ٧٠

^٣ نفس المصدر ص ٧٧

النساء في قريتها. بعد محيميد الرجل الذي تحبه، أن غادر القرية، كانت قد تزوجت لشخص آخر. وأنجبت ابنا الذي ورث روحها المتحدية وأصبح واحدا من جيل جديد من الناس في القرية الذين رفضوا قبول العادات والتقاليد القديمة على نحو أعمى.

إن موضوع الأم التي تنقل قوة شخصيتها إلى ابنها إلى حد ما يوجد في أعمال الطيب صالح. وفي رواية مريود، يصادف المرء أيضا حواء وهي امرأة ذات جمال لا مثيل لها تقيم في ود حامد بعد وفاة والديها. معظم الرجال في القرية يريدون أن يتزوجوها، لكنها ترفض لهم لأنها في حالة حب مع بلال، وهو رجل تقي يعيش مثل ناسك. بلال يتزوج حواء، لكنه يتركها في ليلة لتكريس نفسه مرة أخرى للصلاة والعبادة. تلد حواء ابنا اسمه طاهر، وتربيه، وتعطيه كل حباها وتغرس فيه قوة الشخصية والكرامة. يلفت المؤلف في موسم الهجرة إلى الشمال الانتباه إلى قوة شخصية أم مصطفى عندما يصف مشهد فراق كما يودع مصطفى والدته وداعا، بعد أن قرر أن يذهب إلى القاهرة للدراسة. كل ما تستطيع أمه أن تقول هو أنه حياته، وأنه حر في أن يفعل كما يشاء.^١

ويمتد تصوير الطيب صالح للمرأة إلى شخصية أمومية كبيرة السن، وأفضل مثال على ذلك بنت مجذوب في موسم الهجرة إلى الشمال. بنت مجذوب امرأة تقترب من السبعين من عمرها. بسبب سنواتها الناضجة وشخصيتها القوية هي تعتبر واحدة من شيخات القرية، وتكون دائما مع الرجال، وتشرب الكحول، وتدمن

^١ موسم الهجرة إلى الشمال، للطيب صالح، ص ٢٣

التدخين، وتوجه الشتائم. يستشير الرجال والنساء على حد سواء حول مسائل مهمة ويقدرّون نصيحتهما. حوارها جريئة وغير مأهولة.^١ على الرغم من سلوكها غير تقليدية، إنها تقليدية جدا وتنتقد أولئك الذين يذهبون ضد تقاليد القرية. إنها تنتقد بشدة حسنة التي تقتل الرجل الذي أجبرها على الزواج ومن ثم تقتل نفسها. إن موقف بنت مجذوب تجاه النساء الأصغر سنا مماثل لتلك التي من رجال القرية. بواسطة وصفها إحدى شيخات القرية اللواتي لا يوافقن على أية حرية غير تقليدية تتخذها النساء الأصغر سنا. يجعلها مؤلف أن تنتمي أكثر إلى الرجال بدلا من معسكر المرأة في سلوكها والموقف.

يحتفل صالح بنساء القرية السودانية من أجيال مختلفة. ونادرا ما يتحول انتباهه لنساء المدينة أو الغريبات، وعندما يفعل ذلك، تظهر النساء الحضرية أو الغربية في رواياته كشخصيات هامشية. في موسم الهجرة إلى الشمال، إنه يقدم أربع نساء إنجليزيات في الحكمة، واللواتي خدرتهن الشخصية المحورية، مصطفى سعيد. قامت ثلاثة منهن بالانتحار، في حين أن الرابعة التي تبرهن على أن تكون شخصية قوية، يقتلها مصطفى. وفقا لإيفلين أكاد، يعامل مصطفى جميع أربع نساء بقسوة، يتطلع سلطته على المرأة البيضاء انتقاما جزئيا للسلطة التي يعقدها الرجال البيض عليه وعلى شعبه. علاقاته مع هؤلاء النساء اشتباكات عرقية حقا الذي يتم فيها إرجاع السادية للاضطهاد.^٢ لذلك المرأة

^١ نفس المصدر ص ٧٦

^٢ السياسة الجنسية: المرأة في موسم الهجرة إلى الشمال، لإيفلين أكاد، ص ٥٩

الغربية الأربع في هذه الرواية بمثابة وصلات إلى خاتمة الحكمة وبالتالي لا تظهر على أنها شخصية ثلاثية الأبعاد مثل النساء في قرية ود حامد.

توجد المومسات أقل بكثير في عمل الطيب صالح من النساء في المناطق الحضرية أو الغربية. وربما يرجع ذلك إلى حقيقة أنه في مجتمع قروي سوداني متماسك صغير، وبعلاقات القرابة القوية تنبذ البغايا وتجبر على وجود هامشي معزول على مشارف القرية. لأنهن لا يظهرن في مجتمع القرية، فإنهن نادرا ما يحدثن في أعمال الطيب صالح، إلا عندما يكون في بعض الأحيان يشير المؤلف إلى شبان القرية يزورونها.

فإنه يمكن القول أن الطيب صالح وضع الكتابة الإبداعية السودانية بمفرده تقريبا على الخريطة الأدبية الدولية. والرواية، تقليديا النوع الغربي، التي تشكلت وتصوبت من قبل العديد من الروائيين العرب المعاصرين أن يعكسوا الواقع العربي، وقد قدمها الطيب صالح بعدا أفريقيا إضافيا. هذا الاختلاط الغربي والعربي، والعناصر الأفريقية هي أكثر بجلاء في روايته موسم الهجرة إلى الشمال التي وصفها أحد غربي مستعرب بأنها واحدة من أروع الروايات العربية حتى الآن.^١ وبصرف النظر عن الجمع بين كل هذه العناصر الثقافية، الطيب صالح الذي هو قاص رئيسي إنه قد وضع على نطاق واسع على التقاليد الأدبية عنصرا هاما ليس فقط من الأدب في السودان ولكن من أفريقيا ككل.

^١ الأدب العربي الحديث، روغران، ص ٢١

الفصل الرابع

دراسة مقارنة بين الروايات السودانية والروايات الأخرى

مثل الرواية المصرية واللبنانية

إنه من المعلوم أن الرواية السودانية بدأت تظهر منذ أواخر الأربعينات من القرن العشرين إلا أنها كانت متأخرة بأربعة عقود من مثيلاتها في البلدان العربية الأخرى، وكذلك كانت متأثرة بالروايات العربية الأخرى خاصة المصرية. مثلاً كان خليل عبد الله الحاج قد تأثر بنجيب محفوظ بل إنه كان ينوي أن يجعل إسم روايته الشهيرة "إنهم بشر" مرادفة لرواية "زقاق المدق" بأن يكون إسمها "زقاق العمايا" إلا إنه عدل عن ذلك وسماها "إنهم بشر". هذه الرواية تركز على نفس الموضوع الذي ركزت عليه "زقاق المدق" لنجيب محفوظ. فيوجد هناك كثير من الروايات السودانية التي يمكن القيام بدراسة مقارنة بينها وبين الروايات العربية الأخرى، لكنني أريد أن أقوم بالدراسة المقارنة على الموضوع الأهم وهو الصراع بين الحضارة الشرقية والغربية والذي عبر عنه الروائي الكبير الطيب صالح في روايته الشهيرة "موسم الهجرة إلى الشمال".

لم تكن قضية الصراع بين الحضارتين مجهولة من قبل، بل عبر عنها كثير من كبار الكتاب العرب، منهم: توفيق الحكيم في روايته "عصفور من الشرق"، ويحيى حقي في روايته "قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس في "الحي

اللاتيني"^١ إلا أن الطيب صالح قد عالج هذه الفكرة والقضية بشكل أعمق بسبب تكوينه الثقافي والنفسي والاجتماعي من خلال روايته المشهورة موسم الهجرة إلى الشمال. سأحاول إلقاء الضوء على كل من هذه الروايات في هذا الفصل.

قنديل أم هاشم

إن الكاتب المصري الذي اهتم اهتماما بالغا بموضوع الصراع بين الشرق والغرب هو يحيى حقي،^٢ بدأت قصصه القصيرة تظهر في وسط عشرينات القرن المنصرم لكنه لم ينشر أيًا منها في الواقع في شكل كتاب إلا بعد عقدين أو ثلاثة عقود في وقت لاحق. وإن العمل الذي تقوم عليه شهرته الأدبية هي رواية "قنديل أم هاشم" (١٩٤٤م). يكون إسماعيل هو بطل الرواية في وسط الصراع بين ثقافات الشرق والغرب، ولكنه تمكن في النهاية من إقامة مصالحة بينهما في نفسه.

إنه نشأ في عائلة مسلمة تقليدية انتقلت إلى القاهرة من الريف المصري وعاشت في حي مسجد السيدة زينب حيث كانت المهرجانات والاحتفالات الدينية في الضريح والعادات الشعبية والخرافات قد أصبحت جزءًا من حياته. إنه حفظ القرآن الكريم

^١ الطيب صالح عبقرى الرواية العربية ص ٧٩

^٢ ولد يحيى حقي في القاهرة في عام ١٩٠٥م. وتخرج في القانون عام ١٩٢٥م، مارس المحاماة لفترة قصيرة قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي المصري وتقلد مناصب عديدة في عدد من الدول العربية وتركيا وإيطاليا وفرنسا. وبعد عودته إلى القاهرة، أصبح مديرا لإدارة الفنون الجميلة ثم عضوا لمجلس إدارة المكتبة الوطنية بدار الكتب المصرية. وعمل محررا أيضا لمجلة شهرية أدبية وهي "المجلة" لسنوات عديدة. على الرغم من أنه كان من المقلين إلا أن عمله يعرض سمات فنان دقيق. ومن أعماله الأدبية: قنديل أم هاشم (١٩٤٤م)، ودماء وطين (١٩٥٥م)، وصبح النوم (١٩٥٦م)، وعن النقد الأدبي بما فيه فجر القصة المصرية عام (١٩٦٠م) وخطوات في النقد عام (١٩٦١م).

على يد والده ثم تم إرساله إلى المدارس العامة الحديثة على عكس شقيقه الذين كانا يحصلان على التعليم الديني التقليدي.

إنه يرى في الضريح حشدا من المصلين الذين يأتون للحصول على مباركة السيدة زينب أو أم هاشم، حفيدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. والشيخ الدرديري، والذي كان مسؤولا عن قنديل أم هاشم، يقول له حكايات حول صلاحيات غامضة وخارقة. يقول له إنه في ليلة معينة يزور الضريح عدد من الأولياء الصالحين الذين يصلون إليه على ظهور الخيل حاملين لافتات خضراء ترفرف فوقها وعطور منبثقة منها، وأنهم جميعا يعقدون ويقيمون المحكمة وينظرون في شكاوى الناس. في تلك الليلة مصباح القديس في الضريح يتألق ببراعة، وزيته يقدر على علاج جميع الأمراض المستعصية.

وعندما ينتهي إسماعيل من الدراسة في المدرسة الثانوية، لكنه لم يكن من المتفوقين هذا العام في الامتحان العام بشكل غير متوقع وأنه لا يمكن أن يدخل في كلية الطب في مصر، فيقرر والده إرساله إلى إنجلترا ليصبح هناك طبيب العيون، كما أنه ينصحه بالتزام التعاليم الدينية، وتجنب المرأة الأوروبية. بعد غيبوبة دامت سبع سنوات، عاد رجلا مختلفا تماما بعد أن تخطى عن عدم ثقة بالنفس والحماقات، واكتسب نظرة جديدة وشخصية جديدة.

ومعظم التغييرات التي حصلت فيه يرجع إلى ماري، وهي إحدى زميلاته في الدراسة، والتي تحبه وتؤدي به من براءته البكر إلى عالم الشهوة للحياة والنشاط

المستمر، والتحرر من التقاليد والعاطفة، والإيمان بنفسه وبالعلوم، وتقدير الفن وجمال الطبيعة. وفي الوقت نفسه، إنه يفقد إيمانه الديني وملاذه في قيم ثقافته. إنه يمرض في البداية بسبب هذه الصدمة ولكن ماري تأخذه في عطفة إلى إسكتلندا وتساعدته على التغلب على الأزمة والخروج من ذلك منتصرا. ونراها تتحول في وقت لاحق بعيدا عنه إلى زميلة طالبة اللغة الإنجليزية، ولكن بحلول ذلك الوقت لم يعد اسماعيل يكون تحت هيمنتها. وهو شخصية أرادت ماري له أن يصبح وأنه الآن في حالة حب مع مصر، وتخلف شعبها أنه عازم على محاربتة.

ويخيب ظن عائلته عندما يرى أمه تقوم بعلاج عيون ابن عمه فاطمة بالزيت من مصباح أم هاشم. أخذ عصا والده، وقال إنه يذهب الى المسجد ويكسر مصباح القديس في نوبة من الهيجان. ويهاجمه الحشد في الضريح وكاد أن يقتلوه ولكن الشيخ الدرديري ينقذه من غضبهم ويحمله إلى منزله حيث يبقى في الفراش عدة أيام في التفكير بصمت في العودة إلى إنجلترا، ويبحث كراهيته لشعبه.

وأخيرا، قرر البقاء والقيام بعلاج عيون فاطمة نفسه. ولكن على الرغم من رعاية خاصة، ازدادت حالة عينيها سوءاً، وفي النهاية خسرت بصرها. يغادر إسماعيل منزل والده بكسرة ويعيش في مأوى تديره امرأة يونانية. وبدأ يتعاطف مع الفقراء في مصر ويتمتع بمصاحبتهم حينما يلتقي بهم في ساحة المسجد. ويجد لديهم السلام والطمأنينة التي تتناقص في الغرب.

وبينما كان يتسكع إسماعيل في ساحة المسجد في ليلة القدر في نهاية شهر رمضان، يسمع صوت التنفس مرددا في الهواء. وقد قيل حينما كان طفلا، أن أولئك الذين يتمتعون بضمير مرتاح يمكن لهم سماع هذا الصوت. ويرى قبة المسجد غمرت مع الضوء الساطع لمصباح الضريح ويتعلم كذلك أنه هو أيضا ليلة الزيارة. إنه يطلب من الشيخ الدرديري لبعض الزيت من المصباح، وبأخذه لفاطمة. لأنه يعلم الآن أنه لن يكون هناك أي علم بدون إيمان. كان يطبق علمه لعيون فاطمة ويثابر على الرغم من أي تقدم يذكر حتى أنه في النهاية يشفي لها.

لا يشعر إسماعيل بعد الآن أنه مقتلع عن مجتمعه نفسه. إنه يفتح عيادة في حي فقير ويعالج عيون مرضاه مقابل قليل جدا من الأجرة، معتمدا على الله أولا ثم على علمه. تزوج أيضا فاطمة، بعد أن علمها آداب امرأة المتحضرة، وأنها تتجب له خمسة أبناء وست بنات. إنه ينمو ويصبح رجلا سمينا ومفعما بالحيوية والذي يهتم قليلا عن مظهر أنيق، ولكن الناس لا يزالون يتذكرونه مع العطف والحب.

كان هدف الكاتب يحي حقي في هذه الرواية هو عرض وتقديم شخصية يوجد فيها التأليف والانسجام بين الشرق والغرب. وتمر شخصية إسماعيل اثنين من الأزمان الكبرى قبل وصولها إلى هذه الخلاصة: الأولى في إنجلترا عندما يؤدي تأثير ماري التي تمثل الثقافة الغربية إلى تآكل أساس ثقافته الخاصة. والثانية في مصر عندما يكسر مصباح القديس ويصبح غير قادر على علاج عيون فاطمة في وقت لاحق. وعندما بدأ يحب شعبه فإنه وصل إلى أسباب فشله. ثم يعرف أنه لدعم علمه يحتاج إلى الإيمان الذي يرمز في الرواية من زيت مصباح الضريح. ولن يسمح

علمه بالتأكيد باستخدام الزيت باعتباره الدواء العام الطبي، وأن إيمانه بالتأكد لا يسمح باستخدام الزيت المقدس بطريقة مرتزقة لكسب ثقة فاطمة. ولكن وجود الزيت خلال المعالجة العلمية، غامض كما يتم الاحتفاظ به من قبل المؤلف، ويهدف إلى طمأنة كل من الطبيب والمريض. وإنه من المفهوم بشكل رمزي أن وجود الإيمان في العصر الحديث بالعلوم يثري حياة جميع البشر.

في هذه الرواية، لم يتخل العربي عن ثقافته في بحثه عن الهوية ، وأنه لم يتخذ حتى الثقافة الغربية في مجملها. إنه يدرك القيم في كل منهما ويجعل الخيارات الاجتماعية بينهما الذي يجمع وفقا لبعض التفضيلات التي تناسب حياته الحديثة دون تعطيل وجوده الداخلي.

الحي اللاتيني

يستكشف الكاتب اللبناني سهيل إدريس¹ جانبا آخر من جوانب الوضع الاجتماعي في روايته "الحي اللاتيني" (١٩٥٤م). وبما أنه قد قضى فترة في باريس خلال إقامته فيها طالبا لمرحلة الدكتوراه بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٢م، ولعله قدم المواد

¹ ولد سهيل إدريس في بيروت في عام ١٩٢٣م. وبعد دراسته الثانوية في كلية المقاصد الإسلامية، انضم إلى معهد الآداب أورينتاليس دي بيروت وتخرج منها عام ١٩٤٨م. ثم ذهب إلى باريس للدراسات في جامعة السوربون حيث، في عام ١٩٥٢م، إنه حصل على شهادة الدكتوراه، ثم عاد إلى بيروت حاملا معه الدكتوراة وأسس مجلة أدبية شهرية بإسم "الأدب" في عام ١٩٥٣م، وبالتالي دار نشر بإسم دار الأدب. وتشمل أعماله خمس مجموعات من القصص القصيرة: أشواق (١٩٤٧م)، ونيران وتلوج (١٩٤٨م)، وكلهن النساء (١٩٤٩م)، والدمع المر (١٩٥٦م)، ورحمتي يا دمشق (١٩٦٥م)، وثلاث روايات: الحي اللاتيني (١٩٥٤م) والخندق الغميق (١٩٥٨م)، وأصابعنا التي تحترق (١٩٦٢م). وبالإضافة إلى ذلك، قام بنشر كتاب عن القصة اللبنانية، الفن القصصي في لبنان (١٩٥٨م).

من سيرته الذاتية في روايته. وعلى الرغم من هذا، بطل مجهول من الرواية هو النوع الذي يمثله العربي الذي يبحث لنفسه عندما يأتي في اتصال مع الغرب. وتتقسم الرواية إلى ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول، يضع البطل نفسه في الحي اللاتيني في باريس مع اثنين من اصدقائه الطلاب العرب الذين وصلوا معه، صبحي وعدنان. وفي ليلة وصولهم يذهبون إلى المتعة ولكنهم يشعرون بخيبة أمل. يحاول البطل في وقت لاحق بإيجاد علاقات حميمة مع الفتيات الفرنسيات، ولكنه أيضا يشعر بخيبة أمل: لاتراعي الفتاة الأولى بموعدها له. والفتاة الثانية- ليليان- تأتي إلى غرفته، وعندما تغادر يكتشف أنها قد سرقت ماله. والثالثة مارغريت تترك غرفته في مزاج غاضب متهمة إياه بالأنانية والقدرة.

في الجزء الثاني، تقوده الأقدار إلى التعرف يتعرف على جانين وهي فتاة فرنسية من الألزاس التي كانت قد تركت خطيبها لدى اكتشاف خيانة له والتي كانت مترددة في الشروع في مغامرة حب جديدة. يفوز إصرارها ويقع كلاهما في الحب بجنون. بينما أصدقائه العرب، عدنان وصبحي، وغيرهما يتفخرون باتصال جنس غير شرعي مع الفتيات الأوروبيات، بينما هو مخلص لجانين. يتفوق فؤاد بين دائرة أصدقاء الطلاب العرب كرجل جاد الذي يحسبأن حاجته لامرأة ليست سوى واحدة من العديد من همومه، وليس بالضرورة الأولى كما هو الحال فهو عندما وصل إلى باريس قبل بضعة سنوات. كان مدفوعا من مشاعر قوية من الوعي العربي والاستعداد للنضال الوطني والإصلاح الاجتماعي.

في الجزء الثالث، يشتد فتيل الصراع بين الشرق والغرب بينما كان كامنا في الأجزاء السابقة. رجع البطل إلى بلاده لقضاء عطلة الصيف وتكتشف والدته علاقته مع جانين، عندما تفتح رسالة من جانين تقول فيها إنها حامل. ويجبر على نفي علاقته بها بكتابة رسالة إلى الفتاة الفرنسية احتراما لأمه. يبلغه خطاب التوبيخ من صديقه فؤاد بأن جانين أصبحت مريضة بعد الإجهاض، وأنها لا تزال تحبه. وعندما يعود إلى باريس، ويبحث عنها، ويعلم أن فقرها قادها إلى حياة الخلاعة. يجدها أخيرا لكنها ترفض الزواج منه وتختفي من حياته خشية أن تقف في طريقه وردع نضاله من أجل مصلحة بلاده. وعندما يعود إلى الشرق بعد الانتهاء من دراسة الدكتوراه، أنه يشعر بأن النضال قد بدأ.

فقد سهيل إدريس عن غير قصد التعاطف مع قضية بطل روايته بسبب سوء الحظ لجانين. ولكن همه الأساسي في الرواية ككل يجب أن لا يفلت منا. وقد أظهر بوضوح كيف يشتاق العربي لتحرير نفسه من أغلال التقاليد الملزمة لنموه العاطفي، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات مع أولياء الأمور وأعضاء من الجنس الآخر. أم البطل ليست الأم فقط لكنها أيضا صوت ثقافته الشرقية تم غرسه في ضميره ووعيه الذي يجبره على الطاعة.

"بأن هذا الذي يشدك إلى أمك، ليس هو الحب، وإنما هي الخشية، الخشية من أن تشعر هي بأنك تسئ إليها إذا سلكت هذا المسلك، أو تصرفت ذلك التصرف، إنها الرغبة في أن ترضيها، في أن ترد لها الجميل الذي أنت مدين لها به، أيا كان الثمن الذي تدفعه.... إن أمه لم تدع له أن يفكر في أمره، وينفذ منه إلى الحل

الذي يراه هو، إنها بذلك قد محت شخصه، حطمت ذاته، وفرضت عليه شخصها هي، وذاتها هي.^١

في الواقع، استخدمت أمه كل قوة الضغوط الاجتماعية عليه من خلال إثارة شرف وسمعة الأسرة فيه، مشيرة إلى القيل والقال التي من شأنها أن تتشأ إذا تزوج من فتاة غير عذراء كانت خطيبة لرجل آخر، وهي امرأة مسيحية ليست من دينه طردت من قبل والديها، امرأة فرنسية كانت موظفة مبيعات قد اختارها من الشارع للزواج. وناشدت والدته من ابنها عدم قبول امرأة عرفت رجلا آخر قبله ويمكن أن تعرف الآخرين بعده. وأشارت إلى الفضيحة التي يمكن أن تشوه ذاكرة أبيه وسمعته والعار الذي قد يكون مرتبطا بإسم العائلة للأبد. نرى سهيل إدريس غامضا عمدا في عزو مثل هذه الكلمات مرة للأم وثانيا لصوت داخلي في أعماق البطل^٢ لأن ما قالتها الأم هزت أعماق قلب ابنها الذي تربي ليعتز بهذه القيم والتقاليد العربية التي تميل إلى إخضاع إرادة الفرد إلى الأسرة والمجتمع والنزول لرأيها. وهكذا تعبر الأم عن تحفظات ثقافية لا توافق بشكل عام للزواج خارج مجتمعه وثقافته ودينه وبلده، وتؤكد على أهمية العذرية قبل الزواج. عندما يطيع الإبن أمه ويكتب الرسالة إلى جانين لتتصل من مسؤوليته، يكون الكاتب غامضا مرة أخرى حول ما إذا كانت الأم موجودة جسديا هناك للموافقة على لغة الرسالة وثم تأخذها وترسلها بالبريد، لأن الإبن استجاب لمشاعره العميقة خوفا من العقوبات الاجتماعية، وفي الوقت

^١ الحي اللاتيني، سهيل إدريس، ص ٢٢٠

^٢ نفس المصدر، ص ٢٣٢

نفسه يعترف بأنه كان جبانا هرب من مسؤولية أعماله بنفسه، وهو الشيء الذي "لا يتوقع الوطن من عربي شريف مثله"،^١ كما كان من المفروض أن يقول له فؤاد في وقت لاحق في رسالته. عندما عاد إلى باريس، إنه بذل قصارى جهده للتوفيق بينه وبين جانين ليس فقط من خلال تقديم عرض ليتزوجها ولكن في الواقع عن طريق أخذ بطاقة هويتها لإعداد الوثائق اللازمة للسفر معها. إنه لم يعد قادرا على العيش مع هذا الصراع في داخله بين مطالب والدته وبين الثقافة من جهة، وبين متطلبات المسؤولية الفردية وبين الحب من جهة أخرى. ولكنه عندما يعود، إنه يرى أن جانين كانت قد اختفت، وتركت له مذكرة حب تبرر فيها قرارها لتتركه حرا للنضال أمامه في وطنه العربي بعيدا عنها في التدهور.

تقدم الرواية جانبا آخر من أغلال تقليدية تحبط النمو العاطفي، وهو موقف تجاه الأفراد من الجنس الآخر الذي، في الثقافة العربية، هو القمع عموما والذي هو مسموح به، في الثقافة الغربية عند المقارنة. يقول البطل في مستهل الرواية لنفسه: "لا تحاول أن تحتج أو تتكر. أجل شرقك ذلك، لم يغرك بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربية، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك" ^٢

يعرض المؤلف الثقافة الغربية المتحررة جنسيا ويسمح بطل روايته لرؤية الغرب لأول مرة من خلال المرأة الغربية وبعد ذلك من خلال الفنون والعلوم من الحضارة الغربية، وتظهر الرواية أن الطلاب العرب في باريس منهمكون مع النساء الغربيات

^١ نفس المصدر، ص ٢٤٤

^٢ نفس المصدر، ص ٢٥

إلى درجة أن القارئ يتساءل عن درجة مسؤوليتهم تجاه ابتعاثهم للدراسة. بدأ فؤاد بينهم يفهم فقط نفسه وهذه الظاهرة، وعندما يثق البطل له أنه يتجنبهن بسبب سلوكهن المثير للاشمئزاز، ويجيب فؤاد:

" لا يا عزيزي. فأنا أحسب أنك على خطأ. إنهم لا يوحون بالنفور، وأنت لا تتفر منهم إذا أدركت أنهم شبان قلقون، يبحثون عن أنفسهم، إننا جميعا، نحن الشبان العرب، ضائعون يفتشون عن ذواتهم بأنفسهم، ولا بد أن نرتكب كثيرا من حماقات قبل أن نجد أنفسنا"^١

في وقت لاحق في الرواية فؤاد يسأل البطل، "ألا تعتقد أن كثيرين من شباننا العربي، هنا وفي الوطن محرمون من استغلال أسمى إمكانياتهم لأن حاجاتهم في الحب والجنس غير كافية؟"^٢

يوضح الكاتب أن الفتيات العربيات محرومات على نحو مماثل، وخير مثال على ذلك شخصية ناهدة، الفتاة التي أرادتها والدة البطل كزوجة له. البطل يحبها وكانت تحبه، بعد عودته إلى الشرق، ولكن لم يستطع أي منهما أن يبوح به، وفي المساء الأخير قبل مغادرته إلى باريس، رقصوا على أنغام رقصة التانغو في منزلها وسط الأهل والأصدقاء ولكن لم ينقل أي منهما مشاعرهما من الحب لبعضهم البعض إلا من خلال رموز غامضة. وعندما عاد البطل إلى وطنه من باريس لقضاء عطلة الصيف، كانت ناهدة قد انتهت من تعليمها الثانوي ولكن لم يكن لدى والديها أي

^١ نفس المصدر، ص ٨١

^٢ نفس المصدر، ص ١٢٣

خطة للحصول على نوع من التعليم العالي لأنهم أرادوا لها الزواج فقط، على الرغم من أنها كانت تريد مواصلة دراستها، وعندما شجعتها والدة البطل الذهاب معه إلى غرفته لترى العديد من الكتب، ناهدة تفعل ذلك بتردد حتى بعد موافقة والدتها. تدرك فجأة أنها قريبة جدا منه، فتبعد منه.

"لقد تراجعنا ناهدة، لا لشعورها بأنها هي كإنسانة، قريبة منه هذا القرب الذي لم تكن تقدره، وإنما لشعورها بأنها هي كذلك، كجسد. ولقد تعلمت أن تقدر هذا الجسد، لا تقديس حب وعبادة، وإنما تقديس خوف وحذر. إنه مستودع عواطف ونزوات، ومخزن مشاعر وشهوات، حكم عليها أن تكبتها وتعيش في تأكلها، لأنه حرم عليها أن تعيشها كما هي، وأن تعانيها كما تتيحها لها، بل كما تقتضيها طبيعتها، طبيعة البشر. هكذا خافت جسدها، هذا الذي ينبض بتلك المشاعر والشهوات المحرمة، وهكذا انتقل خوفها من جسدها إلى كل من يحاول أن يثير هذا المستودع، ويفجر فيه كوامنه المقدسة. كذلك أصبحت المرأة العربية، تخاف الرجل، تخاف الكائن الذي ينبغي أن تثق به، لأنها تخاف الجسد الذي ينبغي لها أن تحبه"^١

يتم تقديم الصداقات بين أفراد من الجنس الآخر في الشرق كعلاقات الحرمان المتبادل والعاطفة المكبوتة التي تفصل الجنسين، ووضع حد فاصل على غير

^١ نفس المصدر، ص ١٩٧

الطبيعي.^١ والغرب من جهة أخرى يفتح للطلاب العرب في الرواية كل أنواع التجارب مع الجنس الآخر. ويقع معظمهم في مجتمع مفتوح والحرية المتحررة من جميع القيود تسمح لهم ما يريدون. ولكن يكتشف البطل بعض الإخفاقات في المعنى الحقيقي للحب الذي يوحد النفس والجسد، ويجد في جانين الشخص القادر على إبراز أفضل ما عنده. لأنها قد ساعدته في بحثه عن نفسه والآن لأنه يعلم من هو، ما لديه وما كان يفتقر إليه. وعندما يفقدها، يدرك عند عودته الى وطنه أن هناك صراع كبير أمامه كعربي.

لا يحدد الكاتب مناطق الصراع، ولكن الرواية توحى بأنه ليس في الساحة السياسية وحدها، على الرغم من أنها تحدث عن القومية العربية والاستقلال والوحدة تسيطر على الجزء الأخير من الرواية في محادثات الطلاب العرب في باريس. يمتد الصراع ضمنا إلى تحرير الفرد العربي، سواء كان ذلك من رجل أو امرأة، من كل الضغوط التقليدية التي تعوق نموها وتمنع عملها مع الحرية والمسؤولية. في هذا المعنى، وقد وجد البحث عن الهوية في اكتشاف نقطة حساسة في النفس العربي الذي يحتاج إلى رعاية فورية، وربما قبل جميع المجالات الأخرى.

موسم الهجرة إلى الشمال

إن الكاتب السوداني الطيب صالح الذي قضى مدة في إنجلترا، ينجز موضوع اللقاء بين الشرق والغرب وخط أبعادا رائعا في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال"، بطل

^١ نفس المصدر، ص ٦٥

الرواية: مصطفى سعيد، ليس مجرد طالب سوداني رائع يكتسب العلوم والمعارف بلهف وشوق، ينتقل من مدرسته الابتدائية في الخرطوم إلى مدرسة القاهرة الثانوية، ثم إلى جامعة أكسفورد، ولبنوغه العملي يعين محاضرا في عمر يناهز ٢٤ عاما في الاقتصاد في جامعة لندن. تدور نظرياته حول اقتصاديات الحب والإنسانية إلى تشويه سمعة الغرب وتشير إلى الفساد والقسوة الإمبريالية في أفريقيا، والعنف يغريه جسعه أثناء مكوثه في إنجلترا إلى الإغواء العمد للنساء الإنجليزيات في الثلاثينات من عمره مما أدى إلى تدميرهن بالكامل يعتبرها فتوحات جنسية فقط.

في بداية الرواية مصطفى سعيد هو الشخص المحير في نحو ٥٠ من عمره استقر في قرية على نهر النيل، شمال الخرطوم. وكان قد تزوج حسنة بنت محمود، وله ابنان. عاش في مزرعة اشتراها ولكن لا أحد يعرف عنه شيئا. يثير فضول الراوي وهو سوداني الذي انتهى لتوه من دراسة الدكتوراه في إنجلترا وعاد إلى القرية بعد غياب دام سبع سنوات. ويؤدي ملاحظته إلى أن مصطفى سعيد يهتم بشؤون القرية، يحافظ على الصلوات، ويحظى باحترام وسلطة بين القرويين ولكنه لا يأخذ السلطة أبدا. يزداد فضول الراوي يوما عندما يسمع أن مصطفى سعيد يتلو الشعر الإنجليزي وهو سكران. ويدرك الراوي في اعتراف درامي بمناسبة أخرى من مصطفى، سر ثلاثين سنة في إنجلترا، ومحاكمته وسجنه لمدة سبع سنوات بعد أن قتل زوجته الإنجليزية، جان موريس، كان قد طاردها لمدة ثلاث سنوات. إنه جاب

البلاد بعد إطلاق سراحه، واستقر أخيرا في تلك القرية، وعزم على جلب التقدم إلى القرية من خلال أفضل وسيلة للزراعة الحديثة والتنظيم الاجتماعي.

عندما يختفي مصطفى سعيد في فيضان النيل، يجد الراوي أنه ترك رسالة مختومة طلب منه رعاية زوجة مصطفى وإبنه. وهو أيضا ترك مفتاح الغرفة التي لم يدخلها أحد سواه أبدا.

الراوي، وهو رجل متزوج يعمل في مجال التعليم في الخرطوم لكنه يزور قريته سنويا. بعد انقضاء ثلاث سنوات من اختفاء مصطفى سعيد أو موته، يطلب جد الراوي منه أن يتدخل في أمور حسنة ويقنعها للزواج من ود الرئيس، وهو رجل متزوج يكبرها بأربعين سنة، والذي رفضته وكذلك رفضت جميع الخطباء الآخرين. يذهب الراوي كرها إلى حسنة لكنها ترفض الزواج من رجل عجوز وتهدد بقتله ونفسها لو أنها أجبرت على الزواج منه. وفي الوقت نفسه، يقع الراوي في حبها، ويدرك في وقت لاحق، عندما كان متأخر جدا، بأنها طلبت الزواج منه عندما أجبرها والدها على الزواج من ود الرئيس.

يعود الراوي إلى القرية على تلقي برقية بعد نحو شهر في وقت لاحق، ويكتشف أن حسنة قد قتلت بالفعل ود الرئيس ونفسها عندما أصر الرجل العجوز على الجماع الجنسي رغم رفضها. تحيرت القرية بأكملها بهذا للقتل الذي لم يسبق له مثيل، ويعلم الراوي أن حسنة قد فعلت ذلك بسبب ما أراد مصطفى سعيد لها. يكره الراوي الآن مصطفى سعيد الذي كان يعتبره كذبة كبيرة. إنه يفتح غرفة مصطفى سعيد، فيجد فيها

جميع أنواع الكتب الإنجليزية، بما فيها اقتصاد الاستعمار، الاستعمار والاحتكار، الصليب والبارود، واغتصاب أفريقيا من مصطفى سعيد. ويجد الراوي قصاصات من الورق، ومذكرات، وصحيفة وتذكارات أخرى من حياة مصطفى في إنجلترا، بما في ذلك صور النساء اللواتي قادهن إلى الانتحار، شيلا غرينوود، إيزابيلا سيمور وأن هاموند، وصورة من زوجته جين موريس التي قتلها هو. وكانت هناك أيضا العديد من الصور من مصطفى نفسه من مراحل مختلفة من حياته، وفي مناسبات مختلفة. وكانت الغرفة من طراز إنجليزي، كان بها موقد، رف الموقد الرخام، مائدة مستديرة، شمعدانات فضية، وكراسي فيكتورية، وكراسي منجدة من الجلود وسجاجيد فارسية، سقف البلوط والأعمدة الرخامية. الجميع في قرية نائية في السودان!

يغضب الراوي أنه سمح لنفسه أن يندفع بسرية مصطفى سعيد. إنه لا يدمر الغرفة ولكن يذهب إلى النيل للتخفيف من غضبه عن طريق السباحة عند الفجر. إنه بدأ يشعر بأنه ينسحب نحو الأسفل بالماء مستسلما للقوة التدميرية. ثم فجأة يستعيد رغبته في الحياة، وذلك للمرة الأولى يختار الحياة ويتخذ قرارا. يحارب الماء ويصرخ طلبا للمساعدة.

مع هذا التأكيد للحياة، تنتهي الرواية. العنصر الأكثر أهمية لهذا التأكيد هو الحقيقة أن الراوي يختار ويتخذ قرارا للمرة الأولى في حياته. يبدو له كل حياته السابقة واحدا الذي كان يقوم به ما هو مطلوب منه، ما كان متوقعا منه، ولكن ليس ما يريد القيام به. يقول في نفسه عندما يعود إلى السودان:

"إنني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن أعطي بسخاء، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر. ثمة آفاق كثيرة لابد أن تزار، ثمة ثمار يجب أن تقطف، كتب كثيرة تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل العمر، سأكتب فيها جملا واضحة بخط جريء."^١

ومع ذلك، يتم تعيينه من قبل وزارة التربية والتعليم لتدريس الأدب الجاهلي في المدارس الثانوية ويتم ترقيته في وقت لاحق إلى أن يكون مفتشا للتعليم الابتدائي. والأسوأ من ذلك أنه يسمح لنفسه بأن يقوده مصطفى سعيد إلى فوضى لم يكن قد اختارها لنفسه، ويصبح أحد المشاركين في قصة لم يكتبها. وعندما يحب حسنة، أرملة مصطفى، إنه لا يتخذ خطوات ليتزوجها ولكنه يفعل فقط بصفته ولي أمرها، كما هو متوقع منه، في حين أنها "المرأة الوحيدة التي أحببتها"^٢، أنه يعترف، أنه امتعض بمرارة وفاتها كضحية مصطفى سعيد. وعلى النقيض من ذلك، مصطفى سعيد هو الشخصية التي تؤكد إرادته حتى في طفولته. ولم يكن له أقارب أو أخوة أو أخوات، أنه ينمو تحت رعاية والدته، بعد أن توفي والده بضعة أشهر قبل أن يولد. تتعلق هذه إلى الراوي، ويقول:

"كنت، ولعلك تعجب، أحس إحساسا دافئا بأنني حر، بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم، يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين، كنت أقرأ وانام، أخرج وأدخل، العب خارج البيت، أتسكع في الشوارع، ليس ثمة أحد يأمرني أو ينهاني."^٣

^١ موسم الهجرة إلى الشمال، ص ٩

^٢ نفس المصدر، ص ١٤٣

^٣ نفس المصدر، ص ٢٣-٢٤

في وقت كان يخفي الناس أبناءهم عن المسؤولين الحكوميين الذين كانوا يجوبون القرى ليأخذوا الشباب إلى المدرسة، أنه قرر بمحض إرادته للذهاب إلى المدرسة. هذا هو القرار الأول الذي اتخذه في حياته ولم تقل والدته شيئاً. وفي وقت لاحق، تكون حياته كلها في يديه. يقرر في ١٢ من عمره أن يذهب إلى القاهرة للدراسة في المدرسة الثانوية، يقول لوالدته فقط بعد إجراء كافة الترتيبات. ويكون هذا آخر مرة يرى والدته. وتقول "إنها حياتك، وأنت حر فيها، إفعل ما تشاء". ، إنه يغادر لإنجلترا في ١٥ من عمره. وفي كل مرحلة من مراحل حياته، كان هناك أشخاص يقدمون له يد العون ولكن لا يوجد لديه شعور الامتتان تجاههم. ويقبل مساعدتهم كما لو كان الواجب يجب أداءه. تقول زميلة له في الدراسة: "أنت لست إنسانا، أنت آلة صماء". في إنجلترا، إنه يراود العديد من الفتيات الإنجليزية إلى سريره من جميع مناحى الحياة. ويحطم مقاومتهن باستخدام جميع أنواع الأجهزة الشيطانية والتصاميم، يشكل أحيانا أفريقيا دافئا يحن إلى برودة أوروبا، وأحيانا عربيا غامضا من وراء القرون من الرومانسية، حتى أنه في النهاية يلتقي جين موريس التي تجبره على الزواج منها. وعندما يقتلها أخيرا، إنه يتوقع أن يموت مثل الفاتح. يقول له القاضي في محكمة أولد بيلي: "إنك يا مستر سعيد، رغم تفوقك العلمي، رجل غبي، إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فإنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس: طاقة الحب."^١

ويقول محاميه وهو أستاذ سابق له في جامعة أكسفورد يكرهه: "أنت يا مستر سعيد، خير مثال على أن مهمتها الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل

^١ نفس المصدر، ص ٥٨

المجهودات التي بذلناها في تثقيفك، كأنك تخرج من الغابة لأول مرة." ^١ ولكن مصطفى سعيد لا يشارك هذا الرأي، ويعتقد في نفسه:

"البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول "نعم" بلغتهم. إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم يا سادتي، أنني جبنتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ. أنا لست عطيفا، عطيل كان أكلوبة." ^٢

ومع ذلك، يختار مصطفى سعيد بعد عودته إلى القرية حياة المزارعين ويخطط لتكريس نفسه لأرضه. ولكن بدلا من فتح صفحة جديدة في حياته تماما، إنه يعيش سرا مع ذكريات غزواته الإنجليزية حتى يختفي في فيضان النيل سواء بمحض إرادته أو، هذه المرة، على الرغم من نفسه.

يمثل مصطفى سعيد رغبة حقيقية من أجل الحرية والسلطة التي شعرها الأفارقة والآسيويون والتي يهيمن عليها الغرب لبعض الوقت. وخلافا لبطل إدريس في رواية "الحي اللاتيني"، لا تمنع والدته من إرادته بأي شكل من الأشكال، ولا تمنعه ثقافته من استيعاب نفسه تماما في الثقافة الغربية. لكنه يعاني من مشاعر متراكمة من الكراهية التي أخذت الأجيال للتشكيل واحتاجت الأجيال للموت. يشهد الغرب من ناحية أخرى مفاهيم خاطئة مماثلة والكراهية أكثر من ألف عام. ويؤثر اللقاء بين

^١ نفس المصدر، ص ٩٦-٩٧

^٢ نفس المصدر، ص ٩٨

الشرق والغرب على مصطفى سعيد والراوي بطرق مختلفة. ولكنهما يوافقان على مستقبلهما. مصطفى يسأل الراوي في الرسالة التي يطلب فيها للمساعدة وتقديم المشورة إلى نجليه و"جنبهما مشقة السفر".

"إذا نشأ مشبعين بهواء هذا البلد وروائح وألوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته، فإن حياتي ستحتل مكانها الصحيح كشيء له معنى إلى جانب معان كثيرة أخرى أعمق مدلولاً".^١

إن هذه النظرة الإيجابية للحب لبلد والخدمة لشعبها هو ما يختاره مصطفى لنفسه بعد تجواله، ولكن ينتابه ماضيه الذي هو نتيجة الفصل المأساوي في تاريخ أفريقيا وأوروبا لا يمكن أن يكون غير مكتوب. ويحب أن يتمتع ولداه بهذه النظرة الإيجابية عن السودان الجديدة والمستقلة لكي تكون حياته، وكذلك حياتهما ذات معنى ومغزى. وإن الراوي لديه أفكار مماثلة إذ أنه يقرر أن يعيش في نهاية الرواية، ويقول: "سأحيا لأن ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب أن أؤديها، لا يعنيني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى.. إذا كنت لا أستطيع أن اغفر فسأحاول أن انسى".^٢

وإن مشاعر الراوي تجاه مصطفى سعيد، مثل مشاعر مصطفى سعيد تجاه الغرب، يجب أن لا يسمح بتسميم الحاضر والمستقبل أبداً من دون نهاية. يجب أن يتم بداية جديدة، ويجب أن تتخذ إرادة الإنسان قراراً، إذا كان الخيار هو الحياة لا الموت.

^١ نفس المصدر، ص ٧٠

^٢ نفس المصدر، ص ١٧٠-١٧١

في هذه الروايات العربية المعاصرة التي تم استعراضها آنفا، يتم تصوير جوانب مختلفة من المواجهة بين ثقافات الشرق والغرب والصراع بينهما. ويؤكد يحيى حقي الجانب الروحي من المواجهة كما حدث في أزمة اسماعيل يتم حلها من خلال انسجام سعيد من الدين والعلم، حيث يتم الاحتفاظ بالقيم الإسلامية جنبا إلى جنب مع المبادئ العلمية الغربية. ويؤكد سهيل إدريس على الجانب الاجتماعي والنفسي للمواجهة التي يمر بها بطل "الحي اللاتيني" الذي يكتشف حاجته للحرية الفردية من الاتفاقيات التقليدية للمجتمع العربي من أجل بناء شخصيته وأتمته على أسس من الإرادة الحرة وليس على إكراه من أي نوع. وهذا يشمل تحرير العلاقات بين الجنسين وكذلك العلاقات بين الآباء والأبناء. ويؤكد الطيب صالح على الجانب السياسي من المواجهة المنضوية داخل مصطفى سعيد والمحرفة إلى شعور الانتقام المعبر عن الفتوحات الجنسية؛ ومع ذلك، فإن البطل، مثل الراوي، يتجاوز هذا الشعور أخيرا أملا في تحقيق التقدم والسعادة في الحاضر والمستقبل. وأن المواجهة الروحية والاجتماعية والنفسية، أو السياسية، بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية يتم تصويرها في هذه الروايات، وعرض مجموعة متنوعة من المواقف العربية في الثقافة الغربية التي تساهم في فهم مآزق العربي الحديث وتقدير الكرب من عملية التحديث له، على الرغم من أن الروائي العربي استخدم مركبا غريبا للتعبير الأدبي الذي يتقنه ويقدمه لثقافته المحلية بعد فترة من التقليد والتجريب.

الباب الرابع

دراسة تحليلية لبعض الروايات السودانية المنتخبة

الفصل الأول: رواية "القفز فوق الحائط القصير" لأبي بكر خالد

الفصل الثاني: رواية "الفراغ العريض" لملكة الدار محمد

الفصل الثالث: رواية "رماد الماء" لعبد العزيز بركة ساكن

الفصل الرابع: رواية "صائد اليرقات" للأمير تاج السر

الفصل الأول

دراسة تحليلية لرواية "القفز فوق الحائط القصير"

لأبي بكر خالد

نبذة عن الكاتب

أبو بكر خالد هو كاتب صحفي وروائي سوداني معروف في الأوساط الأدبية والعلمية بأعماله الروائية والقصصية والمسرحية، شغف بالعلم والأدب منذ شبابه، فقد عرف بمشاركته الفعالة في المناقشات العلمية والأدبية على المستوى الجامعي والوطني، وظل بيته دائما منتدى مفتوحا للأدباء والمفكرين ونقطة للتواصل وواحة للأدب والفن في مصر والسودان، كما كان معروفا بتشجيعه لهم بتكريمهم وتوفير السبل والوسائل، وشغل رحمه الله عضوا مؤسسا للندوة الأدبية التي كان يرأسها الأستاذ عبد الله حاج الأمين.

مولده: ولد بالعينفون عام ١٩٣٤م ونشأ فيها.^١

المراحل التعليمية: تلقى تعليمه الإبتدائي بالمدرسة الأميرية بأم درمان ثم في المدرسة الأهلية وتلقى تعليمه المتوسط والثانوي بمعهد أم درمان العلمي، ثم تخرج في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر مصر.

وظائفه ومسئوليته: عمل عقب تخرجه في مجال التدريس فدرس في كل من:

^١The Mature Arabic Novel Outside Egypt, Roger Allen, p.210

١. مدرسة العيلفون الوسطى.

٢. مدرسة المؤتمر الثانوية.

٣. مدرسة أم درمان الأهلية.

كما رشح للتدريس بالجامهيرية العربية الليبية في الستينات من القرن المنصرم، وعين مديراً لمدرسة الضو حجوج وظل يعمل بها إلى حين رحيله عام ١٩٧٦م، وعد من المدرسين الناجحين.

أعماله المنشورة:

١. بداية الربيع: (رواية) دارالهمال القاهرة مصر.

٢. النبع المر: (رواية) دار الهمال القاهرة مصر، ١٩٧٦م.

٣. القفز فوق الحائط القصير: (رواية) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

القاهرة، مصر ١٩٥٧م.

٤. كلاب القرية : (مجموعة قصصية) دار الفكر بيروت لبنان ١٩٧١م .

أعماله المخطوطة:

١. غداً تتفتح الأزهار

٢. ضل الدليب

٣. البؤساء الصغار

٤. نقوش على الواقع. بالإضافة إلى ذلك أنه كتب عددا من المسرحيات نشرت

بإذاعة وادي النيل ومنها: تمثيلية تاجوج/ الرهان/ أشياء صغيرة.

وكان لديه اهتمام خاص بالقصص القصيرة فكتب حوالي ثمانين قصة قصيرة طبعت في مختلف الصحف والمجلات السودانية والعربية، وامتدت نشاطاته الفكرية والثقافية المتنوعة إلى منتديات الثقافة والفكر بالوطن العربي، وشارك في العديد من مؤتمرات الكتاب العرب وكتاب آسيا وأفريقيا وغيرها وبعد الراحل من رواد الرواية والقصة القصيرة في السودان، وقد حظيت أعماله ومؤلفاته بإهتمام كبار الأدباء والنقاد في العالم العربي في مصر ولبنان والسودان وتناولوها نقدا وتحليلا وعرضا.

تكريم ووفاء بخدمات الراحل: نظرا لخدماته الأدبية خاصة في مجال الرواية العربية قام مركز عبد الكريم مير غني الثقافي بأمر درمان السودان بتكريمه وأسرته ضمن فعاليات الأحتفاء بجائزة الأديب العالمى الطيب صالح ومنحته شهادة وفاء وتقدير وعرفان. وتم عقد أمسية إحتفالية ومعرض وثائقي يوم الجمعة ٢٥ نوفمبر ٢٠١١م بدار الجمعية الهندسية بالعيلفون.

رواية "القفز فوق الحائط القصير"

تحليل الرواية:

تدور أحداث الرواية في العاصمة السودانية الخرطوم بحكم معرفة الروائي عن قرب، فقد قضى فيها مدة مكنته معرفة تحركات الشخصيات في داخلها ويصفه وصفا دقيقا رائعا حتى الشخصيات نراها تتحرك فيه حقيقة وليس خيالا أو مروراً سريعاً عابراً.

يقول الأستاذ أبو بكر خالد: "الدجاج في فسحة المنزل ينبش الأرض حبل الغسيل الكانون الطست العنقريب المهتوك يرقد بصفحته علي الحائط وقد نقرته الأمطار. باب الزنك القصير، الحجرتان والبرنذة التي تربط بينهما، حجرة الوالد عنقريب وكروسي جلوس عتيق ومسامير على الحائط تحمل الملابس المختلفة، دولاب عجوز على رأسه حقيبة كبيرة لم تفتح من زمن طويل، صورة قديمة للسيد علي الميرغني ملصقة بالصمغ على الحائط، في الصالة سريران وأربعة كراسي من الخيزران، ومنظر طبيعي، حجرتها نظيفة أنيقة، استطاعت أن تلمس بين عالمين حجرة الوالد تمثل القديم الذي تسعى للخلاص منه، وحجرتها تمثل تباشير المستقبل الذي تهفو إليه والصالة مرحلة وسطي من مراحل الخطة وبقيت فسحة المنزل امتداداً طبيعياً لحجرة الحاج."¹

تمكن الروائي أبوبكر خالد في هذه الرواية أن يقدم عالماً فنياً روائياً تتوافر فيه كل فنيات العمل الروائي، وأن ينقلنا به إلى وقت الحدث في سبعينات القرن

¹ رواية القفز فوق الحائط القصير، أبوبكر خالد، ص ٣١

الماضي، ولم ينقل الواقع نقلا موثقا ومسجلا بل منح الرواية من روحه ومن أفقه
ومن تجاربه الكثير.

تحكي أحداث الرواية عن الخدمة المدنية وكذلك عن مجتمع الأفندية في
ذلك الوقت، ووظيفة المرأة ودورها البطولي في هذه الرواية والتي تتمثل في شخصية
نجلاء وهي فتاة جميلة ومثقفة وموظفة جاءت من خلفية أسرة غير مستحكمة
وليست لها خلفية علمية، وسبب هذا الفقر تأخر زواجها وكان جمالها الفاتن
ووجودها الساحر بين الرجال سببا في صراعها المحموم للمحافظة على أخلاق
المجتمع الذي ترعرت فيه.

ورغم تأثر أبو بكر خالد البالغ بواقعية نجيب محفوظ إلا أنه تمكن من نقل
روح المجتمع السوداني والشخصية السودانية في نزاعها بين أخلاق الريف وانفتاح
المدينة على مستجدات الحضارة الحديثة إلى الرواية، فرواية "القفز فوق الحائط
القصير" تدور أحداثها في الدائرة البرجوازية الضيقة التي برزت بعد ظهور المدنية
وقيام دولة الأفندية.

بذل أبو بكر خالد أن تكون شخصيات الرواية عادية متوازنة في سلوكها
وعاداتها وأطوارها وأفكارها وفي قوتها وضعفها وفي حبها وبغضها وفي علاقاتها
الاجتماعية والإنسانية وغير ذلك، وهذه الرواية تحمل في جوانبها عدة أهداف
اجتماعية وإنسانية:

١ عرض الحياة الاجتماعية أو الانسانية، بغية معالجة المشاكل أو الصراعات.

٢ الكشف عن الصلات السببية بين البيئة الاجتماعية للإنسان ومآله أو التعارض بين قيم الطبيعة وما يسود الحياة الاجتماعية من استغلال.

٣ تصوير العالم الداخلي للإنسان وتناقضاته، أو الطابع المأساوي لحياته في مجتمع ظروف الاستغلال أو الطابع الانساني في علاقاته الاجتماعية، فهذه احتمالات عن أبعاد الرواية يمكن أن تكشف عن كل هذه المعاني والمضامين.

وقد استفاد أبوبكر خالدفي هذه الرواية من تقنية القصة القصيرة من ناحية التكتيف اللغوي في المحاسن الجمالية للمكان بدون إطناب يمل القارئ ولا إختصار يزعجه، فالمكان في رواية "القفز فوق الحائط القصير" سواء كان في المدينة فيمظهرها الخارجي زقاقها وحوارتها مربوطان أبدا بالزمان الذي تحدث فيها الوقائع ومن المعلوم بأن العلاقة الجدلية بين المكان والزمان من نفس العلاقة بين الكائن ووجوده، لأن عمر الكائن إنما هو طبقات زمنية محفورة في ذاكرته ولا نستطيع أن نعزل المكان عن آثار الزمن في تكوينه، وصراعه في تكوين مجتمع قروي محافظ، وأن يتنفس في زمن متحضر منفتح، فوالد البطلة نجلاء ومعها والدتها يمثلان مجتمع الريف وهما تمثلان التحول الزماني والمكاني الجديد في مجتمع السبعينات فغرفتها تختلف عن غرفة والدتها وأبيها في ديكورها ومحتوياتها، وهذه الرواية ليست رصدا عاديا، وقد نجح الروائي أبو بكر خالد أن يجعل مكانية البيت تختلف عن

زمانية خارج البيت فهناك مفردات البيت ومفردات خارج البيت، فشخصية الحاج عمر والد نجلاء يختلف أسلوب حوارهِ في البيت عن خطابهِ خارجها. وتكون شخصيته أيضا مختلفة تماما في هذه الرواية مثل شخصية السيد عبد الجواد في ثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ والتي تقوم بتفعيل قوي لذاكرة الكاتب المبدع، كما تقوم بتنشيط ذاكرة القارئ، ونستطيع اعتبار أن الثلاثي: خليل عبد الله الحاج وعيسى الحلو، هم الذين كتبوا عن المدينة السودانية في قصصهم ورواياتهم، ولكن ثلاثة روائيين فقط لا يمكن أن يوفوا المدينة السودانية حقها الروائي كاملا لأنهم أبناء مكان واحد وثقافة واحدة وهو المكان الأم درماني.

إن الاستهلال الروائي في الرواية مناصر للقارئ وهو يمثل نبوغ الكاتب في عرضه للرواية وبذلك فتح باب المكان الواقعي الذي تتحرك فيه الشخصية المركزية في الرواية وهي شخصية نجلاء الحاج عمر، يقول في المقطع الأول للرواية: "صوت ينفجر بالبكاء قبل مطلع الشمس أبواب البيوت في الزقاق بدأت تفتح. خرجت أولا بنت الشيخ، ووقفت أمام بيتها الذي يسد مؤخرة الزقاق. ظلت فترة تسمع وتتنظر ثم تقدمت حتى التصقت بحائط التوم ظهر وجه التوم فوق الحائط وهو يسأل بنت الشيخ: ماذا حدث يا بنت الشيخ؟ قبل أن تجيبه، يفتح باب زنك قصير يخرج منه حاج عمر وهو يقبض علي عصاه بعصبية. وينظر شزرا تجاه بيت مرحوم الذي كان ينبعث منه البكاء. استغرقهم جميعا الصمت لفترة قصيرة كان صوت مرحوم أجش موجعا. ثم يلتفت الحاج لبنت الشيخ: ماذا حدث يا بنت الشيخ؟ بنت الشيخ تتحرك معتمدة علي

عصاها وهي تغمز للحاج وتقول: مرحوم يبكي لشيئ واحد. دعوني أذهب اليه. امتلاً الزقاق بالرجال والنساء والأطفال وصوت الشيخ يقوي ويشدد. وتخرج بنت . . الشيخ من بيت مرحوم وهي تخبط كفا بآخر. وسرعان ما يلتف حولها أهل الزقاق، وهي تمط شفيتها في قرف واضح وتقول: لعنة الله حلت عليكم أهل الزقاق. لقد هربت ميمونة. هبط صمت ثقيل. وماتت الأسئلة علي الشفاه . .^١

ففي هذا المقطع الإفتتاحي نكتشف بنية المكان الاجتماعية حيث نرى الجميع يتعاطف مع الآخرين ومن بداية الرواية نكتشف تماسك المجتمع بقيمه وعاداته، فيعتبر هروب ميمونة وصمة عار على كل أهل الحي، والكاتب فرد من هذا المجتمع الواعي، وتجلت هنا مواهب الكاتب ووعيه، فقارن بين الشكل والتقني للرواية والمدرسة الأدبية التي يمثلها في روايته وبين الوظيفة الاجتماعية للرواية، ويعتبر بعض من الروائيين العرب أن تكون هذه الوظيفة مفضلة على الشكل الفني وتتقدم عليه، ولذلك أنهم لا يعيرون التقريرية وكذلك الشعارت وتصنيف الشخصيات المسبق، وسيطرة الروائي وغير ذلك من الأمور، لأنهم يعدونها الضرورة التي تفرضها طبيعة التطور التاريخي في المجتمع العربي ونجد في بنية هذا النص الروائي دور الأب في المجتمع بكل سلبياته وإيجابياته، ووعيه وذكائه حتي أنه لو كان جاهلاً فإنه يمارس حريته الشخصية كاملة داخل المكان وخارجه والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، فبطلة الرواية نجلاء دائماً تتذكر دائماً أقوال والدها

^١ رواية القفز فوق الحائط القصير، أوبكر خالد، ص ١

وتقوم بالالتستشهاد بها: "العالم قسمان فوق وتحت ولا جسر يربط بينهما"^١ والحاج عمر الذي يوجد فيه خلاصة تجربة الحياة حقيقة وكذلك حكمة المجتمع، إنه دائما كان يقول لابنته: "أنت من تحت لأنك ولدت في هذا البيت ولأن أمك وأباك أيضا من تحت، وتعليمي ووظيفتي ؟ هذه سلام تتيح لك أن تصعدي عليها لتتسلقي لفوق، وكنك كيفما حدث لت تتخلصي من تحت، لماذا ؟ لأن الدنيا التي تصلين اليها تعرف أنك من تحت ولن تغفر لك أبدا ولادتك في هذا البيت..."^٢ وهذا الأب مع كونه يبيت سكرانا ويعريد ويسهر فهو رجل صاحب القول الفصل في الأسرة والمسؤولية لاتزال عالقة عليه والتي لم يتخل أو لم يقصر تجاهها أبدا حتى بعد أن حصلت ابنته على وظيفة، فهو يعد نموذجا للأب المسؤول في المجتمع. وتفخر البنت دائما بهذا الأب رغم فقره وجهله وعمله وسعيه من أجل الأسرة والمنزل.

وفيما يتعلق بالشخصية الثانية في هذه الرواية وهي شخصية حسين التي تمثل صورة الموظف الحكومي وهي شخصية في الستين والسبعين تمثل صاحب قوة وسلطة وذات إحترام مرموق لوضعه الإجتماعي المنفرد وهي طبقة في رأي الحاج عمر والد نجلاء يعتبرها صنيسة الإستعمار الإنجليزي كما يقول : "والخلاف يا بنتي ليس في المبني الفاخر والملبس الأنيق، الاختلاف حتي في التفكير والاحساس والشعور، الفقر في ظنهم سلب الناس كل شيء، ونحن لا نساوي عندهم

^١ نفس المصدر، ص ٢٥

^٢ نفس المصدر، ص ٣٥

شيئا بالقروش يشترون ذمنا ويريقون ماء وجوهنا ويزنون مقام نساننا وبناتنا.^١ وشخصية حسين أفندي هي شخصية يكرها الرجال وتحبها النساء لأنه كان نموذجا تتطلع إليه الفتاة آنذاك. "هل تحبين حسين أفندي؟ ومن التي لا تحبه في الشركة، حتي المتزوجات؟ نعم حتي المتزوجات."^٢ وقد كان غرامه نحو نجلاء سكرتيرته الرائعة والجميلة والفقيرة عاطفة تضطرب فيها نظرتة المعبرة عن تفوقه فهي لا تصلح له كزوجة لوضعها الاجتماعي الغير المرموق وإنما تصلح عشيقة وخليفة فقط.

كانت نجلاء الفتاة المتعملة المثقفة الجميلة بطة الرواية والشخصية التي تدور حولها الرواية، والتي كانت تطلب ثمن جمالها وثقافتها، أي أنها كانت تريد جمالها أن يكون جسرا للمرور إلى الأمام والتقدم، ومنذ كونها طالبة في المرحلة الثانوية بدأت تبحث عن الشخصية التي تستطيع تلبية حاجاتها، ولكن كانت هناك مشكلة كبيرة بالنسبة لها وهي أنها جميلة بشهادة الجميع وقد كانت والداها والمجتمع التي نشأت فيها يمثلان العاصم الأخلاقي لها من الوقوع في هاوية الفاحشة، لقد ربيت لتكون عروسا وليس غير ذلك، "لقد كانت نجلاء في هذا الحي العروس التي تحلم بها كل أم لابنها"،^٣ ولكن المشكلة أنها كانت تحلم غير ذلك، لذلك أنها رفضت جارها وهو التوم الذي طلق زوجته لكي يتزوج منها. وتوجد نماذج نسائية

^١ نفس المصدر، ص ٤٠

^٢ نفس المصدر

^٣ نفس المصدر، ص ٥٥

أخرى في هذه الرواية، مثلا شخصية سكيينة التي تدير منزلا سريا للدعارة، إلا أن الكاتب أرادها رغم هذا السقوط العقلي والأخلاقي أن تكون في تفكيرها دائما داخل دائرة التفكير الأخلاقي للمجتمع. فالمرأة في مثل هذا المجتمع حتى العاهرة فيه، تريد أن لا تقع الفتيات الأخريات فيما وقعن هن في الفاحشة وبالتالي فهي تريد الخير لهن. "وقالت سكيينة في انفعال شديد وهي تحبس صوتها بطرف الملاءة، لم يكن لي خيار، لو لم أجد قروشاً، لذهبت شقيقاتي لبيوت الليل، الخيار صعب، أم شقيقاتي أو بنات الشركة، فعلت أهون الامور مع نفسي."¹

التقييم الفني للرواية

لقد كتب الأستاذ أبو بكر خالد روايته هذه بمستوى راق متقدم يحتوي على جميع تقنيات الكتابة الروائية الحديثة، فقد استخدم الراوي الذي يمثل الوعي بما يحدث في المجتمع السوداني والمكان الذي تقع فيه الأحداث، وقد كان التحفيز الواقعي لسير الأحداث شيقا وحافزا لمتابعة الرواية وأحداثها بتسلسل إلى النهاية، وظل الكاتب متمسكا باللغة العربية الفصحى ولكنه طوعها وراضها لتكون سلسلة ومفهومة لدى جميع المستويات والفئات ولأن الحياة الاجتماعية ومسيرتها الأفقية لا تسمح للشخصيات أن تنفرد وأن تعيش بنفسها بعيدة من حيث المكان والزمان. فإن الكاتب أبو بكر خالد قد تخلص من عقدة الكتابة بتيار الوعي التي كانت سائدة في العالم العربي في ذلك الوقت وإنما جعلت لغة الكتابة أقرب إلى لغة الواقع الذي يعيشه ويتحدث عنه.

¹ نفس المصدر، ص ٦٠

أشار عدد من النقاد إلى الهم الاجتماعي الذي حاول أبوبكر خالد إدخاله في كتاباته الروائية، فالناقد عز الدين مير غني يقول: "وقد كتب الروائي الراحل أبوبكر خالد كل رواياته وقصصه تحت مظلة مدرسة الواقعية الاجتماعية. ومنها رواية "كلاب القرية" ورواية "بداية الربيع" و"النبع المر".^١

فتمكن الروائي أبوبكر خالد في هذه الرواية من إبداع عالم فني يحتوي على جميع فنيات العمل الروائي، إنه لم ينقل الواقع نقلاً موثقاً ومسجلاً، وإنه أعطى النص الروائي من روحه، وغذاه من خياله، ومنحه من تجربته الكثير ويحكي عن طريق أحداثها الكثير عن مجتمع الأفندية والخدمة المدنية في ذلك الوقت.

وكتب الناقد د. مختار عجوبة يقول: "في بداية عهد أبي بكر خالد بالكتابة نجد أن كثيراً من قصصه تحمل طابعاً تعريفياً بالسودان أو بيئة معينة في السودان. وفي هذه القصص يتناول أبوبكر مواقف اجتماعية يصور فيها تجاربه. ينقلها إلينا عن طريق الراوي الذي يضع نفسه موضع السائح دائماً، ومن خلال هذه المواقف ينفذ إلى تصوير قطاع عريض من المجتمع السوداني، ينقله إلى قارئه مع تركيزه على نفسية الراوي وما يحدث فيها من تغيرات وتقلبات ومعاناة نتيجة المفارقات والمتغيرات التي يراه النساج يرى أن في عمل أبوبكر خالد تأثيراً كبيراً

^١ صورة مجتمع السبعينيات في الرواية السودانية، عز الدين ميرغني

بنجيب محفوظ لم يمتد ليشمل دقة ومتانة المعمار الروائي الذي تميّزت به روايات محفوظ".^١

ويرى سيد حامد النساج: "فقد بذل الروائي الأستاذ أبوبكر خالد جهدا كبيرا إلى جعل رواياته مرآة للمجتمع السوداني في عهد الإستعمار وبدايات عهد الإستقلال، حيث أدرج الصراعات السياسية في نصوصه وعالج القضايا الإجتماعية التي شغلت السودان في تلك الفترة الحالكة من التاريخ".^٢

وتأثر أبوبكر خالد بنجيب محفوظ تأثرا كبيرا، ولكنه لم يهتم بالدقة وكذلك بمتانة المعمار الروائي كما اهتمت به روايات بنجيب محفوظ ويرجع ذلك إلى أن الكاتب يبدو مهتما ومشغولا في تصوير المجتمع السوداني أكثر بكثير من أن يهتم بالبناء الفني للرواية. كما لاحظ ذلك النساج أيضا، يقول: "بل إنه يكثر من وصف المنازل والشوارع والعلاقات الإجتماعية بين الأحياء المتجاورة، ومن خلال ذلك يحس القارئ العربي في أي قطر من الأقطار العربية أنه عرف أشياء كثيرة عن أشقائه في السودان وأنهم لا يكادون يختلفون عن أهل بلاده في شيء، فهم يعانون نفس المشكلات والصراعات والأزمات وتتجاذبهم نفس التيارات".^٣

تثبت الاقتباسات المذكورة أعلاه على إلتزام الكاتب بأهمية المشاركة في تطوير مجتمعه من خلال قلمه، ومن البديهي أن يؤدي هذا الإلتزام إلى نوع من

^١ القصة القصيرة في السودان، مختار عجوية، ص ٤١

^٢ بانوراما الرواية العربية، سيدحامد النساج، ص ٨٤

^٣ نفس المصدر

الهنات الفنية التي لا يقدر الكاتب على تخطيها إلا بالتواصل والاستمرار في الكتابة والتقيب عن الوسائل التي تؤهله للجمع بين التزامين:

١ - الالتزام بالواقع ونقده تمهيدا لتطويره.

٢ - والالتزام بالشروط الجمالية التي لا مندوحة عنه للأديب في أدبه في

أي حال.

كتب أبوبكر خالد هذه الرواية تحت مظلة المدرسة الواقعية وخاصة تحت وطأة الواقعية الاجتماعية لأن ما يحدث من تطورات وتغييرات في المجتمع السوداني يتطلب ذلك، وهي تمثل فترة التحولات الاجتماعية والتقلبات السياسية والايديولوجية الكبيرة في العالم العربي والأفريقي وقد كتب الروائي الراحل أبو بكر خالد كل رواياته وقصصه تحت سقف مدرسة الواقعية الاجتماعية خاصة روايته "القفز فوق الحائط الأخير".

الفصل الثاني

دراسة تحليلية لرواية "ال فراغ العريض"

لملكة الدار محمد عبد الله

نبذة عن الكاتبة

ولدت ملكة الدار محمد عبد اللهعام ١٩٢٠م^١ بمدينة الأبيض في منطقة كردفان غرب السودان، وقد سجل إسمها بحروف بارزة في خارطة السرديات لما وهبها الله تعالى من جرأة مثيرة وعزيمة نادرة وما عرفت به من إدراك بآليات الكتابة وإلمام بفنونه، رغم قلة وسائل التعليم والتعلم في وسط القرن المنصرم خاصة وانصراف المجتمع عن الفتيات وزهدهم فيهم.

التعليم: تلقت تعليمها الإبتدائي في خلوة الشيخ إسماعيل الولي بالأبيض ثم سجلت بكلية المعلمات بأمر درمان لتدرس سنتين فيها، عملت بعد تخرجها فوراً في عام ١٩٣٤م بمجال التدريس وتعلمت اللغة الإنجليزية بمفردها وجهدها الخاص، وذلك عن طريق المراسلة وبالحوار مع بعض المعلمات الإنجليزيات في السودان آنذاك، وقادها شغفها إلى تعلم الكتابة على الآلة الكاتبة، وكذلك العزف على البيانو وكانت بارعة في العزف على الصفارة، وكانت تحب الغناء وتجيد تلحين الأناشيد كما كانت تجيد قرض الشعر.

^١The Mature Arabic Novel Outside Egypt, Roger Allen, p.220

جهودها في مجال التدريس: تنقلت بصفقتها مدرسة في كثير من مناطق السودان ففي عام ١٩٥٣م تم تعيينها بكلية معلمات الدلنج، وفي عام ١٩٥٥م نقلت إلى كلية معلمات في أم درمان، وفي عام ١٩٦٠م تم تعيينها مفتشة للتعليم في منطقة كردفان، ثم نقلت للعمل بمكتب بتعليم الخرطوم قسم التفتيش الفني.

العضوية في المؤسسات التعليمية والأدبية: بسبب نشاطها الأدبية وخدماتها في مجال التعليم والتدريس والتربية رشحت لعضوية مراكز ثقافية وعلمية وأدبية من بينها:

١. عضو مؤسس بجمعية الأبييض الخيرية النسائية.
٢. عضو في الاتحاد النسائي. وكانت ناشطة في مؤسسات وهيئات العمل النسوي، وساهمت بمجهود كبير في حملات التوعية ضد الخفاض الفرعوني في كثير من أقاليم السودان.

بدأت مشوارها الأدبي بكتابة القصة القصيرة، وكتبت قصصا كثيرة في الصحف والمجلات العربية الأدبية والعلمية، وسلطت الضوء على المشاكل التي كانت تعاني منها المرأة السودانية في البيئة القروية المتخلفة وهي أول روائية سودانية تمثل المرأة السودانية.

نالت روايتها "ال فراغ العريض" التي حررتها في النصف الأول من الخمسينات قبولا في الأوساط الأدبية، وذلك لأنها قدمت صورة حية عن حياة المرأة السودانية وأوضاعها المأساوية بما فيها المتعلمة وغير المتعلمة والتحويلات التي

وقعت في الوسط السوداني أثناء فترة الحرب العالمية الثانية وما تلتها من تغيرات جذرية في المجتمع، فهذه الرواية سيرة ذاتية للكاتبة، إنها تسرد كل ما تعرضت له من خلال بطلنة الرواية. ولكنها انتقلت إلى رحمة الله قبل رؤية الكتاب مطبوعاً، تولت طبعه المجلس القومي للآداب والفنون بالسودان في السبعينات من القرن المنصرم.

الجوائز:

١. فازت ملكة الدار محمد بالجائزة الأولى في مسابقة نظمتها الإذاعة السودانية للقصة القصيرة عام ١٩٤٧م.

٢. وفازت بالجائزة الثانية قصتها (متى تعودين) في مسابقة القصة القصيرة التي نظمتها إذاعة السودان في القاهرة عام ١٩٦٨م.
توفيت في ١٧ نوفمبر عام ١٩٦٩م.

من أعمالها:

١. حكيم القرية. (قصة)
٢. المجنونة. (قصة)
٣. متى تعودين. (قصة)
٤. الفراغ العريض. رواية

وفى جميع هذه القصص أظهرت ملكة الدار محمد إهتماما بالغا بأوضاع المرأة السودانية وهمومها وعواطفها وعدم سماح المجتمع لها كإنسان بكشف طموحاتها وتطلعاتها وآرائها.

ماذا قالوا عنها:

قال الأستاذ أبو شرف: "ملكة الدار تكتب باللغة العربية الفصحى فهي متمكنة منها وحريصة عليها، وهذا مانؤيده ونشيد به رغم أن أصحاب العامية يوجهون نقدهم بأن الأبطال العاديين في القصة لا يجيدون الفصحى وواقع الحدث ينادي الكاتب بأن يكون أمينا مع أبطاله فلا يضع في أفواههم لغة لا يعرفونها ولا يجيدونها، وهذه عندي حجة مرفوضة".

وقال عنها صاحب مجلة القصة: "لست أشك أن ملكة الدار كانت ذات موهبة في كتابة القصة، ولكن الموهبة وحدها لا تكفي، فلا بد من صقلها بدراسة أصول كتابة القصة، ومن دراسة قصص ملكة الدار وجدت أنها كاتبة متمكنة من فنها".

وظلت ملكة الدار محمد وفيه لخدمة الأدب العربي حثانها كانت تشارك في جميع محفل الأدب، وتضطر لإلبارتياد الندوة الأدبية التي قام بتأسيسها عبد الله حامد الأمين وها هي الندوة التي كان يجئ إليها نخبة من الأدباء في ذلك الوقت، كانت ملكة الدار محمد تحظى بالمكانة المرموقة لدى الجميع كما تقول بدور عبد المنعم إحدى تلاميذتها:

هي تقول: "ورغما عني يقفز إلى الخاطر وجه داكن السمرة تطل منه عينان
ما أن تنظر اليهما برهة حتى يعتريك إحساس غريب هو مزيج من الشفافية ورهافة
الحس والطمأنينة ، إنها المعلمة الأولى ملكة الدار محمد التي أرضعتني ورفيقاتي
عشق اللغة العربية شعرا ونثرا".

يقول عنها د. مختار عجوبة: "أسلوب ملكة الدار أسلوب سردي موشح
بعبارات رومانسية تلجأ إلى وصف الطبيعة وتعميق الحدث والمأساة التي يتردى
فيها أبطالها الخيرون ولكنهم يتحولون إلى أشرار نتيجة فساد المجتمع."^١

^١ القصة الحديثة في السودان، مختار عجوبة

رواية الفراغ العريض

تحليل الرواية

رواية الفراغ العريض المطبوعة عام ١٩٧٠م رواية سودانية، ولكن لم تجد مكانتها اللائق بها من النقد والبحث والتمحيص، وظلت مضمورة إلى عهد غير بعيد وما كتب عنها لا يزيد على كونه غيضا من فيض.

يمتاز إقليم كردفان بكونه واحدا من أغنى أقاليم جمهورية السودان بالثروات الطبيعية من ثروة حيوانية ونبط وزراعة وموارد بشرية نشيطة ومن سواعد قوية تعمل في مختلف المهن والتخصصات، عند هذا الفضاء الزاخر كان صراع يتدفق في مخيلة الروائية ملكة الدار محمد فتخوم سنجة وقيزان وخضرة وكردفان وتراثها، عالم فسيح من البهجة والروعة لا بد لها من ظهور في خطوط سرد ملكة الدار محمد، لأنها ولدت وترعرت هناك وهي تعرف عنها ما لا يعرف غيرها. تقول:

"وقد أشرق صحواً بهيجاً، فلما انتصف النهار تبدل صفوه وتغير صحوه، واشتدت حرارة الشمس، وانصب لهيبها قاسياً محرقاً يلهب الأجسام، وبحرق الوجوه، وأخذت قطع السحاب تتجمع هنا وهناك حتى صارت سحباً كثيفة حجبت الشمس ومنعت الهواء ونشرت ظلمة قائمة بعثت الضيق في النفوس والغيط في قلوب الذين لم يفرغوا من انجاز أعمالهم، ولبث الناس ينتظرون مطراً غزيراً ومياها كثيرة."^١

^١ رواية الفراغ العريض، ملكة الدار محمد، ص ٢٤

لقد وظّفت ملكة الدّار محمّد في روايتها الفراغ العريض اللغة توظيفا جماليا وتمكنت من مزوجة أفاظ الحوار اليومي والألفاظ المعجمية المدرسية الفصيحة، في أسلوب سهل يمتاز بالسلاسة والعذوبة ومن دون مبالغة أو إطراء.

لقد سنحت فرصة التنقل لملكة الدار بحكم عملها في سلك التدريس في كثير من أرجاء السودان: سنجة في النيل الأزرق، كسلا في الشرق، مدني في الوسط، أم درمان العاصمة الوطنية، ثم الدانج في الغرب، تمكنت من خلالها مشاهدة آلام المجتمع وهمومه ن قرب بتفصيل، ففجرت طاقاتها المكظومة من خلال دخولها مجال العمل الإجتماعي فنظمت الندوات والمحاضرات عن العادات والممارسات السيئة في المجتمع السوداني مثل الخفاض الفرعوني والشلوخ وغيرها، محاولة تنبيه الناس إلى أضرارها السيئة ونتائجها الكارثية، فحصلت على قبول واسع في الأوساط الشعبية، خاصة وذلك لأنها كانت تخاطب الناس بلغة سهلة مفهومة دون إستعلاء أو تمييز فساهمت بشكل مباشر في توعية النساء وتبصيرهن وكان لها ما أرادت.

ساعدتها ذلك التقارب والإحتكاك مع المجتمع السوداني ظهور روايتها: "الفراغ العريض" رواية أستكملت جميع الشروط والمعايير التي تجعل منها رواية كاملة، ومع أن الرواية في ذاتها تنتمي إلى فصيلة السير الذاتية، إلا أنها إستطاعت من خلال السرد بضمير المتكلم والمخاطب والغائب أن تقدم نوعا راقيا من الحكاية المتعددة الأصوات.

تناولت ملكة الدار فيها الأوضاع الإجتماعية للمرأة والقيود التي تكبلها من التقدم والعقبات التي تقف أمامها والحوجز التي كانت تواجهها المرأة السودانية بل في العامل كله آنذاك، ولا داعي للقول بأن الأستاذة ملكة الدار سبقت بهذه الرواية رواد القصة والرواية من أمثال الأستاذ أبوبكر خالد في "بداية الربيع" وخليل عبد الله الحاج في "إنهم بشر" الذين صدرت أعمالهم في النصف الثاني من الخمسينات.

تقول: "ومادت الأرض تحت قدميها فاستندت إلى الجدار السميك، وأحست بعزلة قاتلة، وبحاجة شديدة للبكاء بل للصراخ، ودت لو تصرخ وتملأ الدنيا صراخاً، فلم تستطع وأرادت أن تجري وراء العربية في الشارع، ولكن قدميها مسمرتان إلى الأرض وهي مشدودة إلى الجدار. وبعد لأي وقد تقدم الليل، استطاعت أن تتحرك وأخذت تسير في اتجاه بيتها بخطى مضطربة، والدنيا مظلمة في جهها والمرئيات تدور أمام بصرها وتدور، ونفسها كسيرة وقلبها مجروح، والفراغ عريض، عريض".¹

أحداث الرواية تدور حول فترة زمنية عصيبة للعالم فضلا عن السودان الذي كان ولا يزال يعاني التخلف والدمار الشامل والمجاعات المتتالية وفشو الأمية وويلات الحروب الطاحنة وآثارها المدمرة، وبالضبط أيام الحرب العالمية الثانية وما قبل الإستقلال، دونتها امرأة شابة رصدت ملامح السودان في تلك الفترة بدقة وشاهدتها عن قرب، فمنى بطلنة الرواية رحل والدها في طفولتها بحثا عن الرزق إلى ما سمته السودان الفرنسي تشاد حاليا، وهي تضطر للرحيل مع جدها ووالدتها

¹ رواية الفراغ العريض ص، ٢٠٠

إلى مدينة أم درمان حيث يوجد بيت كبير يشتمل على أسرة عمها والد سعاد وسارة وسيد، ونعمة زوجة عمّها وبشرى التي تركها لعدم قدرتها على الإنجاب لتخدم والديه وارتحل بعيدا بعد أن تزوج بأخرى.

رواية الفراغ العريض نص يعري الهيمنة الذكورية في البيئة السودانية، فالأب غائب عن مسؤولياته المباشرة نحو أسرته، ولكن هذا الغياب غير معذول ولا يلقى أي لوم عليه في إطار العادات والتقاليد السودانية، وتنتقل رعاية البنات لغياب أبيها إلى الجد والأعمام ثم ابن العم، ورغم إستغناء البطلة المادي فإن والدتها تجزم دائما بضرورتها إلى من يحميها، فحين ما لجأت إلى والدتها لتقتص لها من ابن عمها سيد الذي قام بضربها ضربا مبرحا مع أخته حين اكتشف أمر علاقة أخته سارة مع صديقه صلاح، كان رد الأم عليها: "إنّ الوريقات المعطرة والهدايا البراقة التي ينصبها بعض الشبان شراكا للفتيات الرعنات الطائشات هي التي تقودهن الى نهاية قاسية وعرة، وأنت ليس لك ما لإبنتي عمك من حماية، فأين أبوك؟ وأين أخوك؟"، وسيد له السيادة المطلقة في كلّ شيء فهو حسب وعي النساء: "فتى لم يتجاوز ربيع السابعة عشر طويل نحيل، يتدفق حيوية ونشاط، وبفيض جرأة واعتداد، إذا تكلم تعمد الجد والعبوس وإذا تحرك أظهر الشدة والخيلاء، يحاول دائما أن تبدو على وجهه الصرامة والحزم، يحاول ذلك ويتعمده منذ إن شب وتفتحت مشاعره واتسعت مداركه وأحس أنه نسيج وحده بين أفراد الأسرة، يميزونه على أخته بكثير من الرفق والإعزاز وبكثير من الإجلال والإكبار، لأنه ذكر (وليس

الذكر كالأنثى)، ولأنه الحفيد البكر، والولد الأوحد الذي تفخر به الأسرة وتنتظر على يديه خير المستقبل وعزته.^١

وهذا الرجل المستبد بالأمر والنهي سيّد يحكم بصرامة لمعاقبة شقيقته على جرأتها على الشعور بالحب فيحرمها من تكميل أحلامها بدخول كلية المعلمات والتخرج فيها، وأيدت الجدة النقاش وحسمتها قائلة: "إنّ سيّدا أعطى كلمة رجل، وهي أنه لو التحقت سارة بالمعهد أو بأي مدرسة بعد اليوم ليخرجن من هذه الديار ويقطع كل صلة له بهذه المدينة، ومن أنتن حتى نضحى بسيد من أجل ارضاءكن؟! إنكن مجتمعات لا تساوين قلامة من ظفره".^٢

وتتكلم عن حياة النساء ووظائفهن في البيت: "هذي عليها الديوان تنظفه وترتب فرشه وتمأ جراره، وتلك عليها الحوش تكنسه والأزيار تملؤها، والثانية تعد الشاي والقهوة وتحملها إلى من بالدار. والأواني تغسلها، وتقوم بترتيبها، وإذا فرغن من ذلك اجتمعن على ملابس سيد وملابسهن يغسلنها ويرتبنها.."^٣

وضحت هذه الرواية بدقة هيمنة قرارات الذكور في المجتمع السوداني، ومن هو الرجل وقيمه ومن هي المرأة وما هي منزلتها في الأسرة وفي المجتمع، فحين تتعارض الضروريات الإقتصادية مع الذكور تنهزم الذكورة وتتغلب، فنشأة منى دون والد جعلها أكثر صلابة في مواقفها وحرية في اتخاذ قراراتها من ابنتي عمها وأكثر

^١ رواية الفراغ العريض، ص ٦٤

^٢ نفس المصدر، ص ٧١

^٣ نفس المصدر، ص ٨٤

انطلاقاً، ورغم تهديدات سيد إلا أن والدة منى تصدت له: "تحاولين المستحيل يا عمتي إن كنت ترمين إلى إقناعي بمنع ابنتي من الالتحاق بالكلية، ذلك ما لا سبيل إليه حتى ولو أغضب تصريحي أيّاً من آبائها. أما سيد وإن كنت أحمل له شعور الأم نحو ابنها إلا أنني أضن بمستقبل ابنتي من التضحية مقابل إرضائه، كلكم تعرفون ظروفها، فإن كنتم ترون في حرصي على الحاقها بالمعهد خروجاً على أوامر الرجال فليكن."^١

وقد استغل الإنجليز الأوضاع الإقتصادية السيئة في السودان بعمل خرق في بنية الوعي السوداني تجاه المرأة، فبعيدا عن القلة المتعلمة التي كانت تؤمن بضرورة تعليم البنات، استغلت المشرفة الإنجليزية الفرصة وبدأت حسب ما جاء في الرواية تطوف على الفقراء والمساكين بالمدن والقرى، تختار بنات الأسر الفقيرة لترسلهم للتعليم والعمل كمعلمات وممرضات، والوضع المالي ما منح منى حق العمل والتعليم، وهو ما وصفه النور عثمان البكر بحقيقة مهينة واقعية للانتهازية الذكورية في الفراغ العريض: "فالأب لم يصرخ في وجه ابنته العاملة لأنه يدرك أن تقصيره المادي والروحي في حق الأسرة لا يمكنه من الانتصار ن دخل في مواجهة. وحال منى المادية لا تسمح له بإقاعدها في المنزل والإنفاق عليها. لذا فهو يخفت صوت احتجاجه. وسيد يسترضيها ليخرج بما يشتري به نصيباً في مائدة الميسر."^٢

^١ نفس المصدر، ص ٩٣

^٢ نفس المصدر، ص ٩٩

حال قلب الأنثى في هذه البيئة سواء كانت ريفية أم مدنية، حال المرأة نفسها، خيال عريض يلمح بالرجال في الجوار فقط، فالحبيب هو رجل متاح على خارطة خيال المرأة وتحركاتها المحدودة، والتواصل معه نوع من الخروج على العادات والتقاليد المعروفة، على عكس الرجل الذي لديه مساحة واسعة للحركة وحرية في التنقل لقضاء ليالي الأُنس والمسامرة، كما كان يعد مشاركة النساء في المنتديات الأدبية عارا في المجتمع الذكوري، وتزويج البنات أمر ليس فيه للمرأة كثير رأي، فكل من سارة وسعاد وحتى منى نفسها تم تزويجها بمن تراه الأسرة مناسباً دون الإعتداد برأيها، وتكون الفتاة آخر من تعلم بخبر خطبتها أو تاريخ زواجها.

منى بطلة الرواية تحس بألم الفراغ في حياة النساء ومحافلهن وما أسمته ثرثرة فارغة ليملأن بذلك الفراغ العريض، بدت منى في مساحة الحرية المحدودة التي منحتها جراً أكثر وهمة، ولكنها لم تشارك في تغيير حظوظها وأقدارها بشروط ذلك المجتمع، فمغامرتها بالكتابة في المجلات والمشاركة بأرائها في الصحف انتهت بتواطؤ عمها وابن عمها سيد ومديرة المدرسة عليها، إضافة إلى قرار رفضها لسيد لم تلق اعتناء من قبل الأسرة ولا سيد نفسه، وتعود منى لتقضي حياتها بالفراغ العريض الذي طالما استشعرته من قبل كزوجة مطيعة مستسلمة للأقدار في جنب سيد.

لم تركز الرواية على تلك اللحظات المتفجرة بالوعي واليقظة لدى البطلة وكأنها كانت موجدة هنالك منذ الميلاد، فالبطلة تقدر على رصد الفراغ العريض في حياة النساء وتجاربهن منذ فترة مبكرة من حياته، فهي تراقب حالة زوجة عمها

العقيمة التي أصبحت فقط لرعاية والدي زوجها، حيث يذبل شبابها وتكون محرومة من الحقوق الإنسانية الطبيعية، كما تلاحظ والدتها ممنوعة من الزينة واللباس الفاخر مركزة فقط خدمتها وتربيتها، وتصل قمة إحساسها بالحرمان تلك اللحظة التي تستعد فيها للسفر بعد أن عاقبتها مديرة المدرسة على نقلها إلى مدينة أم درمان، عندما يشتعل في خاطرها سؤالاً عن فائدة الوجود على ظهر هذه الأرض، فماذا أمام المرأة غير الفراغ الفكري والنفسي العريض؟.

لقد ذكرت الرواية الفراغ العريض مرات عديدة للتعبير عن عالم النساء الخالي من كل ما يحقق لهن حياتهن الخاصة، في الفتاة سارة الغارقة في الفراغ العريض بعد ما منعت من الدخول في كلية المعلمات والتخرج فيها، وفي الفراغ العريض نتيجة حرمانها وتوقيفها عن الكتابة، ولحظة مشاهدتها خيانة صلاح لبننت عمها، تعبيراً عن غياب الحب الحقيقي في الحياة وفقدانه.

بطلة الرواية تحب والدها وتلومه لغيابه عن أسرته وعدم تجشمه مسئولياته، وتكره ابن عمها سيد ثم تعود لتحبه وتحب صلاح ثم تفجع فيه، وعدا شخصية جدها الوقور وشخصية صلاح، فالرواية تعبير صادق عن الخذلان في الرجال، وهو ما يؤكد عليه أحمد الطيب عبدالمكرم في تحليله لبنية الفراغ العريض، فعند أحمد: بنية الذكورة ضد بنية الأنوثة يساوي الفراغ.

فعدم التقاطع أو وضع العلاقة الغير المتوازنة بين البنيتين: الأولى والثانية التي تحمل القيمة المنهزمة، يولد هذا الوضع: ١ - حالة الفراغ. ٢ - التصدع بما يكسب الفراغ هنا قيمته الدالة كبنية داخل النص الروائي".

إنّ ازدواجية المعايير الأخلاقية في بنية الذكورة/ الأنوثة تتجلى في الموقف من سعيّة التي اختارت الخروج على تقاليد المجتمع وتأكيد ذاتها وحربتها..حيث يعاملها المجتمع كساقطة وكذلك منى رغم وعيها النسوي الا إنها تستطيع التسامح مع زوجها وسلوكه وصلاح كذلك لكن ليس سعيديّة. إنّ الخاتمة التي تبدو فيها الهزيمة ..هي في حقيقتها انتصار..فالبطلة اختارت أن تتجاوز العادات والتقاليد الإجتماعية وتحقق سعيها الروحي بالبحث عن علاقة حب حقيقية تؤكد ذاتها وحققها في الإختيار..ومع الوعي بتلك المسافة بينها وبين سعيديّة تحاول منى أن تجد تسمية خاصة بها ..رفيعة للحب وان كان خارج الأطر التقليدية، وتفرق بينه وبين المتع العابرة، وقد كانت خبيثتها كبيرة وفراغها عريض حين لم يعي الرجل الذي اختارته هذا الفرق، فبالنسبة له كانت إحدى المتع العابرة وحسب.

سيطرة علو الحس الوطني في الرواية واضح في جو التحرر القومي، التقاليد الراسخة والعادات المستحكمة والتدين البسيط، فالبطلة تحسن الوضع أكثر من جدها ولكن والدتها التي تعلمت من الجد تصر على طريقته ولا تصغي لبنتها، فالبنات لايمكن لهن أن يكن أكثر تدينا من الرجال، وشرب الخمر عمل اجتماعي لا تنقص الرجال من قدرهم إلا إذا كثر الإدمان عليه فيصبح داء مستفحلا، وفي هذه الأحوال

السيئة للغاية شقت المرأة السودانية طريقها نحو التحرر من التقاليد والقيم السائدة عبر العمل والتعليم بإستغلال الحالة الإقتصادية المتهورة واهتمام الإنجليز بتثقيف المرأة وتعليمها وأهم من ذلك إن النساء الرائدات قدمن نموذجا للانضباط والانتظام أستلهم منه الكثيرون مهد الطريق للأخريات وسهله لهن في دخول كليات التعليم العالي والحضور في الندوات والمؤتمرات وإلقاء المحاضرات وغير ذلك.

يقول أبو عاقله عن الرواية: "عندما تقرأ هذا النص تقف شخوص الرواية أمامك بكل مكنوناتها ولا يكون دورك سألبا بل تقوم بردم الفجوات والمشاركة في تخلق تلك الشخوص إستنباطا وكشفا" ثم يواصل "لقد وظفت ملكة الدار محمد اللغة في رواية الفراغ العريض توظيفا جماليا وتمكنت من المزوجة ما بين المحكي اليومي والالفاظ المعجمية المدرسية الفصحى في سبك من السرد السهل الميسور دون معازلة وتعقير. لقد قدمت ملكة الدار نموذجا فريدا مخالفا لكل التوقعات فقد كان الفهم السائد يومها أن المرأة لا تستطيع أن تسهم في رفد العمل الثقافي لما تمر به من ضغوط إجتماعية عسيرة لكنها خيبت ظن هؤلاء ومن راهن على ذلك الخيار".^١

تأخرت طباعة رواية الفراغ العريض إلى عام ١٩٧٠م عن زمان إبداعها وتحريرها، فالأجواء والعوالم التي تكمن فيها تؤهلها لعقدين سابقين من الزمان، وفي هذا الزمن المبكر من عمر الرواية العربية والإفريقية والسودانية مما يجعلنا نبحت

^١ مطر مطر وقوس مطر، أبو عاقله

عن رتبة تلائم هذا السبق للمرأة السودانية التي تمتعت بلعب دورها الريادي في التّوير والإبداع.

شخصية المرأة السودانية في رواية الفراغ العريض شخصية متقلبة: "لو أنه عارض رغبتها! إنّ في وسعها أن تسعى إلى ما تريد دون أن تكثر له أو لغيره، لولا أن شروط خدمة المتزوجة تقتضي موافقة الزوج في ذلك الوقت."^١

لقد أظهرت ملكة الدار نضوجا مبكرا بالكتابة عن المرأة وإبراز قضاياها بأدوات السرد الروائي، في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الثقافة السودانية نقطة مضيئة وريادة لها وزنها المعتبر، وذلك لأن المعروف الشائع هو أن المرأة السودانية لا تساهم في إثراء الثقافة وذلك لما تمر بها من أحوال اجتماعية غير مفتوحة ومن بيئة ريفية تتمسك بالتقاليد والأعراف الموروثة، والدليل أن هذه الأحوال ليست حكرا على المرأة السودانية وحدها، بل هي ظاهرة عايشتها المرأة في كل أركان الدنيا، في تلك الفترة لأنها مرتبطة بالوعي والمد الحضاري للتجربة الإنسانية.

دراسة فنية للرواية:

إن رواية "الفراغ العريض" رواية تلتزم بتقنية السرد في أسلوبها وتختلف فيها عناصر السرد، وتحيل القارئ إلى فضاءات من الحكاية المشبعة بالتجارب والخبرات الممتعة، وتنوع خطاب السرد من خلال ضمير المخاطب

^١ نفس المصدر، ص ١٣١

والمتكلموالغائب، وتسارع الزمن هي من بعض الأساليب وتقنيات السرد التي تحاول عن طريقها معالجة رواية الفراغ العريض.

إن قصص ملكة الدار في أربعينات القرن الماضي وروايتها الفراغ العريض التي كتبتها في أوائل الخمسينات وضعتها ضمن العشرة الأوائل لرائدات القصة والرواية على مستوى العالم العربي، علما بأن التأكيد للقصة والرواية العربية النسائية بالعموم يبدو مبهما وفيه كثير من الالتباس فهناك أسماء عديدة برزت دون أن يتم التعرض لأعمالها أو التحقيق من تواريخ طباعتها أو كتابتها ومن بين هذه الأسماء: زينب فواز، عفيفه كرم، لطيفه الهاشم وغيرهن.

وفيما يتعلق بأسلوب الرواية فهو أسلوب ملئ بعبارات رومانسية، كما يقول د.مختار عجوبة: "أسلوب ملكة الدار سردي موشى بعبارات رومانسية تلجأ إلى وصف الطبيعة وتعميق الحدث والمأساة التي يتردى فيها أبطالها الخيرون ولكنهم يتحولون إلى أشرار نتيجة فساد المجتمع."^١

^١ القصة الحديثة في السودان، د.مختار عجوبة

الفصل الثالث

رواية "رماد الماء" لعبد العزيز بركة ساكن

نبذة عن الكاتب:

مولده ونشأته: ولد عبد العزيز بركة ساكن بمدينة كسلا عام ١٩٦٣م^١ في جنوب السودان، ونشأ وترعرع في قرية خشم القرية بالقرب من مدينة القضارف.

مسيرته العلمية: درس المرحلة الابتدائية في مدرسة ديم النور الابتدائية (بنين) بالقضارف، بعدها تابع المرحلة المتوسطة بمدرسة خشم القرية والثانوية في مدرسة حلفا الجديدة، وأكمل دراسته الجامعية في جامعة أسيوط بجمهورية مصر العربية وتخرج فيها على تخصص إدارة الأعمال، وحاليا يقيم في النمسا حاليا.

حالاته الإجتماعية: متزوج وله ولدان: (١) المهاتما. (٢) مستنير.

وظائفه: زاول مهنة التدريس في مطلع حياته، فعمل مدرساً للغة الإنجليزية في الفترة من ١٩٩٣م إلى ٢٠٠٠م، وبعدها انتقل إلى السلك الإداري فشغل عدة مناصب، أهمها:

١- مستشارا لحقوق الأطفال لدى اليونيسيف في دارفور من ٢٠٠٧م إلى

٢٠٠٨م.

^١ القصة الحديثة في السودان، مختار عجوبة، ص ٣١

٢- مديرا لمشروعات التنمية في صندوق تنمية المجتمع التابع للبنك الدولي بمنطقة النيل الأزرق.

ثم انصرف إلى الكتابة - هوايته المفضلة - والقراءة وتفرغ لها، شارك في كثير من الدوريات والمجلات والجرائد العالمية منها: (١) مجلة العربي. (٢) مجلة الناقد اللندنية. (٣) مجلة الدوحة. (٤) جريدة الدستور اللندنية. (٥) الجزيرة نت (كاتب غير متفرغ) وغيرها.

المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية: له مشاركات عديدة وحضور في مؤتمرات ثقافية عربية وعالمية، من أهمها:

١. مهرجان الجنادرية بالمملكة العربية السعودية .
٢. مهرجان القصة القصيرة الثاني بعمّان.
٣. ورشة كتاب تحت الحرب ببروكسل.
٤. فعالية الفنون بوابة للسياسة في فيينا- النمسا .

كتبه وأعماله الأدبية: الأستاذ بركة ساكن كاتب وروائي ذو إنتاج غزير، تدل عليه أعماله التي ألفها في مدة قصيرة، من أهمها:

- ١- الرجل الخراب
- ٢- على هامش الأرصفة: دار أوراق للنشر القاهرة، (الطبعة الثالثة ٢٠١٢م).
- ٣- ما يتبقى كل ليلة من الليل

- ٤- امرأة من كمبو كديس: مجموعة قصصية طبعتها دار أوراق للنشر بالقاهرة عام ٢٠١٢م، صدرت هذه المجموعة من جانب الحكومة السودانية عام ٢٠٠٥م، ومع ذلك فقد صدرت لها ثلاث طبعات.
- ٥- موسيقى العظام: مجموعة قصصية مطبوعة عن دار أوراق للنشر بالقاهرة عام ٢٠١٢م.
- ٦- زوج امرأة الرصاص وابنته الجميلة: صدرت عن دار رؤية للنشر بالقاهرة جمهورية مصر العربية (الطبعة الثالثة عام ٢٠١٠م).
- ٧- رماد الماء: صدرت عن دار رؤية للنشر والتوزيع بالقاهرة جمهورية مصر العربية (الطبعة الرابعة عام ٢٠١٠م).
- ٨- الطواحين: رواية اهتمت بنشرها وتوزيعها دار رؤية للنشر القاهرة (الطبعة الرابعة ٢٠١٠).
- ٩- مخيلة الخندريس: ومن الذي يخاف عثمان بشري؟.
- ١٠- الجنقو مسامير الأرض: طبع الكتاب عن دار أوراق للنشر بالقاهرة وحصلت هذه الرواية على جائزة الطيب صالح للرواية العربية عام ٢٠٠٩م، ثم صدر بعدها بقليل قرار وزارة الثقافة السودانية بحظر الرواية ومنع تداولها في السودان.
- ١١- مسيح دارفور: مطبوع من قبل دار رؤية للنشر بالقاهرة مصر العربية.
- ١٢- العاشق البدوي: طبع الكتاب عن دار رؤية للنشر بمصر العربية عام ٢٠١٠م.

١٣- غابة سرد: الجزائر عاصمة للثقافة العربية مع آخرين

١٤- مختارات من القصة القصيرة،: أفق أول نادي القصة السوداني ٢٠٠٦م.

أعماله باللغة الفرنسية:

١٥- حواية والضبع: حكاية باللغة الفرنسية طبعت عن دار هرمتان عام ٢٠١٠م

في باريس.

١٦- فارس بلالة: حكاية باللغة الفرنسية نشرتها دار هرمتان بباريس عام

٢٠١٠م.

١٧- مجموعة قصص قصيرة(بالإشتراك): باللغة الفرنسية نشرتها دار هرمتان

بباريس عام ٢٠١٠م.

وجدير بالذكر أنه قد تمت مصادرة كل من:

١. على هامش الأرصفة ٢٠٠٥م (مجموعة قصصية).

٢. الجنقو مسامير الأرض ٢٠٠٩م، وذلك من قبل وزارة الثقافة السودانية وإدارة

المصنفات الفنية والأدبية بالخرطوم.

العضويات: بسبب جهوده في مجال الأدب والفن تشرف بعضوية عدد من المجانع

العلمية والأدبية منها :

١- نادي القصة السوداني.

٢- اتحاد الكتاب السودانيين

تعرضت معظم مؤلفاته للمصادرة والحظر حتى نال لقب الزبون الدائم للرقيب في الأوساط الفنية والعلمية.

أصدر المجلس الاتحادي للمصنفات الفنية والأدبية في الخرطوم بالسودان قرارات الحظر نظرا لما تحتويه رواياته وقصصه من مشاهد جنسية عارمة تصطدم مع أعراف وتقاليد المجتمع السوداني العربي الإسلامي.

لكن عبد العزيز ساكن بركة يرد على هذا الإفتراء قائلاً: "يظن البعض أن في كتابتي ما يسيء لمشروعاتهم الأيدلوجية ويخترق خطاباتهم المستقرة، بالطبع لا أقصد ذلك كلما أفضله هو أنني انحاز لمشروعي الإنساني أي اكتب عن طبقتي أحلامها آلامها وطموحاتها المذبوحة وسكينتها أيضا التي تذبح هي بها الآخر"،

يعد الأستاذ عبد العزيز بركة ساكن من حملة الأقلام الواقعية وقليل مايلجأ إلى الفنتازيا، ومما يعاب عليه استخدام العامية السودانية بكثرة في كتاباته وروياته خصوصا أثناء الحوار بين أبطاله، ولذا لم يحظ بالقبول والانتشار عند قراء العالم العربي من خارج السودان، وعده النقاد ظاهرة سلبية في كتاباته وروياته.

الجوائز:

1- مُنح في عام ١٩٩٣م جائزة بي بي سي للقصة القصيرة على مستوى العالم العربي عن قصته: امرأة من كمبو كديس.

2- جائزة قصص على الهواء التي تنظمها بي بي سي بالتعاون مع مجلة العربي عن قصته: موسيقى العظام وفيزياء اللون.

3- حصل على جائزة الطيب صالح للرواية في دورتها السابعة، وفيما حظيت

أعماله باهتمام القراء والنقاد فكثيرًا ما أعضبت الرقيب.

وفي ٢٠١٣م قرر المعهد العالي الفني بمدينة سالفدن سالسبورج بالنمسا أن

يدرج في مناهجه الدراسية روايته مخيلة الخندريس التي ترجمتها الدكتورة إشراقة

مصطفى عام ٢٠١١م إلى اللغة الألمانية، ولا يزال عطاء الأستاذ بركة ممتدا فهو

من بين الكتاب الذين يمتازون بكثرة الكتابة والبحث في القضايا الدولية وقضايا

المجتمع ويشاركون في المجمع الدولية ويرفعون أصواتهم ضد العنف والكرهية

والتمييز العنصري بفاعلية ويدعون العالم إلى تطبيق السلام والأمن والتعايش

السلمي.

رواية "رماد الماء" لعبد العزيز بركة ساكن

تحليل الرواية

رواية رماد الماء التي كتبها الروائي والقاص السوداني الأستاذ عبد العزيز ساكن بركة عام ٢٠٠٠م، إحدى القُلل الشاهقة في الروايات السودانية، فهي أنشودة طويلة للحياة على أعتاب الموت وهي رثاء مريير على الوحدة الوطنية التي كانت قائمة في السودان ونبوءة عن الانفصال الذي حدث مؤخرا تتبأ به الكاتب الأستاذ عبد العزيز بركة ساكن مبكرا قبل وقوعه بسنين.

هذه الرواية مكتوبة بلغة دقيقة تمتاز بعدم وقوعها متميزة في الاستطرادات الشعرية أو الإطناب في التفاصيل الغير الضرورية كما تظهر علامات انفعال تم صبه مرة واحدة في الكتاب من غير انقطاع، ولذلك تبدو الأحداث للقارئ كشريط سينمائي يتدفق بالتواتر على شاشة التلفاز يبدو كل حرف فيها جزءا أصيلا لا يمكن فصله عن المشاهد ولوحاته المتتابعة. وهذه الرواية تدخل ضمن وصف الدكتور صلاح فضل للأسلوب السينمائي في السرد من غير شك.

يقول الدكتور صلاح فضل شارحاً ذلك: "مفردات الفيلم: وهي اللقطات تزخر في تكوينها بعناصر تقنية وجمالية لا تتضمنها أية مفردات للفنون السابقة عليها، فهي اذن لغة شديدة التركيب إذا قورنت بغيرها من اللغات التي تسمى طبيعية

أوفنية، السينما لغة ثالثة تفيد من كل من اللغة الطبيعية والشعر والتشكيل والموسيقى والطبيعة والفعل الانساني وغيرها، فهي نتيجة لذلك متعددة الأبعاد".^١

يتميز الأسلوب السينمائي السردى بالصفة البصرية الوصفية بغرض نقل القصة إلى صورة واقعية، فالرواية أيضا تحتوي على مجموعة من المشاهد واللقطات والصور المتتالية، حيث قسم المؤلف الرواية إلى عدة لوحات أو مشاهد تشكل وحدات قصصية مختلفة تحولت إلى رواية كاملة، يبلغ عدد هذه الوحدات أربعة عشر وحدة إضافة إلى عناوين الكتاب بحيث تحمل كل وحدة عنوانا مختلفا عن الآخر، عدا الوحدة الأولى والأخيرة فقد رأيناها تحمل نفس العنوان وقد حصل هذا التكرار للوحدتين السادسة والسابعة لضرورة في نفس الكاتب.

ومن فوائد هذا التقسيم أنه يعطي للكاتب فرصة التنقل بسهولة بين الشخصيات والأمكنة مستعيرا بحداقة تقنية المونتاج من فن السينما دون إلتباس المشاهد على القارئ وتتداخلها، ومن دون أن يشعر بالانتقالات المفاجئة للسرد من حالة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر ومن حدث إلى حدث آخر متضارب ويستسلم القارئ لهذه الانتقالات ويستعد عند نهاية كل وحدة للدخول في مكان مختلف عن السابق، والملفت للأنظار حضور الوصف بشدة وغياب اللغة الشعرية حتى في أثناء عمليات التداوي يكتمل في هيئة صور متدفقة من الذاكرة مباشرة.

١ أساليب السرد في الرواية العربية، الدكتور صلاح فضل، ص: ١٨٧، الطبعة الأولى ١٩٩٧ دار سعاد الصباح.

ويؤيده قول الدكتور صلاح فضل: "إن الرواية عندما تعتمد الصيغة السينمائية تتخلص من جميع الشحوم البلاغية العالقة بالخطاب الأدبي لتغدو في رشاقة ممثلات هوليود وهي تقدم أشد الأحداث إثارة للشجن بكلمات قليلة ، ودالة، وبالغة التأثير والقوة".^١

ومن الخصائص البارزة للأسلوب السينمائي هو تقنية الراوي، ففي حقل السرد البصري يكون الراوي بنفسه هو الكاميرا المتحركة، ومع أن السينما تعرف البطل المركزي للفيلم الذي يغلب بحضوره على جميع الحاضرين ويجلب اهتمام المشاهدين، إلا أنها أيضا بدورها لا تستطيع إخراج هؤلاء من حيز دائرة الضوء المرئي، ومن ثم يصبح حضورهم مساويا لوجود البطل المركزي، في رواية "رماد الماء" يقدم هذا المنظور السينمائي فبينما يوجد بطل مهيم هو سلطان تية، وهناك أبطال آخرون لهم وجود متميز وحضور فعال في السرد والرواية كذلك وجودهم مقارب لوجود البطل.

السلم هو جثة الحرب

في المشهد الإفتتاحي للرواية يوجد تجسيد قوي للسرد البصري وحركة الكاميرا مثل الراوي الذي يروي القصة بشكل مبدع أنيق، احتلت الوحدة الأولى التي سماها المؤلف "السلم هو جثة الحرب" ولم يكن يحتاج إلى العنوان، ففي هذا

١ المرجع السابق ص: ١٩٧.

الأسلوب السينمائي تتدفق المشاهد واللقطات بدون عناوين ولا فواصل فكل لقطة تعبر عن موضوعها ودلالاتها.

المشهد الافتتاحي مشهد شديد وقاس تدور فيه الكاميرا بشكل فني محترف في جميع زوايا وأركان الغابة المحترقة وتلتقط صورا لكل ما يحترق وعمود الدخان يتصاعد منه، تبدو الأشجار في المشهد كهياكل محترقة وقذائف الراجمات وقنابل طائرات الأنتينوف المصنوعة في روسيا تركت آثارها على كل ما هو موجود، الأرض سوداء من الإحترق، وآليات الموت تموت هي الأخرى نشاهد جثثا لآليات عسكرية معطلة في استعراض الكاميرا وكذلك إطارات متفرقة وخوذات عساكر متفحمة وبنادق مهشمة ثم يعطي الرواي وصفا حيا لحالة الموجودات التي أصبحت رمادا:

"قطط مشوية، قرده مشوية، صقور مشوية، أرانب مشوية، أسد، كلب، قط، ولد، ولد، ولد، نساء مشويات ينمن قرب جناز الآلة، أشجار مشوية، أحذية عليها بقايا أرجل بترتها الألغام، عسكر اموات، مقابر جماعية، هاونات معطوبة، جندي محترق نصفه الأعلى ، نصفه الأسفل في الخندق، سحلية لا رأس لها، خوذ حديدية بداخلها رؤوس، حراب ودروع من جلد وحيد القرن، نمل شديد السواد منكمش علي نفسه".^١

١ رواية رماد الماء ص، ١٠

هكذا رسم الأستاذ عبد العزيز بركة بكاميرا اليد صورة دقيقة حية مروعة
للمكان وما جرى فيه من الأحداث والوقائع يهتز لها ضمير كل من رزقه الله قلبا
سليما ويرتعش من هول ما جرى ويصاب صاحبه بالغثيان، يصور الكاتب آثار
الحرب على المجتمع البشري ومخلفاته في بيئته من خلال المشهد وتفاصيله
الموجعة ، فكل شئ يحترق ويعاني من الحروب ودمارها الذي لا يعرف الشفقة
والرحمة أبدا ولا شيئا، يستوي فيه القاتل والمقتول، فكلاهما من ضحايا آلات الحرب
البشعة التي لا تتوقف عند حد في حبها للموت والخراب والدمار وتتغنى على
إخراج الدموع وترقص على سفك الدماء، وتجوس الكاميرا أي الراوي في ذلك
المكان لتبرز لقطات أقرب يقول المؤلف: "هيكلان عظيمان يتحاضنان تحت شجرة
ويتساقط الرماد منها عليهما، سلاما، سلاما، كلما عبثت بها ريح لم تمت، هل
تموت الريح؟".^{١٠}

لا تلبث الكاميرا ساكنة في مكان واحد بل تنتقل لأخذ الصور من زاوية
أخرى لتلتقط لقطة جديدة "المبنى الوحيد بالوادي مشيد بالحجارة، المبنى متهدم،
لكنه علامة تدل على أثر انسان، واضح أيضا أنه اتخذ في وقت ما حامية مؤقتة
للجيش، تدل عليهم بقايا أمواتهم، تشير إلى حياتهم الماضية،: "خنادق، فوراغ
القذائف، صفائح الأطعمة الجاهزة، بعضها فارغ، بعضها محترق بما فيه، هياكل
عظمية، خوذاث الحديد بها جماجم ناضجة، بقايا سترات عسكرية، جسد مشنوق

١ رماد الماء ص: ١٠

على شجرة مانجو وهي على شئ من الخضرة، أوراقها مشوهة وبليدة تنمو على أشكال مرعبة".^١

ويتوقف الراوي لمزيد من التأكيد على ما حدث بالمكان من الجرائم والفضائع المروعة ضد الإنسانية عند الجثة التي تم شنقها توقفا يحبس الأنفاس والدم في العروق: "الجثة المشنوقة جسد جاف تماما لم تمسه حتى الأطيوار الجارحة أو الديدان، لشاب في مقتبل العمر، لم تنبت له لحية بعد، ولا شوارب، كان عاريا، علي عنقه تتدلى تميمة كبيرقبيين نابين لنمر أبيض كالبرد، بسهولة يمكن التأكد من ان له عينا واحدة فقط، الأخرى مفقودة".^٢

ويواصل عبد العزيز بركة ساكن تصوير المشهد المروع والمرعب، فيقول: "كانت الريح تدور في المكان، تصر صريرا مرعبا، تعبت برماد الأشياء، تعمي أعين الموتى الفارغة، أعين الدبابات المحترقة، لا أثر للحياة في الأرض، للإنسان، لحيوان، لكنك إذا تطلعت إلى السماء لرأيت من وقت لآخر أسراباً من النسور الصلحاء تدور في حلقات، فاردة أجنحتها تحملها تيارات الهواء حيث ما شاءت".^٣

لا شك أن المشهد الإفتتاحي قوي جدا ومؤثر للغاية، أراد به المؤلف إعلام الناس عن طريق الكلمات بكل ما وقع في ذلك المكان من أهوال الحرب الأهلية وفضائعتها الدامية استمرت لخمسين عاما وهو أحراش جنوب السودان ومدنه وقراه

١ رماد الماء ص: ٧

٢ رماد الماء ص: ٧-٨

٣ نفس المصدر، ص ١١

الصغيرة ولم تتوقف هذه الحروب الداخلية إلا بالانفصال، الكاميرا هنا تقوم مقام العمل السردى وتتوب عنه ثم تقوم بتخزين ذاكرة الحرب والمكان وذكر ماجرى في مناظر تعلق بالذاكرة إلى الأبد.

يكاد المشهد المثير الذي صورته قلم الأستاذ عبد العزيز بركة ساكن عن طريق الكاميرا اليدوية في تسع صفحات من بداية الرواية، يختصر كل ما يريد تعبيره من تاريخ الحزن ويقوم بتجسيد ما حصل بأرض السودان منذ عصور غابرة بصورة يصعب الإجابة على سؤال معناه كيف بات البيت الواحد بيتين بين عشية وضحاها، السؤال الكبير للرواية الذي يطرحه عنوان الرواية ويدل عليه هذا المشهد "كيف صار الماء رمادا؟ كيف احترق الماء وهو غير قابل للاشتعال أصلاً؟ كيف به قد صار رمادا؟!" هذا هو السؤال الرئيسي لرواية رماد الماء وهو في الوقت ذاته السؤال المركزي للرواية.

عندما ننتهي من قراءة هذا المدخل المرهب للرواية نحس بالرغبة في

الإبتعاد عن الصفحات الباقية

خوفاً من كهف الرعب الذي ولجناه وهربنا من فظاعة المناظر التي مررنا بها والتي لاتزال آثارها شاخصة حتى اليوم، حتى ولو كانت تنتظرني كنوز الملك سليمان الثمينة داخل هذا الكهف المرعب المحروس بالجماجم والخفافيش والهيكل العظمية، لما رغبت في الحصول عليها أبداً، فما يدريني أنني سأخرج من هذا الكهف الملعون المسكون بالموت والخراب والأفاعي حياً؟! ما يدريني أنني لن

أدوس على لغم قديم مختبئ أو على قبلة تنتظر ضحيتها بشوق وشبق؟! ما يدريني أن ثمة فخ منصوب في كل شبر منه لمن يريد هتك سره؟".

لكن حسب العادة المتبعة للإنسان منذ عهد أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام بالجنة، أننا نستسلم دائماً للمخاوف النائمة والمخاطر الكامنة في نفوسنا، ونغلب نهمة البحث عن الإجابة للأسئلة فنندفع إلى قلب الكهف غير مهتمين بعواقب الأمور وهذه هي الرسالة الأولى من مقاصد الرواية ورسائلها، وهي تحرير أذهان الناس ورقابهم من العبودية والخوف وتثبيت الحرية، فالحقيقة أبداً غالية الثمن مثل الحرية والكرامة، وعلى من يفتش عنها دفع ذلك الثمن الباهض عن طيب قلب، وإلا فليأسف على جهله وظلمته.

وهكذا ندخل إلى باب العلم والمعرفة من جهة التحرر من العبودية والخوف ومواجهة الحقائق الناصعة مثل تلك الجثة العارية المشنوقة في العراء أمام الملاء، وبهذا نكون ولجنا المخيلة الروائية الجميلة رماد الماء من باب الرعب والهلع، يطرح المشهد الأول علينا السؤال (لماذا حدث ما حدث؟).

مقتل الحارس

الوحدة الثانية للرواية تقع تحت عنوان (مقتل الحارس) وتمتد أحداثها في أربع عشر صفحة وتشرق فيها شخصية سلطان تية المهيمنة على السرد والمشاركة في كثير من الوقائع والأحداث، يرويها من أعماق قلبه هذه ولسانه الذي أصبح كاميرا تصوير لما هو كامن في القلب، إن سلطان تية لا ينتمي لذلك المكان

جغرافيا فهو وافد من جبال النوبة ومسرح الأحداث بجنوب السودان، لكننا نتفاجئ عندما نعلم أن أصول سلطان تية تتحدر من الجنوب، "فهو رجل شجاع ثري جدا من أسرة متجذرة في المال متجذرة في الترحال والمغامرة يكفي أن جده الأكبر تيه تيه أكله دبّ في أحراش التبت"،^١ ونعلم ذلك من خلال حافظة سلطان القوية مثل كاميرا الكوداك الغالية الثمن التي تكون دائما معه، ومثل الصور التي تحمل في طياتها تفاصيل إنسانية غنية.

عرفنا أن أمه تنتمي إلى الجنوب لكن قبيلتها أجبرت على الهجرة منه ومغادرة وطنها تكميلا لمخططات الحكومة المركزية، ثم جرى لها هناك طمس مقصود لهويتها الثقافية والعرقية ودمجهم في ثقافة الأغلبية الحاكمة في الشرق السوداني، فاسمها الحقيقي كان انجودورنا فأصبحت بعد تهجيرها الجبري إلى التومة وأصبحت اليوم تتكر أصولها القبلية الأصلية وهي من قبائل الجنوب تسمى الأنكا.

نجد التومة دائما تتحدث عن أصولها القبلية بلسان المكان التي تسكن فيه وتعتبر عن الثقافة السائدة التي ألحقت بها فهي تعد قبيلة الأنكا أكلة لحوم البشر وتحذر ابنها من شرورهم وشرور نساءهم قائلة: "إذا التصقت بها، بظفرها ثقتك في عدة مواضع، قطعت شريانك في النهاية"،^٢ فهي تصف المسلوب الذي يصف نفسه على لسان من مسخ صورته وشوه هويته، ويتحدث الراوي من أعماق حافظته

١ رماد الماء ص: ١٤

٢ رماد الماء ص: ٢٤-٢٥

عن ذلك ويشرح أسباب التهجير ومبرراته ووسائله، فنتعجب أشد العجب أن هجوم التماسيح المزعومة على أفراد القبيلة كان السبب الرئيس للتهجير والنقل إلى مكان آخر.

يقول الراوي: "تسببت هذه التماسيح قبل عشرين عاما في إبادة قرية بأكملها، حينما زحفت في جماعات جائعة نحو القرية تختطف الأطفال والنساء والشباب أيضا، كان هذا سببا ذكرته الحكومة المركزية في تحليلها لنقل مائة قرية من الدغل الشمالي إلى تخوم المدن الحضرية في الشرق، إلا أن الهدف الأساسي من الترحيل بالتأكيد لم نقله الحكومة، كان سبب الترحيل يتمحور حول مسخ الدغليين، تضييع هويتهم الثقافية والعرقية ودمجهم في ثقافة الأغلبية الحاكمة".^١

إن الأسباب الرسمية التي تذرعت بها الحكومة لتبرير ممارسة التهجير الجبري تبدو مضحكة وعلى أساس غير منطقية، فلا التماسيح تنقلب أسودا جائعة وحيوانات برية خلافا لقوانين الطبيعة ولا هو سبب رئيسي يصلح مبررا للتهجير، واجب الحكومة الأساسي هو حماية المواطنين من الهجمات والإعتداءات الداخلية والخارجية وليس تهجيرهم من موطنهم الأصلي، وإذا لم تنجح فهي حكومة فاشلة في أداء فرائضها وواجباتها تجاه المواطنين.

ويمضي الراوي متقدما نحو الهدف الأصلي للرواية: "بمنطقة الدغل توجد بعض التجمعات البشرية التي قاومت التهجير الحكومي خلال الخمسين سنة

١ رماد الماء ص: ١٣.

الماضية" ١ من هنا صرح ما في قلبه ليصبح كلاما مباشرا عن مشكلة جنوب السودان موجها نحو الحكومة.

ثم يصدر خطأ تاريخي من الراوي ومن بعده المؤلف حين ينسب سياسة المناطق المقفولة للحكومة المركزية بقوله: "أعلنت الحكومة المركزية في الشرق ما أسمته سياسة المنطقة المقفولة، من يدخلها بدون تصريح أو تفويض حكومي يعرض نفسه للجلد والسجن".^٢

فالمعروف عن سياسة المناطق المقفولة أو المفتوحة أنها سياسة فرضتها الحكومات الاستعمارية البريطانية على العالم بما فيها السودان قررت بموجبها منع دخول الشماليين والثقافة الشمالية للجنوب وبالعكس، وذلك لخلق فجوة بين السكان وإبعادهم عما بينهم من الأخاء والمودة وشحن البغضاء والعدواة، وفي السودان كان الهدف هو فصل الشماليين عن الجنوبيين وخلق عصبية دامية، إلى جانب ذلك لم تتبن أي حكومة خطوات وطنية ثابتة للقضاء على هذه الظاهرة الهدامة، ويمكن أن يكون الأمر على عكس ما تصوره المؤلف، فليست هذه الرواية كتابة توثيقية عن تاريخ السودان بل هي مجرد خيال قصصي، وقد تكون الأشياء مختلطة في ذهن شخصية مشوشة الوعي مثل سلطان تية المتكلم بأكثر من لسان بسبب صراع الهويات المتعددة والثقافات المتداخلة في قلبه والاستلاب الذي تعرض له في الماضي.

١ رماد الماء ص: ١٧.

٢ رماد الماء ص: ١٧.

تسيل المشاهد من داخل ذاكرة سلطان تية من غير توقف كما يسيل النهر من مكان غير معروف، نشاهد من خلال تلك الذاكرة حادث الحركة التي قضت على حياة والده الصوفى الملتزم المتدين المحب للحكايات والمرح، سحقت سيارة نقل ثقيلة رأس والدها ودهسته أمام عين ابنه الذى نجا من الحادث ليحتفظ في ذاكرته الأسى والوجع ونهاية والده المروعة، ومن خلال تلك الذاكرة نفسها تخرج صور زملاء طفولته وألعابهم البسيطة المصنوعة من بيئتهم المحلية وأساطيرها "يحملون مسحوق لحم الوطواط، مخلوطا برماد ذيل السحلية وهم يختبئون خلف نباتات العشر، على ضفة خور المقابر الكبير، حيث يقضى الناس حاجاتهم، كانوا ينتظرون نفيسة، الجميلة بنت الأستاذ القادمة حديثا من المدينة الكبيرة، سيضع الأطفال خليط الوطواط والسحلية على بول نفيسة الجميلة حتى لاتستطيع النوم مالم يضاعها أكثرهم حظا".^١

تبدو الحكاية هنا محفوفة بالأساطير الشعبية ومعتقداتها الزائفة التي بلغت من القوة إلى حد مغازلة أحلام المراهقين، يقول: "دائما ما يحلم صديقه حماد بمعاقتها، كان حماد في موقع ليس بالبعيد عنها، عندما قضت حاجتها وغادرت انزلق حماد من تحت العشرة وصب مسحوق السحلية والوطواط على موقع بولها".^٢ ووسط هذه المعتقدات الساذجة إلى جانب كونها معتقدات وثنية نجد معتقدات دينية أخرى تستقر في روح سلطان تية من والده الصوفى فيستعيدها في

١ رماد الماء ص: ١٩.

٢ رماد الماء ص: ١٩.

ريغان شبابه في أرض الجنوب أرض أباءه وأجداده المعروفة بوثنية عقائدها وانتشار الخرافات فيها، "توضاً بماء المطر ثم شرع يصلى العصر، ثم أخرج مسبحته أخذ يردد أسماء الله الحسنى، اعتاد أن يتلو بعض الأوراد التي أخذها عن أبيه الذي يتبع طريقة صوفية لها طقسها الخاص والعميق".^١

شخصية سلطان تية حاملة معه مجموعة من الثقافات والمعتقدات المتصارعة المتعايشة بداخل نفس واحدة وأماكن متعددة، ونفسه خاضعة لمؤثرات خارجية دون اهتمام بالمكان الجغرافي المسمى بالسودان مثل: إذاعة بي بي سي ومنتجات العالم التي دائماً تكون معه كأدوات لازمة في ترحاله وحله يقول: "بعد أن حوط نفسه آمناً من الشرور، أدار مؤشر الراديو الصغير إلى bbc الإذاعة الوحيدة التي يعتبر نشراتها موثقة، ويثق في أخبارها ويراسلها أيضاً. ومسدسه ماركة النجمة دائماً معد لاطلاق النار لكنه لم يستخدمه بعد".^٢

يظهر أن الحصار المفروض على بطل الرواية سلطان تية بالمكان الجغرافي، فسلطان تية أعيد إلى مجتمعه الأصلية عودة مؤقتة، بات محاصراً من جميع الجهات بكل ما يوجد في ذلك المكان من أشجار وزواحف وحيوانات فجميعها أصيلة ومحتفظة بأصلها ولها بقاء في المكان، وهو يرى وحده الرجل الزائف الذي شوهه الوقت والوجود فأصبح حامل ثقافات وافدة على موطنه الأصلي. لذلك كانت حروبه مع الذئب-حارس الغابة- أمراً لا بدياً لا يمكن الفرار منه، اعتمد الذئب فيه

١ رماد الماء ص: ١٨.

٢ رماد الماء ص: ١٨-١٩.

على أسلحته التقليدية وأيادية ذي المخالب الطبيعية فكان هجومه على سلطان تية انتحارا له، لأنه كان هجوم أعزل على رجل مدجج بسلاح فتاك، فكان موت الذئب طبيعية وحتمية، لكن السؤال هل يكون موت الذئب انتصارا لسلطان تية؟!

إن الذئب أيضا يمثّل ثقافة ذلك الغاب إلى كونه جزءا أصيلا منه لا يمكن فصله بأي حال، ولعل أصوله أكثر تماسكا بالمكان من بطل الرواية سلطان تية نفسه، ولذلكلا يمثل موت ذئب واحد تغييبا للمكان وثقافته التي توجد بقوة في المشهد الثالث والتي تتمثل في ثورة أهل المكان على سلطان تية بسبب قتله الذئب. هناك لقطات خاطفة في هذه الوحدة من حياة سلطان تية يظهر فيها صديقه الصادق الكدراوى المغرم بالنساء والأسفار والتنقلات الداخلية والذي حدد هدفا عجيبا وجعله نصب عينيه وهو أن يعاشر من كل قبيلة في بلاده امرأة منها، فهو يعده في نفسه مشروعا قوميا عن طريق هذا الفهم، نلاحظ هنا وجود نزعة إنسانية عامة نحو الوحدة والتلاحق الثقافي بين المكونات الوطنية، فوالدة سلطان تحمل هويتين مختلفتين تعتبر اليوم قنطرة بين ثقافتين محليتين ومكانين متباعدين، ولكنها تشكو من محو قسري تم لهويتها الأصلية واحلال جبري لهوية بديلة محلها.

زميله الوفي الصادق الكدراوى يبحث بطريقته الخاصة حقيقة واقع التعدد العرقي والثقافي في السودان ويحاول جاهدا تجاوز الحدود المرسومة والعراقيل الممتدة بين التكوينات القبلية المختلفة عبر سلاح استغلال العاطفة سلاح الجنس، ولعله بذلك يكون صاحب مشروع خاص ربما يكون امتدادا لمشروع مصطفى

سعيد بطل رواية موسم الهجرة للروائي العالمي الشهير الطيب صالح الذي أراد الانتقام من أوروبا عبر استخدام نفس السلاح ضد نساءها، حتى سلطان تية نفسه هو الآخر مسلوب الهوية بداية من اسمه المكون من مقطعين كل منهما يمثل ثقافة متباينة ومكانا مغايرا بينما أصوله تنتمي إلى مكان ثالث وثقافة أخرى غير التي ترعرع فيها، فلفظ سلطان يدل على الثقافة العربية الإسلامية المهيمنة في السودان في جميع أطرافه، بينما لفظ تية ينتمي إلى ثقافة زنجية أفريقية كانت تنتمي إلى جزء من غرب السودان من حيث الجغرافية يعرف بمناطق جبال النوبة التي تعج بحضارة وثقافة عميقة الجذور ولها أوضاعها الخاصة برغم تلاقحها وتمازجها مع ثقافات محلية أخرى ، وكما نعرف في الرواية يتبين لنا ان أصول سلطان ترجع إلى جنوب السودان وبالأخص قبيلة الكا، وقد تعرض سلطان البطل لعملية تدجين وطمس للهوية، يصورالكاتب صورة مضخمة لشخصية سلطان المسلوب حضاريا كما يلي:

- ١- يعاني سلطانمن جهة الأم من محو هوية أمه الحنونة، وقبولها لذلك المحو والطمس وتتكراها لأصلها لاحقا نتيجة للتدجين المستمر معها.
- ٢- ظهور سلطان تية مع الأشياء التي يستخدمها كاكسسوارات ملازمة له دائماًمثل مسدس وسريرجوال وراديو صغير مفتوح على الإذاعة البريطانية وغيرها، يبدو كأنه في نزهة في بلاد أفريقيا أكثر منه أفريقيا أصيلا يقوم بالتجول في مسقط رأس أمه. وهذا وجه آخر للسلب ومحو الهوية المتعمد.

٣. لم يكتف الراوي بالوصف الخارجي له فيصف سلطان تية من الداخل وصفا دقيقا: "سلطان تية بالذات لاتشك السلطة في عدم ولائه، ولو أنه من جذر دغلي بحت، إلا أنه لايعترف بما يُدعى سريا بالقومية الدغلية، فهو ملكي أكثر من الملك، لذا حصل على تصريح موقع من رأس السلطة مباشرة".^١

فشخصية سلطان رمز كفاح لمن ينكرون أصولهم لمصالح ذاتية محدودة وفضلوا أن يكونوا دمي يحركها رجال السلطة من وراء، سلطان تية لم يعد إلى جذوره في البحث عن الجذور ولا لخوض معركة لتحريرها وتطويرها، بل جاء لإنجاز هدف واحد ذاتي فقط يصفه الراوي بجلاء: "فهو شخص عملي، ولا هدف له الآن غير استكمال الجزء العملي من رسالة الدكتوراة، التي سيقدمها بعد شهرين للمجلس العلمي، إذا قبلت سيتحقق حلم عمره، يصبح محاضرا في الحياة البرية".^٢

إذن فالهدف ذاتي فقط، ومن سخرية الأقدار أن من يتمنى أن يكون محاضرا في الحياة البرية يقتل ذئبا في الغابة بمسدس أثناء بحثه عن المواد العلمية التي تعينه على نيل شهادة الدكتوراة، إن سلطان تية المزود بأسلحة القتل الحديثة يبدو في أحسن صورهِ قَطِ شرس يهجم القادمين من الخارج ويزهجهم.

يصور المشهد الثاني من الرواية وجه الرعب وحالة الخوف والهلع وسيطرة اليأس على سكان جنوب السودان، إضافة إلى الحرب وآلياتها الفتاكة التي عكسها المشهد الأول للرواية مثل: بطل الرواية سلطان تية وأمه التومة المنزوعة الهوية

١ رماد الماء ص: ١٨

٢ رماد الماء ١٥

والقومية الدغلية التي تشير إلى شعب جنوب السودان الذي يعاني صنوفا من الإضطهاد العرقي والثقافي والدينى والتميز العنصرى والتفريق العمد الذى يرفض الإعتراف بثقافتهم وحضارتهم وحضورها القوي، بل ويسعى إلى إخفائها وتدجينها وإحلال ثقافة الأغلبية محلها بالقوة، كأن الراوي يريد أن يقول إن المشهد الأول هو الإبن الحقيقي للمشهد الثانى، وأن المقام الذى احترق الماء فيه، قد مال كاهله بأحماله الثقيلة من المرات فتحول الماء بارودا وغازا ونفطا سريع الإشتعال يحول كل ما تصل إليه يده إلى رماد بعد أن كان بستانا أخضرا وارفاً الظلال.

أهل الكهف

يحتل المشهد الثالث في الكتاب تحت عنوان أهل الكهف ويظهر أفراد قبيلة لا لا حفاة عراة مدججين بالتمائم حاملين معهم أسلحة بسيطة ومعهم فتاة تلبس لباسا من الجينز وصدورها عار، في إشارة واضحة لإختراق الثقافات الوافدة لثقافة المكان ومحاولة طمس معالمهم القبلية ومعهم رجل أبيض سماته كالأوربيينس يزعمهم رجل كهل مدجج بالتمائم يسمى الكواكيرو، يبدو أنهم غاضبون لمقتل الذئب، وأخذوا في تنفيذ رقصة بدائية ثم بدؤا سلخ الذئب على نغمات إيقاعها، ثم بعد هذه الإجراءات تخاطب الفتاة سلطان تية بالانجليزية سائلة إياه من يكون هنا؟ وهذا شكل آخر لعملية طمس الهوية ومحوها، فالفتاة وسلطان تية أبناء هذا المكان المنسلخان من هويتهم يفضلان لغة أجنبية كوسيط للحوار والتكلم، وهذا تجسيد لقمة المأساة في مسألة محو الهوية.

يدافع سلطان تية بقوة عن نفسه تهمة كونه صائد تماسيح، ولكن لاجدوى أمام هولاء ينزعون منه سلاحه ويقررون أنهم سيحبسونه حتى تحل روح الذئب فيه فيصبح ذئبا. وبذلك يكون المكافاة من جنس العمل فهو الذي قتل الذئب فلذا يستحق حلول روح الذئب في نفسه إلى الأبد وبذلك لا يستطيع أن يصبح إنسانا أبدا. ولنعرف أن قبيلة لا لا لهم سجن خاص هو كهف يحبس سلطان فيه، فيستعين على الخوف واليأس الذي حل فيه بما علمه والده الراحل من أدعية وترانيم روحية، بعد ما صادروا أدوات حراسته المادية متمثلة في السلاح الناري والعصى والحراب وغير ذلك من المستلزمات، حينها شرع في الصلاة وقراءة الأوراد التي حفظها عن أبيه، وفي سجنه تبدو منه علامات ثقافته الإسلامية في استعادته لقصة أهل الكهف الواردة في القرآن الكريم.

الفرق بينه وبينهم أنه كان محبوسا في كهف يستطيع سمع أصوات الذئاب الحرة في الخارج وهي تعوى، فيدرك أنه لم يقتل شيئا وأن ما فعله من جهد ضاع وذهب هباءا منثورا وما تعلمه هو أنه في السجن تقييد لحريته وكرامته وكبح لطموحاته. وهذه رسالة خفية منه ذات صلة بموضوع الرواية، فالقتل والعنف والتمييز والتفرقة لن يثمر شيئا ولن يفلح أبدا في طمس معالم المكان وثقافتهم، وهي رسالة مطلقة خلف مقتل الذئب وبقائه طليقا يعوي في المكان، ومآل قاتله محبوسا في كهف مظلم يشبه الكهف الذي نام فيه أصحاب الكهف المذكورون في القرآن الكريم نومتهم الطويلة المعجزة، الفرق بين هذا وذاك أن أصحاب الكهف كانوا دعاة

خير وهداية فكان الكهف نجاة لهم من الظلم والجور، بينما كان سلطان تية وجميع من يستخدم العنف والقتل لتحقيق آماله وغاياته دعاة ظلم وجور فكان الكهف عقابا لهم على مظالمهم التي ارتكبوها وحماية للناس من بغيهم وشرهم.

أورد الكاتب في المشاهد التالية قصة تفيد قدوم عنصر خارجي ممثل في أسرة أجنبية قادمة من القارة الأوروبية لتسكن في تلك الأحرش، مسس ومسترجين، ثم يصور ما يتوجس أهل المكان منهم ومخاوفهم من تجارة الرقيق والتنصير المرتبط بدخولهم المكان والخطرات المحدقة الأخرى من قدومهم، وفي نفس الوقت رغباتهم الشديدة إلى الرقي والتطور ومجئ الصناعات الحديثة والحياة الرفيعة.

لا شك أنه تصوير خلاب وجميل لصلة إفريقيا بالغرب، وهذه المخاوف والوساوس مرجعها إلى تاريخ قاتم أسود للغرب وطلائع أولية لما قام به المستعمرون القدامى من ظلم وهدم وتحسين صورتهم بتقديمهم للشعوب المستعمرة المضطهدة باعتبارهم رسلا للحضارة والإنسانية ودعاة التجديد والتطور، يقول المؤلف مصورا ذلك النظر أعماق أهل المكان: "قبيلة لا لا وزعيمهم الكواكيرو يصور دخول الأجنيان الى المكان ورد فعل شاغليه في البدء كانا ملكين هبطا في غفلة إلى الأرض، عيونهما الخضراء، عربتهما، كل شئ، لكن ما كان يثير القرية ويفتح شهية الكواكيرو شخصا هو الأمل المتمثل فيما يمكن ان يحدثه هذان الشخصان من تطور، لا بد انهما سينشئان بيتا للتعليم وسينشئان بيتا للعلاج وسيعلمان الدغليين طرقا جديدة للحضارة، هولاء البرص اصحاب العيون الخضراء

يفعلون المستحيل، لكن يعلم أهل القرية أيضا أن الابيضين، بيدآن ببناء بيت لعبادة الرب المثلث ثم جند لحماية البيت أو يتاجران بالرقيق، في ذلك الحين سنحرقهما".^١

الغرباء

خصص الكاتب منظر الغرباء لرصد ردود فعل السكان فيصور بمهارة تامة متابعتهم للغرباء في هدوء مطبق والمداولات التي تدور بشأنهم وموقفهم من هؤلاء القادمين الجدد: "لأسبوعين كاملين كانوا يراقبون سلوك الغرباء، أصحاب الحمار الكبير، عندما جاء البناءون وأخذوا في تشييد البيت الكبير، كان المحاربون أيضاً هناك خلف الأشجار يراقبون في صمت، ينقلون ملحوظاتهم في إشارات صغيرة الي بعضهم البعض، اجتمع مجلس المحاربين مرارا وتكرارا متباحثا في شأن الغرباء، هل نجبرهم علي مغادرة الأرض؟ هل نسمح لهم بالبقاء؟ هل نقتلهم؟ هل نسجنهم بالكهف؟ بعد مداولات كثيرة قرر مجلس الكواكيرو امهال الأبرصين زمنا قبل الحكم عليهما".^٢

ثم يجيب عليه قائلاً: "لكن الكواكير ومعظم نوابه يرون أن قدوم الأبرص لا يعني دائما الصيد، الكنائس، الرقيق، الجروب، ربما يعني حياة جديدة متحضرة كالتي في الشرق، أليست من صنع الأبرش المصانع الموصلات الحديثة المزارع الكبيرة، الآلة الحربية، الطعام، الشراب، اللباس؟ أليس كل ذلك من صنع الرجل الأبيض في الشرق، مضى عهد الاستعمار ولا عودة".^٣

١ رماد الماء، ص ٥٦

٢ رماد الماء ص: ٤٥

٣ رماد الماء ص: ٤٥.

الجدور

في هذا المشهد عرفنا منذ مدة أن مستر جين هو أول طفل أنابيب أتى سرا إلى العالم فهو رجل لا أصول له يرجع إليها في الحقيقة أو ليست له عشيرة تحميه من كلام الناس، ونشأ الرجل وترعرع فأصبح عالما متفوقا من علماء الكيمياء الذرية وزوجته ماريانا هي عالمة أيضا تشتغل في مجال تطوير الأسلحة التقليدية وأصيبت بمرض مجهول وأختفى الإثنان في ظروف غامضة ليظهرا بعد في أدغال جنوب السودان وتعلما لغة القبائل المحلية وأصبحا يبشران بإفادية الحياة البدائية، وأصبحا يقدمان نفسيهما كشيء مختلف عن تاريخ وحاضر الرجل الغربي.

ويبين مستر جين أن سبب مجيئه إلى هذا المكان هو أن زوجته أصيبت بالتلوث الكيميائي المشع فاستنجدهم وجاء إليهم، وعندما إلتمسوا منه فتح مدرسة تضمن تعليم أطفالهم وفتح مستشفى يقوم بمداوة مرضاهم رفض الرجل أشد الرفض قائلا: "هذا أسوأ ما يمكن القيام به تجاه أبنائكم، والأجدر أن تحتفظوا بذهبكم وبقركم للمفاخرة بدلا من صرفها في شيء سيعود إليكم بالخراب، كيف ذلك أيها البونا؟ قال: أنتم الآن تعالجون مرضاكم بما لديكم من طرق ورثتموها من اجدادكم وأعشاب تنمو بالدغل بكثرة، أنتم الآن تديرون شؤون الدغل بينكم بأسلوب رفيع وتراض تام..... احذروا الحضارة".¹

١ رماد الماء ص: ٩٢

ثم استطرد قائلاً: "وأخذ يدرسه فائدة عودة الإنسان إلى الحياة البدائية البسيطة، امشوا عراة، كلوا ما يصادفكم من طعام، اشربوا رحيق الأزهار، نوموا أينما هاجمكم النعاس، مالكم واللغة والكلام والطائرات والموت ومالكم والكارثة".^١

وهذا الكلام المناقض يفضح حقيقة هذا العالم الكيميائي وبخالف دعواه، فهو صريح غير مجامل في كذبه، لا يسكن في العراء ولا يمشي دون لباس بل بنى بيتاً للسكنى فيها قبل استقراره، وله سيارة يركبها وهي من منجزات الحضارة ويرتدي ملابس ثمينة ومن ثم يطالب الدغليين أصحاب الأرض برفض الحضارة وهجرها مبرراً بأنها لا تعود عليهم بالنعف، بل يفضحه الكواكبرو عندما يراه يبذر بذرة التمر في الأطفال: "ذات يوم اندس الكواكبرو خلف سياج البسنتا، سمع جين يقول للأطفال "اتركوا أسركم واهربوا، عيشوا هنالك بعيداً في الدغل مع القروود والأطيار الجميلة حيث عسل النحل والكارواو والأناناس، هل تجلبون الحطب لأمهاتكم؟ هل تجلبون الماء من الآبار البعيدة؟ هل تحفرون الأرض الصلبة لاستخراج حبر الزينة؟ هل يرسلكم الكواكبرو بعيداً لتلقي العلم بعيداً؟ لماذا لاتتطلقوا أحراراً كالغزلان كالنمور كالأطيار، لامسئوليات ، لاشقاء؟". عندها صاح الكواكبرو: "أيها الأبرص العريان، أنت عدو الدغل الأول، عدو المستقبل".^٢

وهكذا نشاهد بداية الصراع بين الوافد المستعمر الذي يستغل ثروات البلاد وينهبها والمواطن الساذج الذي لا يعلم عن حقيقة ثروات بلاده وقيمتها، فالوافد

^١ نفس المصدر، ص ٩٤

^٢ نفس المصدر، ص ٩٥

يركز على تحقيق أهدافه في المستقبل، يغير جلده وأسلوبه ولغته وأنماط حياته وطرق عمله، ففي السابق كان يحل مستعمرا بجيشه فإنه الآن يتسلل إلى البلدان الفقيرة تحت غطاء العمل الخيري وغير ذلك، ويتعلم لغات الناس ويحاول كسب حبهم وثقتهم، وبدلاً من تحميل السفن بالرقيق الذي كان يقتنصه من الغابات والجبال، يبدأ رحلة قنص الأرواح بدلاً من قنص الرقاب والأجساد.

إنه بدأ يفرغ سمومه في أرواح أبناء المستقبل ويشدهم إليه بخيوط حريرية بدلاً من سلاسل حديدية ويجعلهم رقيقاً من صنف آخر، عبيداً تم الاستيلاء التام على عقولهم وأرواحهم وتم مسخهم وتشفيرهم وكذلك تم إخضاعهم لعمليات غسل ذاكرة وذهن واسعة النطاق، حتى لم يبق منهم إلا أصبح الهيكل العظمي والجلد الذي يكسوه، أما الروح فهو تابع لهم ماضٍ فيه حكمهم، لذلك تتسارع الأحداث في الفصول الأخيرة لهذه الرواية نحو النهاية الحتمية لهذه العمليات الواسعة التي وقعت، يرجع الأولاد الذين راهنت عليهم القيادات المحلية التقليدية مثل الكواكيرو، ولم تدخر وسعاً على تعليمهم وتثقيفهم في الخارج، ليكونوا لهم بمثابة المنقذ والمخرج من الظلمة والقهر، رجعوا وليتهم مارجعوا، فقد عادوا حاملين معهم روحاً غريبة غير التي ذهبوا بها، غرباء في المظهر، ليفتكوا بالمكان وسكانه بدلاً من تطويره، يصف الكاتب ذلك التطور كما يلي: "حضر بابو الغريب، بابو ابن نادية ابنة الكواكيرو الكبرى، حضر ذات عصر ممطر يقود عربة جيب ٩٩ ذات لون أحمر، أوقف العربة تحت شجرة جوغان ضخمة وأخذ يستعمل آلة التثبيته بصورة

شاذة جعلت القرية كلها تهرع إليه، عندها نزل الأرض، يرتدى بدلة اسموكن بيجية وربطة عنق بها ألوان كثيرة، ووجهه ناعم وبه رقة أنثوية تعلن عن نفسها، له حقيبة صغيرة تحتوى على جواز سفر وبعض العملات الأجنبية وله جهاز اتصال إرسال واستقبال يعمل بواسطة الأقمار الصناعية".^١

وحينئذ نعلم أن الولد حصل على تدريب عسكري في كلية عسكرية أجنبية وهو الآن ترقى إلى رتبة الجنرال وأنه هو ورفاقه قادم للمكان ليشعلوا حربا سموها حرب التحرير، والعجيب أنه ليس في ترجيحاتهم قضايا أخرى مثل التعليم والعلاج وغيرها مما يتمنى بها سكان المكان منذ أمد بعيد ويحلم بها أهلهم.

عند ذلك يصاب الكواكيرو بالخيبة والكآبة ويشعر بالمرارة وفقدان الأمل ويسيطر عليه اليأس، ولا ينتبه أحد إليه وإلى أفكاره المناهضة للحرب وتبدو سلطته الروحية منهارة تماما تجاه القادمين الجدد بسندهم ودعمهم الخارجي، تبدد أمام آليات حربهم وأحلامهم بالثروة والثراء والسلطة، وتشتعل الحرب بين أهل المكان ومحاربيه التقليديين في النهاية بقيادة الكواكيرو وبين القادمين الجدد على صهوة الدبابات وعربات الجيب، فينهزم الكواكيرو وينتصر القادمون الجدد الذين يزجون بالناس لحروب طويلة الأمد.

تنتهى الرواية بالعودة إلى الوراء فيصبح المشهد الأول الإفتتاحي السلم هو جثة الحرب مشهدا ختاميا للرواية، كأن الكاتب يريد أن يقول: إن إرادة الشر

١ رماد الماء ص: ١٨٧ - ١٨٨

قد انتصرت وإن الانفصال أصبح واقعاً لا محالة، وقد كان ما رآه الكاتب سراباً بعيداً
قد أصبحت حقيقة موجعة فرضت نفسها فأصبح الوطن الواحد وطنين.

الرواية مملوءة بالأساطير والخرافات وكذلك بالمكونات المحلية التي تشكل
بانوراما المكان وسطوته على فضاء الرواية مثلما هي تمتلئ بكل أنواع الأشجار
والحيوانات ذات الصلة بالمكان.

إن رواية "رماد الماء" أثر أدبي شامخ ومميز، وهي تعكس وجهها من وجوه
الثقافة السودانية البارزة وهو تعدد وتداخل الهويات الثقافية في الداخل والصراعات
الدائمة في ما بينهم وتداخلها الطوعي والقسري، وآثارها المدمرة على مجمل حياة
الشعب السوداني وهي بذلك حفرة عميقة على جدار الثقافة السودانية وجذورها
تحتاج إلى هذه الثقافة الآخذة في التشكل، ويحتاجه كل من يريد أن يعرف ملامح
المجتمع السوداني والثقافة السودانية من الداخل.

الفصل الرابع

دراسة تحليلية لرواية "صائد اليرقات" لأمير تاج السر

نبذة عن الكاتب

إنه طبيب وروائي سوداني تخرج في كلية الطب جامعة طنطا بمصر ونالت أعماله اهتماما بالغا في المجامع الأدبية والنقدية، كما ترجمت معظم أعماله إلى الكثير من اللغات الحية منها الإنكليزية والفرنسية والإيطالية وحقت شهرة عالمية، رشحت روايته "صائد اليرقات" للقائمة القصيرة لجائزة بoker العربية عام ٢٠١١م.

بدأ حياته الأدبية شاعرا وله ديوان بعنوان "أحزان كبيرة"، ثم انتقل من عالم الشعر وتجاربه إلى الروايات، فكانت باكورة أعماله الروائية "كرمكول".

مولده ونشأته: ولد الطبيب الأديب الأستاذ أمير تاج السر عام ١٩٦٠م بشمال السودان، وأكمل مدرسته الابتدائية هناك، والتحق بكلية الطب جامعة طنطا مصر عام ١٩٨٠م وتخرج فيها عام ١٩٨٧م.

مسيرته الأدبية: زاول أمير تاج السر الكتابة الأدبية الإبداعية في مرحلة مبكرة من حياته، ففي المرحلة الأولى كان يحرق القصص البوليسية وذلك تقليداً لما كان يقرؤه في طفولته، وبدأ يقرض الشعر بالعامية في المرحلة المتوسطة وداوم عليه أيام طلبه للطب في مصر، وغنى المطربون بالكثير من أشعاره، وأصدر دواوين شعر

^١The Mature Arabic Novel Outside Egypt, Roger Allen, p.211

بالعامية السودانية، وبالتحديد في عام ١٩٨٥م انتقل إلى قرض الشعر باللغة الفصحى وحظيت قصائده بالنشر في مجلات عالمية مرموقة مثل "الشرق الأوسط" و"القاهرة" و"المجلة" وغيرها.

وفي عام ١٩٩٧م صدرت أعماله الروائية بإسم "كرمكول" التي كلفته رهن ساعته ليتمكن من طباعتها، أحدثت هذه الرواية الصغيرة الجديدة أصداء كبيرة في مدينة القاهرة وشجعتة على مواصلة المسيرة الروائية، لكنه انقطع لسنوات عديدة بعد ممارسته مهنة الطب التي تخرج فيها، حتى ساعدته الأقدار في عام ١٩٩٣م للعمل في مدينة الدوحة.

ثم بدأ مسيرته الأدبية من جديد بعد انقطاع امتد عشر سنوات فكتب روايته الثانية في عام ١٩٩٦ "سما بلون الياقوت"، إستوحى ملامحها من بيئة السودان الشمالي، ثم أعقبها برواية "نار الزغاريد" ثم "مرايا ساحلية" التي أحدثت نقلة جديدة في تجربته الروائية.

ثم توالى أعماله الروائية فظهرت "سيرة الوجد" التي نشرتها جريدة الوطن القطرية في حلقات، وهي عبارة عن ذكريات متنوعة من البلدة البعيدة التي كان يعمل بها "طوكر"، ثم كتب "صيد الحضرمية" و"عيون المهاجر".

أما البداية الحقيقية للكاتب والتي تمثل مرحلة الإنطلاق والانتشار الواسع النطاق، كانت في عام ٢٠٠٢م عندما كتب أمير تاج السر روايته الأكثر شهرة "مهر الصياح" و هي رواية ذات طابع تاريخي ضخمة الحجم، جاءت بعدها رواية

"زحف النمل" التي انتشرت بصورة مذهلة، وصادف صدورها افتتاح معرض القاهرة للكتاب، فسجلت حينها أعلى مبيعات وانتشرت بسرعة فائقة، وبعد ذلك تواصلت تجاربه الروائية مرورا بتوترات القبطي والعطر الفرنسي، وصولا إلى صائد اليرقات وإيولا ٧٦ وأرض السودان، ولايزال عطاؤه مستمرا.

بعض أعماله المطبوعة:

١ - مهر الصياح: لخص فيها المؤلف فكرة جامعة عن الثقافات المتنوعة التي استوطنت أرض السودان، وأصبحت جزءا أصيلا من تاريخها وحضارتها، وخص بالذكر منطقة دارفور وتاريخها في القرن الثامن عشر، وذلك من خلال شخصية متميزة وهي ابن صانع الطبول الفقير "آدم نظر"، الراكضة بالحياة والغنية بالطموحات والمليئة بالأسرار، تتشابك حياته مع الشخصيات الأخرى داخل إطار مركب، يحتوي ضروبا من الواقع والخيال والأوهام، ليعطي القارئ رسالة ورموزا يشجع القارئ على متابعة التفاصيل والصبر لمعرفة المصير الذي سينتهي إليه بطل الرواية، وصرح المؤلف أن فكرة الكتاب مستوحاة من كتاب "رحالة عربي قام برحلة إلى بلاد السودان في القرن السابع عشر"، صدرت عام ٢٠٠٤م وعام ٢٠٠٩م.

٢- زحف النمل: في هذه الرواية يتلاقى السرد والشعر حيث تجيء أغنيات المطرب كفاصلة ساخرة بين عباراتالسرد وترجع خفة الأغنيات إلى ما يحدث في عالم الغناء. وأن أهم ما أنجزته "زحف النمل" هو متعة القراءة وهذه هي الوظيفة المهمة للكتابة المتميزة،و إنها طبعت عام ٢٠٠٨م.

٣- توترات القبطي: طبعت عن دار ثقافة للنشر بأبو ظبي بالإشتراك مع
الدار العربية للعلوم ببيروت لبنان عام ٢٠٠٩م، وهذه الرواية أيضا مستوحاة من
أعماق التاريخ.

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة السور حول ثورة دينية تهدف القضاء
على الإستعمار الغاشم وتطهير البلاد من الشر والفساد، وجد ميخائيل القبطي نفسه
داخل هذه الثورة بعد أن انقضت على المدينة التي كان يعمل بها بصفته محاسبا
وجامعا للثروة، ليجد نفسه وحيدا يفقد أهله وخطيبته خميلة عندما تم غزو المدينة،
يتغير اسمه إلى سعد المبروك ويجبر على الطباخة في إحدى الكنائس رغم كونه
لا يجيدها لعدم معرفته بالطبخ وضوابطه.

ثم يصدر قرارا بتعيينه تابعا لقائد الكتيبة حيث ينشأ جدال بينه وبين القائد
حول خطيبته خميلة التي أصبح القائد مغرما بها ويغشاها في أحد منازل مدينة
السور الغارقة في الفساد والفوضى، وبرغم إعتناق القبطي الدين الإسلامي، إلا أنه
لا يبدو مؤمنا بتعاليم الثورة، وكان دائما غارقا في تذكارات الماضي وحبيبته الضائعة
وجهود مضمّنة للعثور عليها في كوابيس القائد الذي يقيم ملاصقا لخيمته في
معسكر الكتيبة.

٤- العطر الفرنسي: ظهرت عام ٢٠١٠م، هذه الرواية تحكي عن نجمة
فرنسية وصلت إلى حي "غائب" الشعبي للإقامة هناك في إحدى المدن السودانية
البعيدة، لإعداد بحث علمي، "علي جرجار" بطل الرواية يلتقط الخبر، ويسرع نقله

إلى الأحياء الأخرى بعد ما يزيد عليه الكثير من المحسنات اللفظية ليجعل منه
خبرا مشوقا يتسارع الناس في إذاعته.

تحدث أثناء الإنتظار تطورات كثيرة غير متوقعة منها سقوط "علي جرجار"
في حب تلك الضيفة، يدفع ذلك الحب الخيالي والوهمي جرجار إلى أن يتخلي عن
ممارساته القديمة، وأن يبني شخصية جيدة مختلفة ويكون مستعدا للزواج من تلك
الفرنسية بعد أن تخيل أن الضيفة الفرنسية سوف تقع في حبه يوما ما.

٥- صائد اليرقات: طبعت عن دار ثقافة للنشر بأبوظبي بالتعاون مع دار
الإختلاف بالجزائر، تروي هذه الرواية قصة عبد الله حرفش الملقب بعبد الله فرفار رجل
الأمن المتقاعد بعد أن انكسرت ساقه اليمنى إثر حادث مريع أثناء مزاوله عمله، وقرر
أن يكون كاتباً روائياً بعد أن قرأ في كثير من الصحف والمجلات عن شخصيات لا
صلة لهم بالكتابة أصبحوا كتاباً، تغوص هذه الرواية في وسط عالم الكتابة الأدبية
والمثقفين، وكتبت بلغة موحية وساخرة وعدت من أفضل الروايات العربية.

٦- إيبولا ٧٦: نشرت عام ٢٠١٢م عن دار الساقى بلندن، يشب لويس نوا
وهو بطل الرواية والشاب الذي يعمل في معمل للنسيج، يقرر الزواج بأول فتاة
تراهفتبسم له، وبطلة تينا بائعة الماء والتي ستصبح زوجته في ما بعد، لكن العامل
البسيط يخونها مع خادمة في منزل للفقراء في كينشاسا. ويلحق "إيبولا" الفيروس
القاتل جسد لويس نوا ليسكن في دمه، يرجع بعدها الفتى الأفريقي إلى بلاده بعد
رحلة محزنة إلى الكونغو.

يرصد أمير تاج السر عبر فكرة القتل المحتمل عوالم غريبة في محاولة منه إيجاد مدينة عادية، توجد فيها شوارع ومتاجر، وتنتشر فيها الملاهي والمواخير، وتكثر فيها الزيجات والطلاق وقصص حب كاملة وناقصة.

٧- أرض السودان.. الحلو والمر: صدرت عن الدار العربية للعلوم بيروت لبنان في عام ٢٠١٢م، تدور أحداث هذه الرواية في فلك ثمانينيات القرن التاسع عشر للميلاد، وتصور رحلة قام بها شاب إنجليزي يدعى جلبرت أوسمان إلى أرض السودان بعد أن جرت بينه وبين صديق له مشادة في إحدى السهرات، فعارضه بقبول التحدي وبدأ يتعلم اللغة العربية عند أحد الإنجليز الذين عملوا من قبل في أرض السودان، ثم سافر إلى أرض السودان عبر البواخر والقوافل حتى وصل إلى الخرطوم عاصمة أرض السودان.

تتكلم الرواية عن إحتكاك أوسمان في المجتمع السوداني، وتحركه في بيئة تستعمرها بريطانيا، واتصاله بسكانها المحليين، كما تتعرض لكثير من العادات السودانية وطقوسهم وتقاليدهم العريقة، ويمكن القول بأنها من الروايات التي تهتم باحتكاك الشرق بالغرب وبالعكس وردة الفعل في كل جانب، ففي غضون عام واحد اندمج أوسمان مع المجتمع السوداني وصار يرتدي الثياب المحلية الفضفاضة، وتعرض لكثير من المغامرات والتجارب التي مر بها ذلك الشاب الإنجليزي.

٨ - اشتهاء.

٩ - تعاطف.

١٠ - رعشات الجنوب.

١١ - سماء بلون الياقوت: عام ١٩٩٦م.

١٢ - نار الزغاريد: عام ١٩٩٨م وعام ٢٠٠٠م.

١٣ - صيد الحضرمية: عام ٢٠٠١م وعام ٢٠٠٢م.

١٤ - عواء المهاجر: عام ٢٠٠١م.

في فن السيرة:

١٥ - مرايا ساحلية: عام ٢٠٠٠م وعام ٢٠٠٣م.

١٦ - سيرة الوجع: عام ٢٠٠٢م.

ديوان شعر:

١٧ - أحزان كبيرة: عام ٢٠٠٥م.

صائد اليرقات

ملخص الرواية

"صائد اليرقات" رواية للكاتب البارز والأديب السوداني العالمي أمير تاج السر، ركز فيها على الحالة المزرية للفن الروائي العربي وما يتعرض له من تشويه من قبل مجموعة من الروائيين الذين يمتنون الكتابة الأدبية ويتخذونها وسيلة للكسب والظهور من غير تقديم شئ جديد يضيف في رصيد القارئ أو المكتبة العربية مستغلين وسائل الإعلام وطرق الدعاية المختلفة، ونقد حاد للواقع المؤسف جدا في عالم الرواية العربية مسيرتها النيرة.

تبدأ الرواية بـ"عبد الله حرفش" الضابط الأمني الذي تعجبه فكرة الكتابة الأدبية بعد التقاعد ويريد الدخول في عالم الرواية ولا بد لها من فكرة وحبكة يقوم عليها بناء الرواية، فيقرر الجلوس في مقهى قصر الجميز أقدم مقاهي بلده وأكثرها ضجيجاً وازدحاماً واستقطاباً للوجوه المشبوهة بحسب تجاربه في مهنته السابقة، وفي هذا المقهى المزدحم يحاول بطل الرواية عن طريق البحث في عيون الناس وعن تصفح وجوههم لمهمته الجديدة وهي الكتابة الروائية.

يقول الأستاذ أمير تاج السر حاكيا على لسان بطل الرواية: "كانت في الواقع وجوهاً لكتاب يحتلون مواقع لامعة في الكتابة، وآخرين يقاتلون بحثاً عن مواقع تبدو لهم بعيدة المنال: شعراء متأنقين في سراويل وقمصان زاهية، وشعراء حفاة حتى من صنادل ممزقة، صحفيين يائسين، وسياسيين يدخنون ويرطنون

ويتصارعون، ويرسمون للناس وطناً آخر غير الوطن الذي نعيش فيه ونعرفه، ونحبّه بكل حسناته وعيوبه. ودائماً ثمة نساء يتحلّقن حول الضجيج، أو يساهمن في خلقه بضحكات كثيراً ما رسمناها على تقاريرنا الأمنية باعتبارها ضحكات أفاعٍ. " منازل عديد ومواقف ساخرة وقف عندها الكاتب أمير تاج السر ليروي لنا واقعاً مؤلماً أحزنه وأهمه، فحاول إبرازه عن طريق روايته الجديدة ليكشف عن مآسٍ عديدة في مجتمع إنساني يفيض بالتناقض، فينتقده متهمكاً في عبارات عفوية هادئة، تكشف في كل عبارة واقعاً جديداً تخبئ في سطورهِ حقيقة ما لم ينتبه لها الكثير من أمثاله.

حاول الكاتب أمير كاتب السر من خلال روايته "صائد اليرقات" إبراز قضية هامة على الساحة الأدبية، وهي تشويه الثقافة من خلال الحروف والكلمات وعدم إكتراث الأدباء بتقديم شيء نافع جديد هادف يخدم مصالح الأمة العربية بوجه خاص والمجتمع الإنساني بوجه عام وكذلك تعرض غلبة المادة والمادية وعدم فصوح الهوية وغياب الهدف النبيل وانحطاط الفكر وانتشار الرزيلة في الكتابات الأدبية، وتكشف سطحية العقل العربي آسفاً من خلال حبكة روائية فريدة.

تحليل الرواية:

تحتل رواية "صائد اليرقات" الدرجة العاشرة من بين أعمال الأستاذ الطبيب أمير تاج السر، ومن الواضح أننا نتكلم عن مسيرتها الأدبية الطويلة التي تبدأ منذ

أكثر من عشرين عاما حينما صدرت روايته الأولى وهي "كرمكول" عام ١٩٨٨م وتواصلت هذه المسيرة حتى بلغت إلى هذه الرواية العاشرة.

هذه الرواية تنبهنا إلى خطر آخر من الأخطار يحدق بالعالم العربي، ولكن بشكل أكثر مراوغة ومكرا، فبالإضافة إلى خطر سيطرة الحقيقة المطلقة وما أعقبه على الواقع من خراب في "توترات القبطي" أو وهم الهيمنة على الغرب والوقوع في شرك غوايته في "العطر الفرنسي"، وها هي روايته الجديدة تشعرنا في هذه المرة إلى خطر آخر من الأخطار يداهم العالم العربي، وتشارك في تدهوره، وهو الخطر الأمني الذي أصبح وسيلة المؤسسات العربية التي لا تتمتع بالمصداقية والشرعية معاليسط قبضتها على الواقع، فالأمن في العالم العربي لا يبالي بحراسة الوطن أو حمايته من دسائس الأعداء الداخلية والخارجية، بقدر ما يهتم بمراقبة عقولها الإبداعية والنقدية الواعية المستتيرة حتى يكتم فمه ولسانه فتبقى البلاد جسدا بلا عقل يحميه ونهمة سهلة لمن رام دخوله.

عنوان تناقضي يفتح به هذا الكتاب لأن الصائد يصطاد الفراشات عادة وليس اليرقات، فغرابة العنوان تجذب القارئ وتلفت أنظاره، ولماذا يصيد الصائد اليرقات؟ وقد يتعجب القارئ عندما نعرف أن البطل من رجال الأمن عليه إقتناص الفراشات وهي يرقات لم تتشرنق بعد، وأن يجهز على الزهور قبل أن تتفتح للحياة، وعليه أن يزرع خوف الموت في قلوب نابضة بالحياة، فهذه هي مهمة ووظيفة الأمن الداخلي في البلاد، لكن سيزداد القارئ تعجبا حين ما يجد أنه -

وهذا شطر من سحر هذه الرواية وتناقضها، قد جهز على يرقته قبل أن تتحول إلى فراشة، فهذا نص ظاهر ونشط يقتنص القارئ لأول وهلة ويستأثر به، والنص المحجوب أو السطور المخفية المراوغة تبعث للقارئ بإشارات ضعيفة تكاد أن تكون غير ملحوظة.

وعندما ندخل العتبة الثانية وهي الإهداء إلى فيصل تاج السر وأساطيره وعوالمه الملونة حتى نلمس بأن الرواية تريد ربط عوالمها الملونة بالواقع المحسوس، وأنها توحى بأنها مستوحاة من عوالم واقعية لا يوجد فيها خيال.

أما العتبة الثالثة وهي المقتطف الافتتاحي: "فإن شئت أن تسأل صورتك في ليلة دافئة بعينين غامضتين، والسؤال على الشفتين فلاتبحث عن ذاتك في المرأة: إنه حوار مخنوق لاتسمع منه شيئاً، بل انزل إلى الشارع في بظء وابحث عن ذاتك بين الآخرين، هنا تجد الجميع وأنت بينهم".^١

هذا المقطع الاستهلالي الذي لا ينسبه المؤلف إلى أي كاتب محدد، وإنما يعنونه باسم "مقطع أسباني" يثبت التناقض الذي طرحه العنوان ويؤكد عليه، عندما يؤكد أن السؤال عن الذات لا يوجد جواب عنه إلا في البحث عند الآخرين، يتجاوز هذا الافتتاح الأسباني تبسيطات الأنا والآخر المعروفة، لي طرح هذا الأنا كجزء أساسي من نحن: "هناك تجد الجميع وأنت بينهم" حيث يغلب التصور الجمعي للفرد كجزء لا ينقسم عن الجماعة وهو الأصل في المجتمع السوداني، "فتماهي

^١ صائد اليرقات ص: ٧.

الفرد في الجماعة وتماهي الجماعة في الفرد"، من الثيمات السائدة في كثير من أعمال أمير تاج السر السردية.

بعد هذه العتبات ندخل إلى صميم الرواية التي يبدأ فصلها الأول: "سأكتب رواية، نعم سأكتب رواية"، ويختتم فصلها الأخير الفصل العشرون، بـ"كان قد فتح المغلف الأبيض". "أخرج مجموعة من الأوراق البيضاء مكتوبة بخط أسود أنيق.. واستطعت وأنا على حافة الانهيار أن ألمح على الصفحة الأولى: صائد اليرقات: رواية".^١

وعندما نصل إلى تلك النهاية يتضح لنا أن تناقض العتبات كان مفتاحيا، لأن من يبدأ السرد بهذا اليقين المكرر والمؤكد: "سأكتب رواية، نعم سأكتب رواية" فانتهى الأمر به مكتوبا وليس كاتباً، ولذلك استطاع المكتوب أن يقرأ وهو "على حافة الانهيار". تبدأ الرواية بسرد بطلها المعروف بتناقضه وتضاربه الذي يظن أنه الراوي المسيطر على القصة كرجال الأمن، فنكتشف أنه تحول إلى موضوع السرد وليس قاصا للرواية، هذه الإشكالية المتناقضة تدوم في الرواية كلها هي التي تمدها بالدلالات وتعدد مستويات القراءة والتأويل.

تبدأ الرواية بهذا الراوي الغالب على روايته، ويتكلم دائما بضمير المتكلم ويردد بيقين: "أنا عبدالله خرفش أو عبدالله فرفار" لنجد أننا أمام راو يحمل اسمين لا اسما واحدا على عكس الكثير من أبطال الرواية، بل إننا إذا زدنا "أنا" إلى الإسمين، نجد أنه

^١ صائد اليرقات ص: ١٤٨.

يكرر اسمه ثلاث مرات للتأكيد: "أنا عبدالله حرفش، عبدالله فرفار" وهو تكرر يرسخ بطريقة الرواية التناقضية، فالرواية تبدأ أساسا من عملية شطب ومحو، عندما تتخذ إدارة الأمن قرارا بإلغاء خدمات عبدالله حرفش وإحالاته للتقاعد بعد فقدانه ساقه في عملية أمنية عجيبة مضحكة. فأراد أن يقاوم هذا المحو والتهميش بالإثبات، وهو إثبات تناقضي بامتياز، لأنه عندما يريد إثبات شخصيته التي ألغتها المؤسسة الأمنية التي قضى دهرها في خدمتها، وتركته وحيدا عندها يقرر كتابة رواية، وهو أمر مستغرب له قبل أن يستغربه الآخرون، فهو موظف حكومي في إدارة الأمن والتحقيق بحث ليس له حظ من قراءة الكتب فضلا عن الرواية، وكل علاقته بالثقافة هو أنه قام بتعاقب بعض المثقفين الملاحقين من أجهزة الأمن أثناء تردهم على المكتبات لشراء الكتب والمجلات الثقافية، أو تنصت عليهم في المقاهي والمطاعم التي يقصدونها للحديث في شؤونهم الثقافية وشؤون البلاد وغيرها.

لكنه عندما قرأ خبرا في إحدى الصحف يفيد عن بائع ورد بنغالي في مدينة نيس الفرنسية دون رواية عن امرأة أفريقية ظلت عشرين عاما تتردد على دكانه وتشتري ورودا حمراء، وظن أنها تبعث تلك الورد إلى حبيبها الضائع في إحدى حروب القارة الأفريقية المدمرة، حققت الرواية نجاحا مدهشا وسجلت على قائمة الكتب الأكثر مبيعا.

كما قرأ عن "بائعة هوى تائبة في سايجون، كتبت روايتين رائعتين عن حياتها القديمة حين كانت نكرة في زقاق مظلم، والجديدة حين أنشأت مصنعا صغيرا لحلوى النعناع، والآن تترجمان إلى كل اللغات، وينبهر بهما القراء"^١ يظن عبد الله حرفش أو عبد الله فرفار أنه بإستطاعته أن يكتب رواية تسجل رقما قياسيا، وعندها تبدأ رحلة عبدالله حرفش للبحث عن أبطال روايته كي يكتبها، أخيرا يكتشف فيه عبدالله فرفار أنه ليس باستطاعة عبدالله حرفش أن يكتب رواية بحق، فكل ما يستطيع تدوينه هي صياغة التقارير الأمنية الركيكة التي أنفق حياته في تدوينها وكتابتها، قبل الحادثة المضحكة الأخيرة، والتي فاجأتهم فيها سيارة الأمنالأخرى من جهاز أمني، فسيارتهم قد انقلبت، فمات سائقها وأصيب زميله ع. ب بالشلل، وفقد هو ساقه اليمنى التي بترت في المستشفى العسكري بسبب الغرغرينا.

وجد عبدالله فرفار نفسه في حالة جديدة، ويبدأ يبحث عن سبل كتابة روايته وكيف تكون رحلته في عالم الرواية، فهو ليس دون بائع الورد البنغالي. تستهل رحلة عبد الله فرفار بمقهى قصر الجميز المكان المفضل للكتاب والمتقنين، يصف لنا عبدالله فرفار المقهى قائلا: "اقتربت من مقهى "قصر الجميز" أقدم مقاهي العاصمة، وأكثرها ضجيجا وزحاما، وعرضا للوجوه المشبوهة في نظرننا، ونظر تقاريرنا اليومية التي كنا نكتبها بمتعة غريبة. كانت في الواقع وجوها

١ صائد اليرقات: ٩.

لكتاب يحتلون مواقع لامعة في الكتابة، وآخرين يقاتلون بحثا عن مواقع تبدو لهم بعيدة المنال: شعراء متأنقون في سراويل وقمصان زاهية، وشعراء حفاة حتى من صنادل ممزقة، صحفيين يائسين، وسياسيين يدخنون ويرطنون ويتصارعون، ويرسمون للناس وطنا غير الوطن الذي نعيش فيه ونعرفه، ونحبه بكل حسناته وعيوبه. ودائما ثمة نساء يتحلقن حول الضجيج. أو يساهمن في خلقه بضحكات كثيرا ما رسمناها على تقاريرنا الأمنية باعتبارها ضحكات أفاع^١.

وجد أنفسنا أمام رواية تتخذ التناقض مدخلا لفحص الواقع، فإنها تزج ببطلها إلى أعشاش الزنابير دون إنتباه منه، حتى عندما يشرع في رحلته الروائية محاولا استرجاع ذكرى زيارته الأولى لهذا المقهى حينما دخله في بدء حياته المهنية "شابا وخشنا ومدريا على استخراج خامات التآمر حتى من نسيمات الهواء وأجنحة الذباب وابتسامات الشفاة حين تبتسم"^٢.

لكنه في هذه المرة يدخله بلا تدريب سابق أو تعليمات صارمة، وقد تغير المقهى كما تبدل الزمن نفسه: "لم أعر على أحد من جرسوناته القدامى أمثال عنتر والشفيح ورامبو السريع، أولئك الذين ساهموا في شهرة المقهى وجلب الزبائن فيما مضى، وعثرت على فتيات نظيفات من لاجئات إثيوبيا المحطمة"^٣.

١ صائد اليرقات ص: ١٤.

٢ صائد الثرقات ص: ١٤.

٣ صائد اليرقات ص: ١٥.

وقد جاء إلى المقهى طالبا الروائي أ. ت ملتزما أساليب رجال الأمن القديمة في التحقيق، وقد رمز الكاتب نفسه بـ "أ.ت" داخل الرواية، ليظهر لنا أننا نطالع نصا واعيا، لكن أ. تهي شخصية روائية بقدر ما هي شخصية واقعية، حيث يدور الكلام حول روايته الجديدة "على سريري ماتت إيفا" التي حظيت بإعجاب القراء، وقد وصفتها إحدى رواد المقهى بأنها رواية قد شارك في كتابتها الجن، وهي رواية لم يكتبها أمير تاج السر بقلمه، وليست موجودة بين رواياته العشر، وإن كان أ. ت قد دونها وعرض علينا فصلين من الرواية التي أحالت كاتبها إلى شخصية فيها. فازدواجية أ. ت الحقيقي وأ. ت الخيالي في الرواية هي مثل ازدواجية عبدالله حرفش أو عبدالله فرفار.

في الزيارة الأولى للمقهى يرى عبد الله فرفار كل شيء بعدسة رجال الأمن الذين يتوجسون في كل ما يشاهدون ويحسبون كل حساب للحاضرين، فهو يصف الفتاة التي مدحت رواية أ. ت بأنها "كانت فتاة من ذلك النمط المصنف في تقاريرنا الأمنية: فتاة مندفعة يمكن أن تلج خلية نحل بقميها وهي تدري أنها خلية للنحل".^١ يراقب كل ما يحدث في المقهى بعين جاسوس حقيقي لا تخفى عليه أدق التفاصيل، مما يجعل المشهد يموج بالتوتر والاضطرابات معا. ويطرح هذا المشهد منذ البداية عملية الجدل بين "الموهومين والموهوبين" وهو جدل يدب في جميع ثنايا

١ صائد اليرقات ص: ١٧.

العمل، لكن المشهد وبرغم روايته كله من منظور السارد تتخاصم عليه سلطتان
سرديتان هما:

١ - سلطة الراوي: البطل عبدالله حرفش أو عبدالله فرفار.

٢ - سلطة الروائي الحقيقي والخيالي معا: أ.ت أو أمير تاج السر.

المشاجرة على سلطة السرد هي أحد العناوين الأساسية للرواية، وهو تحارب
الأمني والمتقف على تشكيل وعي القراء ومنظورهم ورؤيتهم للعالم، وينتج هذا النزاع
منذ هذه الزيارة الأولى، المواجهة الأولى بين المثقف ورجل الأمن، يسأل عبد الله
حرفش الكاتب سؤاله الأول، ومن هنا يسيطر الكاتب على السرد بدلا من الراوي،
حيث يقوم بإعادة تسمية الراوي: يافرفار-حرفش، ويستجوبه ويقوم بإحالاته إلى
موضوع فحص الجميع له، وسرعان ما يستهزئ به الكاتب ويسميه "صاحب
المحاولات". يعود الكاتب فيؤكد مشيرا إلى أن طقوس الكتابة وطريقته تختلف عنده
من نص لآخر.^١

كل تجربة جديدة تأتي بطقوس مختلفة في الكتابة، لكن نزاع سلطة السرد
سرعان ما يصل إلى ذروة دالة حينما يسترسل أ.ت كاشفا عن طقوس الكتابة
وطقوس التجربة لديه، ويفيد أنه دون بعض نصوصه وهو في كامل وعيد في بهو
فندق راقٍ، وبعضها مشتت البال مشردا في الشوارع والطرق، وبعضها في بيت
أمونة البيضاء حيث إستأجر بيتها ومشاعرها ونزواتها شهرين كاملين، وبعضها وهو

١ صائد اليرقات ص، ٢١

نزيل في سجن، عندها، يقرر الفرار من الجلسة متذرعاً بموعد سابق في مكان آخر لا بد من الذهاب إليه، فيطرده صوت أ. ت "انتظر يا صاحب المحاولات! سأحكي عن روايتي التي كتبتها في مرحاض عمومي مخصص للمجندين أثناء تأديتي الخدمة العسكرية. إنها واحدة من أفضل رواياتي"^١ بهذا الحوار يختتم به الفصل الثاني يذكي جدل التناظر والحوار بين الشخصيتين أو بين السلطتين السرديتين في النص الروائي.

يتساوي جانبا الصراع بين السلطتين السرديتين في الرواية، فالرواية مشغولة بشيئين أساسيين:

١ - تفكيك عملية الكتابة بداية من الطقوس وآدابها، عبورا بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والتجربة، فهذه الرواية هي من أكثر نصوص الأستاذ أمير تاج السر استيعاباً لنصيته، بالرغم من انشغال عدد من نصوصه بدرجة أو أخرى بنصيته.

٢ - اللعبة الأبدية بين الصياد والطريدة، المخبر والمتقف، السلطة والكاتب، الفن والواقع.

فإذا بدأنا دراسة الفصول التالية من الرواية باعتبار أنها فصول عملية فصل الكتابة المزدوجة على ناحيتين: ناحية كتابة فرفار-حرفش لروايته، وناحية كتابة أ. ت لرواية كتابة فرفار-حرفش لروايته، أي الفصل الأخير من الرواية الفصل

١ صائد اليرقات ص، ٢٣

العشرين وهو فصل المواجهة بين الإثنين وجها لوجه، عرفنا أنها الرواية التي فرغنا من دراستها حالا، في رواية "صائد اليرقات" نلاحق خيطين سرديين متساويين في عملية الكتابة هما خيط بحث فرفار-حرفش عن روايته بداية من الفصل الثالث وحتى الفصل الثامن عشر، وخيط آخر تبلور تفاصيل الرواية التي يكتبها أ. ت في آن واحد.

فالرواية على صعيد البنية والمعمار الفني تكاد أن تكون رواية مؤطرة: تشكل الفصل الاول والثاني والتاسع عشر والعشرون إطارا يفتح الروائي والكاتب في الفصلين الأولين ويكمله في الفصلين الأخيرين. وهذا هو الإطار الذي توضح الرواية فيه عن أسباب لجوء فرفار-حرفش للكتابة السردية وبداية علاقته المختلفة مع الكاتب أ. ت، بينما تشكل الفصول من الثالث إلى الثامن عشر صلب الموضوع أو الحكاية، بحث فرفار-حرفش عن روايته وكذلك محاولة كتابته للرواية.

خصائص الرواية:

تتمتع هذه الرواية بمزايا وخصائص الكتابة السردية والروائية أهمها: تعدد اللغات السردية، والولع بالصور أو الكتابة بالصورة، والنزعة الساخرة التي تبلغ في بعض الأحيان إلى حد السخرية المرة. وهي نزعة تكشفوتثري وتساهم في الدلالات والرؤى المتعددة، حيث تولد الحكايات من بعضها البعض وتتكاثر في التدفق السلس في عفوية، ولكنها منسوجة بمهارة ودقة فائقة. وتوجد فيها أيضا ازدواجية

الشخصية والإسم. فجميع الشخصيات لها أكثر من إسم، وازدواج التسمية هو أحد مظاهرتداخل الشخصيات وطبيعتها التناقضية وراثتها غير المحدود.

الباب الرابع

دراسة تحليلية لروايات الطيب صالح

الفصل الأول: حياة الطيب صالح العامة وآعماله الأدبية

الفصل الثاني: دراسة تحليلية لروايات الطيب صالح

الفصل الثالث: المواضيع والقضايا التي عالجهالطيب صالح في رواياته

الفصل الرابع: دراسة فنية لروايات الطيب صالح

الفصل الأول

حياة الطيب صالح العامة وآعماله الأدبية

مولده ونشأته:

ولد الأديب السوداني الشهير الطيب صالح عام ١٩٢٩م في أسرة متوسطة^١ كانت متمسمة بالزهد عن الدنيا والرغبة في الدين والقناعة وغنى النفس بقرية كرمكول في إقليم مروى شمالي السودان بالقرب من قرية دبة وهي إحدى قرى قبيلة الركابية التي ينتمي إليها الطيب صالح وينتسب، ونشأ وترعرع في بيئة دينية إسلامية هناك، وعاش مطلع حياته وطفولته في ذلك الإقليم، وكانت أمه عائشة أحمد زكريا ذكية جدا وشديدة الحفظ والذاكرة وكان لها ميزة مؤثرة في تكوينه الثقافي، يقول الطيب صالح عنها:

"لها ذاكرة قوية وشديدة الحفظ تقف في حلقة المديح فتحفظ كل ما يقال وإذا حضرت حفل زفاف تحفظ الأغاني التي يرددونها المغنون والمغنيات، وقد سمعتها مرارا تروي المدائح والأغاني و شعر الدوبيت"^٢ (شعر البادية في السودان).

^١ - كتابات سودانية، الصادرة من مركز الدراسات السودانية، العدد ٤٧، أبريل ٢٠٠٩

^٢ - على الدرب مع الطيب صالح، د- طلحة جبرئيل، نقلا عن الطيب صالح سيرة كاتب ونص، د-

أحمد محمد البدوي، ص ١٦

فأمه كانت بمثابة مصدر من مصادر التراث الشفوي الذي استفاد منه
الطبيب صالح، وكان أبوه محمد صالح يعتني بحلقات الذكر والتذكير وكان متدينا
ومتمسكا بالقيم الدينية والخلقية:

"كان والده شيخا وقورا طيبا دينًا، يؤمن بأولياء الله الصالحين، و يزور
ضريح الشيخ الطيب في قرينتهم و قد سمى ابنه على اسم ذلك الشيخ تبركا له"^١
وكان هذا الشيخ صاحب الضريح هو أحد أجداد الطبيب صالح الذين
اشتهروا بالصلاح والتقوى من قديم، فالطبيب صالح هو مسمى على جده^٢، فكان
مولده في أسرة دينية حتى يذكر أنه حوالى مائة شخص كانوا من حفظة القرآن
الكريم من أهل منطقته إبان مولده.

تعليمه

وكما كانت الخلاوى والزوايا تلعب دورا فعالا في نشر التعليم الديني بين
أبناء السودان في ذلك الوقت، فالتحق الطبيب صالح بإحدى هذه الخلاوى في مطلع
حياته وتلقى تعليمه الابتدائي هناك، وحفظ القرآن الكريم، ولما بلغ الثامنة من عمره
التحق بإحدى المدارس التي أنشأتها الحكومة الاستعمارية الإنجليزية للتعليم
النظامي في السودان، وكان هذا الانتقال من تعليم الخلوة إلى التعليم النظامي
العلماني بالنسبة للطبيب صالح بمثابة تغيير عنيف يجربه فيما بعد من خلال السفر

^١ -د- الطبيب صالح سيرة كاتب ونص ، د- أحمد محمد البدوي، ص ٢١

^٢ - نفس المصدر، ص ٢١

إلى لندن والتأثر بالثقافة الغربية بشكل عام، والذي كان من شأنه أن يؤثر على محتواه الذهني.

ولوعه باللغة الإنجليزية

عندما بدأ دراسة اللغة الإنجليزية خلال مرحلته الثانوية في السودان، وقع في حب هذه اللغة، كما يعبر الطيب صالح: "وعندما بدأ يتعلم اللغة الإنجليزية، أحسبأنه دخل في عالم الرموز التي تحتاج إلى فكها" ^١ ويضيف: أن الإنجليز كانوا حريصين على تخريج نخبة من الطلاب السودانيين الذين كانوا يواليهم ويناصرهم في أمورهم المختلفة، ولأجل ذلك إنهم عنوا عناية خاصة بأولئك الذين كانوا متميزين ومتفوقين في اللغة الإنجليزية، وهو يدعي بأنه كان من أفضل الطلاب في اللغة الإنجليزية بين أقرانه، وبسبب ذلك تم اختياره لإلقاء محاضرة بمناسبة استقبال حاكم استعماري، ^٢ وقد وعده ناظر المدرسة بمنحه منحة دراسية للتعليم العالي إذا تفوق في دراسته، وهو يرى: " وبما أنني كنت من أولئك الذين كانوا قد تفوقوا في اللغة الإنجليزية، أطلعني ناظر المدرسة مستر لانغ إذا كنتُ متميزاً في الاختبار النهائي، سيتم إرسالك للتعليم الجامعي إلى كامبريدج أو أكسفورد" ^٣

^١Tayeb Saleh's Season of Migration to the North, An Ideo- Literary Evaluation, Dr. Abdul Rahman Mohamad Yeddi Elnoor 48

^٢ نفس المصدر ص ٤٩

^٣ نفس المصدر ص ٤٩

ثم انتقل بعد ذلك إلى المدرسة الثانوية في وادي سيدنا، حيث حصل في عام ١٩٤٨م على شهادة كامبريدج للثانوية العامة بالدرجة الأولى، وتلمذ على جمال محمد أحمد وتحولت هذه العلاقة إلى صداقة ورعاية من جانب جمال محمد لموهبته، ثم التحق بكلية العلوم في مدينة الخرطوم.

ولكن يبدو أن جميع طموحاته الأكاديمية للتعليم العالي كانت محبطة إلى حد ما، وكانت الفترة ما بعد الدراسة في المدرسة الثانوية فترة اختلاط بالنسبة له، فقد التحق بقسم العلوم في كلية غوردون في الخرطوم رغم ولوعه بالعلوم الزراعية والأدب. وهو يقول:

"في الحقيقة كنت أرغب في دراسة الأدب حتى نصحني ناظر المدرسة الثانوية في وادي سيدنا بأن التحق بكلية الآداب ولكن كنت مولعا بدراسة العلوم الزراعية"^١

إنه كان يريد أن يدرس الزراعة بسبب العلاقة الوثيقة بين الزراعة والبيئة السودانية. ولكنه لم يكمل دراسته في الأدب ولا في الزراعة، بل التحق بكلية العلوم إلا أنه لم يواصل دراسته وبدأ أنه يخفي رغبة دفينه في دراسة الأدب الإنجليزي، ورغم أنه كان طالبا في كلية العلوم، إلا إنه كان يحضر في المحاضرات الأدبية في كلية الآداب، وكان يشارك في المناقشات الأدبية حول النزعات الرومانسية، وصار وجها مألوفاً لدى أستاذ إنجليزي يدرّس الشعر الرومانسي كما يقول:

^١ نفس المصدر ص ٤٩

"كان يحاضر هناك أستاذ انجليزي يُدعى مستر هارت شاركتُ أحيانا في النقاش خصوصا حين يتحدثون عن: كيتس وشلي، وربما لفت انتباه مستر هارت حين كنت أناقشه، وفي إحدى المرات، وبعد أن انتهى من إلقاء محاضرتة، استفسر قائلاً: من أين تأتي؟ أنت لست من طلابي؟! وعندما قلت له إنني أدرس في كلية العلوم ، وكان يحقرها جدا، ويسمياها المدرسة الأخرى"،^١

اقترح مستر هارت أن يلتحق فوراً بكلية الآداب، ولكن اختلط الأمر عليه كما هو يعترف بنفسه: " وعلى رغم ضيقي من المواد العلمية، فإن مستواي كان جيداً، ولكن حدث اختلاط في ذهني، بين رغبتني الدفينة، وربما تجاوبي مع المواد الأدبية، وبين مسألة تشريح الصراصير والفئران في كلية العلوم"^٢، ولأجل هذا فقد حاول الانتقال من فرع العلوم إلى الأدب ولكن من سوء حظه، منعتة قوانين الجامعة لمثل هذا الانتقال من العلوم إلى الأدب، والتي أحبطت جميع محاولاته ووقعت عقبة في طريقه، ففشل في مواصلة دراسته في كلية العلوم، وقضى بتلك الكلية عامين لم يستطع إتمام الدراسة فيها، وبعد ذلك اتخذت حياته وجهة جديدة مباينة لطريق الجامعة، كأنه انفلت من الأسر ومضى يسافر إلى سبيل جديد.

ومهما كانت الظروف، فقد كان انقطاع مواصلته الدراسية تجربة مريرة في حياته، كما كان اختياراً خاطئاً دفعه إلى اتخاذ مثل هذه القرارات التعسفية. وإنه قد

^١ - الطيب صالح ملامح من سيرة ذاتية نقلا عن كتاب الطيب صالح سيرة كاتب ونص، ص ١٥

^٢ - نفس المصدر ص ١٦

ترك الجامعة في عام ١٩٥١م،^١ واشتغل بمهنة التدريس في مدرسة أهلية وسطى أنشأها الشيخ لطفى ببلدة رفاعة على ضفاف النيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم^٢، ثم سافر إلى إنجلترا حيث واصل دراسته في الشؤون الدولية، وتخرج فيها، وعمل بالهيئة الإذاعة البريطانية في مدينة لندن وترقى في فترة قصيرة إلى نائب رئيس ثم رئيس قسم الدراما، وتزوج هناك من امرأة بريطانية إسمها جولي صالح، فقد رزق منها ثلاث بنات: زينب وسارة وسميرة.

رحلاته

كان الطيب صالح كثير الرحلات والسياسة والتنقل، إنه قام بعدة رحلات مهمة في حياته، وقد لعبت هذه الرحلات السياحية دوراً رئيسياً في حياته الأدبية والعلمية حيث زادت خبرته في العلوم والمعارف.

فأول رحلته كانت إلى إنجلترا عام ١٩٥٣م وهي السنة التي ظهر فيها أول إنتاجه الأدبي "نخلة على الجدول" حيث سنحت له الفرصة للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، فعمل بها عدة سنوات في قسمها العربي، وترقى بها حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما وكذلك خلال عمله في هذه الهيئة التحق بإحدى جامعات لندن، وواصل بها دراسته في الشؤون الدولية حتى تخرج فيها. وظل يعمل في هذه الهيئة بجد ونشاط حتى استقال منها في عام ١٩٧٤م.

^١Tayyeb Saleh's Season of Migration to the North, An Ideo- Literary Evaluation, Dr. Abdul Rahman Mohamad Yeddi Elnoor, 50

^٢الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص ٣٧

ثم اتفق له أن يسافر إلى دولة قطر عام ١٩٧٤م، فعمل في وزارة الإعلام مديراً ومشرفاً على أجهزتها، وعاش فيها فترة طويلة من حياته كما يقول: "عملت في قطر كمدير لوزارة الإعلام على امتداد ما يناهز ستة أعوام...وهي أطول فترة قضيتها في أي بلد عربي خارج السودان"^١

وإنه أحب هذا البلد حبا جما كما يقول: "البلد الآخر الذي عرفته و أحببته هو قطر"^٢ ويقول في موضع آخر: "في قطر تأسس الود بيني و بين الناس من كل صنف"^٣، وإنه ساهم في إثراء الثقافة العربية وتطورها بشكل عام، كما يقول الدكتور حمد بن عبدالعزيز الكواري، وزير الثقافة والفنون والتراث في قطر:

" نحن في قطر نقول بالصوت الجهير والقوي: نعتز بأن الطيب صالح قطري، فهو عمل في الدوحة فترة طويلة وعمل كقطري مخلص وتقلد أعلى الوظائف في الإعلام وأرسى قواعده، وأيضاً ساهم مساهمة كبيرة جداً في إثراء الثقافة وتطورها في قطر"^٤

ثم تهيأت له الفرصة أن يسافر إلى باريس في بداية الثمانينات من القرن العشرين، فالتحق هناك بمنظمة اليونسكو، وعمل بصفته مديراً إقليمياً لهذه المنظمة، وفي عام ١٩٨٧م تم تعيينه كممثل لهذه المنظمة في الخليج العربي، فعاد إلى دولة قطر وأقام في الدوحة.

^١ كتابات سودانية العدد ٤٧ ابريل ٢٠٠٩ ص ١٥٣

^٢ نفس المصدر، ص ١٥٣

^٣ نفس المصدر، ص ١٥٣

^٤ صحيفة "الوطن" الصادرة من قطر العدد ٥٦٤٨، ١٩ فبراير ٢٠١١

وكانت رحلة الطيب صالح إلى مدينة أصيلة في المغرب عام ١٩٨٠م كما
تفيد صحيفة "الشرق الأوسط": "قرر مجلس بلدية أصيلة إطلاق إسم الأديب
السوداني الراحل الطيب صالح على حديقة كبرى كانت في الأصل مصلى، أدى
بها الطيب صالح صلاة العيد في أول زيارة له للمدينة عام ١٩٨٠م"^١

والطيب صالح بنفسه يبين عن هذه المناسبة حيث يقول: "عندما بدأت أزور
المغرب، وجدت فيه إلى جانب جمال الطبيعة وطيبوبة المغاربة، أشياء كثيرة أثارت
ذاكرتي وشحذتها، ولا أنسى أنني صادفت عيد الفطر ذات مرة في أصيلة وأخذني
الأخ محمد بن عيسى (وزير الخارجية آنذاك) لصلاة العيد، فاكتشفت أن نفس
طقوس هذه الصلاة تقوم بها في السودان"^٢

كان الطيب صالح يحب المغرب وأهله وثقافته، وكأن المغرب جزء من
كيانه العربي الواسع، كما يقول: "المغرب جزء من كياني العربي الواسع، و جزء
أكبر من وجداني... و فيها أحس بأنني في مدينة أم درمان بالسودان، نفس
التداخل بين الثقافات: ثقافة الصحراء، ثقافة المدينة، الثقافة الزنجية، العروبة،
الإسلام والثقافة البربرية"^٣

وبينما كان الطيب صالح يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، سنحت له
الفرصة للسفر إلى لبنان عدة مرات، وإنه عاش فيه بعض الأحيان فترة طويلة كما

^١ صحيفة "الشرق الأوسط" الصادرة من لندن العدد ١١٢٠٣، ٣١ يوليو ٢٠٠٩

^٢ كتابات سودانية، العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ١٤٩

^٣ نفس المصدر ص ١٥٠

يقول: "لبنان الذي عرفته وتعلقت به كان "لبنان لندن" وأول ما قابلت لبنانيين في حياتي لأول مرة قابلتهم في لندن ثم جاءت رحلاتي إلى لبنان يوم اشتغالي في البي بي سي. ذهبت إلى هناك عدة مرات، وعشت فترات امتدت أحيانا قرابة سنة. وهناك تعرفت إلى الكثير وعلى الكثير من اللبنانيين، كتأبا وشعراء، أذكر منهم مثلا يوسف الخال، أدونيس، أساتذة في الجامعة اللبنانية"^١ وفي موضع آخر يقول: "لبنان أكن له أعجابا وحبا كبيرين...ولبنان هي أرض الأريحية"^٢، على كل حال إنه زار لبنان أكثر من مرة وكان معجبا به.

إنه كان يتردد أيضا على عاصمة المملكة العربية السعودية، الرياض خاصة خلال مهرجان الجنادرية السنوي الذي ينظمه الحرس الوطني السعودي ويلتقي مع أصدقائه وأقربائه هناك، ويقضي بعض أوقاته بينهم في جو من المحبة والألفة، و إنه لم يكن يستقر في مكان واحد بل كان يتجول في أماكن عدة كما يقول الإعلامي والروائي السوداني خالد عويس: "تعرفت إلى الطيب صالح والتقيت به على هامش مهرجان الجنادرية في العاصمة السعودية (الرياض) عام ٢٠٠١م، ثم تكررت اللقاءات، مرات في الرياض، ومرة في لندن ومرة في دبي"^٣

فيتضح من هذا أنه كان كثير الرحلات والسياسة ويمكن القول أن حالة الترحال والسياسة والتنقل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعة

^١ نفس المصدر ص ١٥٢

^٢ نفس المصدر ص ١٥٣

^٣ صحيفة "المدينة" الصادرة من المملكة العربية السعودية، ٢٥ فبراير ٢٠٠٩م

بأحوال الحياة والعالم. والجدير بالذكر أن رحلاته لم تقتصر في هذه الدول المذكورة وإنه قام برحلات عديدة في عديد من دول العالم العربي كمصر وتونس والعراق، والعالم الغربي كالسويد والولايات المتحدة الأميركية وغيرها.

خدماته الوظيفية والأكاديمية

بعد إكمال دراسته الثانوية في وادي سيدنا، وبعد قضاء عامين في كلية العلوم، تنقل الطيب صالح بين عدة وظائف منها:

المدرسة الأهلية ببلدة رفاعة

بدأ الطيب صالح مشواره الوظيفي في بلاده السودان بصفته مدرّساً، فاشتغل بمهنة التدريس عام ١٩٥١م في مدرسة أهلية وسطى أنشأها الشيخ لطفى ببلدة رفاعة على ضفاف النيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم^١، وعاش في وسط سوداني جديد بعيداً عن الحياة الطلابية التي مارسها عشر سنوات، وهناك التقى بمحمود محمد طه^٢ صهر الشيخ لطفى، فصارت المجالس اليومية تجمعهما كل يوم مساءً، فإنه بدأ يقضي أيامه في جو من الود والوداد والمحبة بين أصدقائه وأقربائه. وظل قائماً في هذه المدرسة بنشاطاته التدريسية والعلمية والثقافية لمدة امتدت لعام.

^١ الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص ٣٧

^٢ محمود محمد طه: هو مؤسس و زعيم الحزب الجمهوري، والذي قام الرئيس السوداني السابق جعفر نميري بإعدامه شنقاً بتهمة الردة عن الإسلام عام ١٩٨٥.

معهد التربية ببخت الرضا

في عام ١٩٥٢م إلتحق بمعهد التربية في بخت الرضا في الدويم عند النيل الأبيض جنوب الخرطوم^١، وكان يقوم هذا المعهد بإعداد المدرسين للمرحلة التعليمية الوسطى وفق منهج دراسي محكم لكي يتمكنوا من أداء دورهم التربوي والتعليمي بين أبناء السودان الناشئين، فظل الطيب صالح بهذا المعهد قرابة عام ثم انصرف منه وتوجه إلى "بلاد تموت من البرد حيتانها".

هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)

وصل الطيب صالح إلى لندن في أوائل عام ١٩٥٣م^٢، وواصل بها دراسته في الشؤون الدولية حتى تهيأت له الفرصة للعمل في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية^٣، وكان القسم العربي لهذه الهيئة يعيش أوج مجده خاصة بعد رواجه وشهرته إبان الحرب العالمية الثانية، فبدأ القسم العربي يؤلي أيضا اهتماما خاصا في مجال الثقافة، ولإنجاز هذه المهمة استقطب عدد كبير من الكتاب العرب، وكان الطيب صالح في طليعة هؤلاء الكتاب، إنه عمل فيه سنوات طويلة بكل جدّ وورصانة، واتخذت حياته اتجاها جديدا عندما تولى تغطية أعمال الجلسة العامة للأمم المتحدة بنيويورك كمراسل لهيئة الإذاعة البريطانية. ولا شك أن مقابلاته لوفود كثيرة تنتمي إلى ثقافات شتى، أثرت تجربته وشحّدت فكرته.

^١ الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص ٣٩

^٢ كتابات سودانية، ص ١٢٨

^٣ الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص ٤٨

وظل يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية ولم يعد إلى بلاده إلا عام ١٩٦٦م، وتولى وظيفة مستشار في الإعلام والإذاعة بوزارة الإعلام السودانية، لكنه تركها بعد سنتين، وعاد إلى لندن مرة أخرى والتحق بهيئة الإذاعة البريطانية حيث كلف بإعداد النشرات الثقافية وبرامجها، وفي فترة قصيرة ترقى إلى وظيفة نائب رئيس ثم رئيس قسم الدراما، وظل بها حتى عام ١٩٧٤م.

وزارة الإعلام بالسودان

وعاد الطيب صالح إلى بلاده السودان في عام ١٩٦٦م بعد مضي حقبة من الزمن في هيئة الإذاعة البريطانية، والتحق بوزارة الإعلام السودانية وتولى وظيفة مستشار في تلك الوزارة. وظل يشغل هذا المنصب لمدة عامين، ثم استقال منه وعاد إلى لندن حيث التحق بهيئة الإذاعة البريطانية مرة أخرى.

وزارة الإعلام بقطر

ووصل الطيب صالح إلى دولة قطر عام ١٩٧٤م، وتولى منصب المدير العام لوزارة الإعلام^١، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى ١٩٨١م، كما يقول:
"عملت في قطر كمدير لوزارة الإعلام على امتداد ما يناهز ستة أعوام ثم التحقت باليونسكو، وعدت إلى قطر كممثّل لليونسكو، وهي أطول فترة قضيتها في أي بلد عربي خارج السودان"^٢

^١ نفس المصدر ص ٨٤ و كتابات سودانية العدد ٤٧ ، ابريل ٢٠٠٩ ص ١٢٩

كتابات سودانية العدد ٤٧ ابريل ٢٠٠٩ ص ١٥٣

فكان الطيب صالح مقيماً في دولة قطر لمدة ست سنوات، وكان من بين المهام المسندة إليه شؤون الثقافة والسياحة والآثار القديمة، وكان يتولى تخطيط وتحديد إستراتيجيات الإعلام، كما كان يتولى الإشراف والتنسيق بين كل من إدارات التلفزيون والإذاعة والصحافة المكتوبة والثقافة والسياحة فضلاً عن الآثار القديمة، وخلال هذه الفترة زادت تجربته الدولية بمشاركته في المؤتمرات الدولية كممثل لدولة قطر، وبعد ذلك غادر دولة قطر وتوجه إلى باريس.

منظمة اليونسكو بباريس

وصل الطيب صالح إلى باريس وانضم إلى اليونسكو في العاشر من تشرين الأول ١٩٨١م بصفته مستشاراً إقليمياً للإعلام مختصاً في شؤون البلدان العربية،^١ وكانت هناك أسباب عدة لاختياره لتولي هذا المنصب، كان أولها تكوينه وتجاربه وروابطه الحميمة مع العالم العربي، فضلاً عن معرفته العميقة بالإعلام ومشاكله. وكانت مسيرته الجامعية ونشاطاته المهنية المختلفة خير دليل على انفتاحه الذهني وقدرته على التكيف مع بيئات مختلفة وظروف معقدة، فتم تعيين الطيب صالح مستشاراً إقليمياً للإعلام والاتصالات مكلفاً بشؤون الدول العربية.

إنه قام بهذه المسؤولية بنشاط وفعالية، وخصوصاً من خلال مشاركته النشطة في العمل التحضيري، وبعد ذلك في المؤتمر الأول للحكومات العربية حول سياسات الإعلام في العالم العربي الذي نظّمته اليونسكو بالخرطوم عام ١٩٨٧م، وظل يقوم بنشاطاته في مجالات التربية والثقافة والعلوم وكذلك الإعلام

^١ الطيب صالح سيرة كاتب و نص، د- أحمد محمد البدوي، ص ٨٤

والاتصالات، حتى تم تعيينه في بداية تموز ١٩٨٧م ممثلاً لليونسكو في دول الخليج، وكان مقر عمله في قطر. وظل بهذه الوظيفة إلى عام ١٩٨٩م ثم عاد إلى إنجلترا، وأقام فيها بقية عمره.

انتماءاته السياسية

حاول الاستعمار تحييد تعليم الخلوة في السودان، وذلك عن طريق إنشاء المدارس والجامعات التي كانت تركز على التعليم النظامي العلماني آنذاك، وكان الغرض منه إعداد طبقة مثقفة من السودانيين الذين يواليهم ويناصرهم في شؤونهم المختلفة، فقد وقع عديد من السودانيين فريسة لهذه الشبكة الاستعمارية، ولم يكن الطيب صالح بعيداً عنه، فخلال فترة تعلمه في المدارس السودانية ترك الإنتماء إلى أي حزب أو فريق، ويبدو أنه لم يكن لديه أي ولاء أيديولوجي محدد، ويدّعي بأنه فصل نفسه من الأحزاب السياسية، إلا أنه كان يشارك في الاجتماعات الإسلامية والشيوعية، فهو يبيّن:

"منذ مرحلة الثانوية، من الدراسة، ابتعدتُ عن التحزب، على رغم أن ذلك لم يكن سهلاً، فعندما كنا ندرس في وادي سيدنا الثانوية، كان الصراع ينحصر على أشده، بين الشيوعيين والإسلاميين (الإخوان المسلمين فيما بعد). كنت آنذاك أقوم بأداء الفرائض، وأحافظ على الدين، ولكن لست متديناً بالمعنى السياسي والأيدولوجي للكلمة، كنت أحضر اجتماعات الإسلاميين والشيوعيين، وأميل إلى الحديث في الجمعيات الأدبية."^١

^١ الطيب صالح ملاح من سيرة ذاتية، نقلا عن كتاب الطيب صالح سيرة كاتب و نص، ص ١٣

فظهر من هذا أنه كان عبارة عن أيولوجية الحياد، وبعد وقوفه على الأوضاع السياسية البريطانية في لندن، بدأ يؤيد حزب العمال الاشتراكي، مما يدل على أنه كان كثير الإطلاع على المدرسة الفابيائية.

تأثره بأفكار سيغموند فرويد

إنه من المعلوم أن الأعمال الأدبية تتمثل في ميول الكاتب أو الأديب الشخصية، و بسوء الحظ تشكلت الميول الشخصية لعدد من الكتاب في المناخ الفاسد الذي وجدوا أنفسهم فيه، وهذا جلي واضح تماما في حالة كاتب مثل الطيب صالح الذي وقع تحت نفوذ سيغموند فرويد وتأثر به كما هو يعترف: "إنني وقعت تحت نفوذ فرويد وتأثرت به ... وقرأت أكثر من مرة "الحضارة وتبرمها"¹، فيتضح لنا أنه كان متأثرا بأفكار سيغموند فرويد والتي أثرت فيه وفي كتاباته الأدبية والعلمية.

أثر الثقافة الغربية فيه

وإذا أمعنا النظر في تأثير الثقافة الغربية في حياته، وجدنا أنه قد بذل مجهوداته لكي لا تتقطع صلته وعلاقته بجذوره وأصله، ولكنه وجد أن البيئة الإنجليزية بدأت تمارس نفوذها عليه، ولكن البيئة الإنجليزية لا تجبر شخصا على أن ينسى كل شيء متعلق بأصله وجذوره، بل يجد الإنسان نفسه مدفوعة إلى القيام

¹موسم الهجرة إلى الشمال، دراسة استقصائية ، منى تقي الدين أميوني نقلا عن كتاب Season of Migration to the North, An Ideo-Literary Evaluation, Dr, Abdel Rahman

Mohamad Yeddi Elnoor p.52

بذلك، وعندما جاء إلى لندن، وجد المجتمع الإنجليزي كان مغايرا تماما من المجتمع السوداني، وبدأ يضيق صدره من اليوم الأول حتى بدأ يفكر أن يعود من حيث أتى لأنه لم يقدر على التأقلم والتكيف مع ذلك المجتمع، حتى نصحه أحد أساتذته الإنجليزي باللجوء إلى أستاذ إنجليزي آخر مقيم في لندن، والذي تولى تقديمه إلى جماعة الأصدقاء ويساعده على الالتحاق بالأندية حيث يزدهر نشاط ثقافي واجتماعي كثير، فبدأ يتلاؤم ويتكيف مع البيئة الإنجليزية والواقع الاجتماعي في لندن، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بكل جذوره وأصله بل انصهر في التيار الجارف المتمثل في المجتمع الإنجليزي، إنه قدم إقتراحات عديدة للتعرف على المجتمع الإنجليزي، وهو يقول:

"كان من ضرورات التأقلم أن يتخذ الشخص صديقة، لمساعدته في الاندماج والتعرف على البلد... فإذا أردت الذهاب إلى السينما أو المسرح أو المطعم، لابد لك أن تذهب مع صديقتك"¹

فكان الاختلاط بالمرأة في المجتمع الإنجليزي المفتوح شيئا عاديا لا يأبه به أحد، فهو يقول في حوار جرى معه:

"جين مورس شخصية حقيقية، ولكنها ليست نفسها في الرواية، تعرفت عليها في الشهر الأول من وصولي إلى لندن عام ١٩٥٢م، في المتحف الوطني قابلت فتاة جذابة حقا... كان في المتحف آنذاك معرض عن الفن الانطباعي،

¹ ملامح من سيرة ذاتية نقلها عن كتاب الطيب صالح سيرة كاتب ونص، د- أحمد محمد البدوي، ص

وبعدين... تحدثنا مع بعض، و سألتني من أين أنا إلى آخر ذلك.. وكنت في ذلك
الحين فتى يافعا.. وبعد أن خرجنا من المعرض وذهبنا إلى مقهى، وأمضينا بعض
الوقت في الحديث في أمور عامة، وبعد ذلك لم أرها قط.¹

فهذا رمز لعلاقة الرجل بالمرأة في المجتمع الإنجليزي المفتوح، حيث يلقاها
الرجل في أماكن العمل والنوادي وغيرها، ويتبين أن الثقافة الغربية المتواجدة آنذاك
أثرت عليه وإنه قد تأثر بها، وأذكر هنا بعض الفقرات من المحادثة التي دارت بينه
وبين زميله، المذيع الفلسطيني، أكرم صالح، لنعرف مدى انفتاح المجتمع الغربي:

الطيب: وأنت لماذا لم تتزوج البنت التي كانت تحبُّك من كامبردج؟

أكرم: آه كانت عظيمة، بس الرائعة فعلا كانت الكندية!

الطيب: المتدينة بتاعة الكريستيان سنيس، كانت امرأة فارهة.

أكرم: وأنت ألم تحبك البنت التي أهلها بيصنعوا المربى الشهيرة؟

الطيب: كل مرة أشترى هذا النوع من المربى أتذكرها، كانت رسامة ومتقلبة
الأطوار، تحبك اليوم وتكرهك غدا.

أكرم ياباي! أهلها كانوا مليونيرات كان عندهم أكبر محل لبيع لعب الأطفال في
لندن.

الطيب: أرسلوها في رحلة بحرية طويلة إلى جنوب افريقيا لتتسى!

¹ تحولات الشوق في موسم الهجرة إلى الشمال، د- محمد شاهين، نقلا عن كتاب الطيب صالح سيرة

كاتب ونص، ص ٦٢

كنا نتصرف كأننا جنود في جيش غاز، في مدينة مفتوحة... لعل هذا ما عنيته حين قلت على لسان مصطفى سعيد في موسم الهجرة: إنني جئتكم غازيا في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرابين التاريخ.

أكرم: لخصتنا جميعا في شخصية مصطفى سعيد!

الطيب: أخذت روح تلك الفترة، والجيل الذي سبقنا، بعض الناس يظنون أن مصطفى سعيد شخص بعينه، بعضهم يقول إنه أنا، واضح أن الأمر ليس كذلك، هذه شخصية خيالية فيها ملامح من مئات الناس.^١

فهذا يدل على انفتاح علاقة الرجل بالمرأة، والانحطاط الخلفي في المجتمع الإنجليزي، إلا أنه كانت هناك مجموعة متدينة في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، والتي كانت تحافظ على صلاتها وصيامها، وكان الطيب صالح رجلا متدينا يقوم بالفرائض الدينية خلال إقامته في الجامعة السودانية حيث كان يواظب على صلواته وصيامه، وكان يُعد من رواد الحركة الإسلامية آنذاك، ولكنه لم يتمكن من الحفاظ على هذه الأشياء في غربته، وانصهر في التيار السائد إلى حد ما كما يقول:

"كنا قد صلينا وصمنا قبل أن نجئ، غرضنا أبصارنا وحفظنا فروجنا،

ولكن أحدا لم يهيئنا لذلك اللقاء الرهيب"^٢

^١ الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص ٦٣-٦٤

^٢ نفس المصدر ص ٦٧

وهذا كان تأثير الثقافة الغربية على سيرته الذاتية، ولكن ليس معنى هذا أنه انغمس في المجتمع الإنجليزي بخيره وشره تماما وانقطع من جذوره وأصله وأهله ومن مجتمعه السوداني الأصلي، بل ظلت ثقافته السودانية المفعمة بالتقاليد القديمة التي تربط الفرد بمجتمعه الأصلي تقطن في وجدانه دوماً، بالرغم من أنه انغمس في ثقافة مغايرة تماما من ثقافته، كما حدث لعدد كبير من المثقفين الذين تلقوا تعليمهم في الدول الغربية.

وفيما يتعلق بتأثير الثقافة الغربية في موهبته وقدرته وكتابته، فإنها صقلت مواهبه وشحذت قدرته على الكتابة، لأنه استقى أيضا من الثقافة الغربية، وكانت تلك الثقافات الثنائية قد تحولت إلى مصدر خصب للإثراء الفكري والمقدرة النادرة على النفاذ إلى بواطن الأشياء وأسرارها المكننة بالنسبة له، حتى أصبحت كل أعماله الفنية تتجلى فيها تلك الازدواجية الثقافية.

عبقرية الطيب صالح

كان الأديب الأريب الطيب صالح رجلا متقفا وأديبا بارعا وروائيا مبدعا، والذي أطلق عليه نقاد العرب "عبقري الرواية العربية"، وتكتب عنه مجلة "العربي" الكويتية "بأنه واحد من أجمل الهدايا التي قدمها السودان الشقيق للثقافة العربية"^١، إنه رحل من الجنوب إلى الشمال ولم يكن هذا الارتحال فرارا من الجنوب بل كان

^١مجلة "العربي" الصادرة من الكويت العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

يحملة معه أينما يتوجه، وبقيت لهجته لهجة سودانية على الرغم من قضائه فترة طويلة في الغرب كما يقول:

"السودان أحمله بين جوانحي أينما ذهبت.. وهذا هو الوجد البدائي واللائهائي"^١، فبيئة القرية التي نشأ فيها هي على حد قوله: "المسرح والمادة الخام لإبداعاته، وهي النافذة على الكون"^٢، فهذه البيئة هي التي شكلت العامل الأساسي الذي أوحى له بالكتابة. وكان ملتصقا التصاقاً حميماً بالبيئة السودانية المحلية. ويقول بشير صالح، الشقيق الوحيد له: إن شقيقه كان نتاجاً لبلد متسامح، وكان سودانياً في كل شيء، ولم يتخل يوماً عن سودانيته على الرغم من أنه عاش معظم حياته في بلاد الإنجليز"^٣

فعبّر الطيب صالح عن آلام الناس السودانيين وعاداتهم وطقوسهم، وقدم خدمات جليلة للثقافة السودانية والأدب الشعبي السوداني كما يقول محمد بن عيسى وزير خارجية المغرب السابق: "أنه ذاكرة السودان المتنقلة يحفظ لكتابه وشعرائه وزجاليه على الخصوص ويحن لوطنه الأم، ويحس بأحشائه تتمزق وهو يتحدث عن السودان."^٤

^١ نفس المرجع

^٢ نفس المرجع

^٣ - sudanline.com

^٤ - كتابات سودانية العدد ٤٧ إبريل ٢٠٠٩

وانه واحد من كبارالكتاب المبدعين العرب الذين عرفتهم الدنيا في ميدان الرواية العربية والقصة القصيرة، والذي نجح في فرض ثقافة الجنوب على الشمال، وروايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال" من إحدى الروايات العربية التي نجحت في نقل الأدب العربي إلى العالم.

وانه لم يكن يعاني من مشكلة تعدد الانتماءات، فلما سئل عن كيفية العلاقة بين الإسلام والعروبة، والوطنية والديموقراطية، فأجاب:

"نحن عرب مسلمون ففي السودان يقال: دا ولد عرب، والعروبة قضية مفروغ منها، فهو قائم بحد ذاته، لما يقال: دا فلان ولد عرب.. دي قيمة، ويدخل في نطاق العروبة كل من يتكلم العربية، فيقول: إن النوبية وهي أعرق قبائل وادي النيل، التي ورثت الحضارة الفرعونية القديمة هم الآن عرب، ثم يتحدث عن دخول الإسلام إلى السودان، ونشوء ممالك إسلامية فيه وفي إفريقيا، فنشأ كما يقولإسلام يتميز بروح تسامح لا حد له، ولم ير في الهوية وإن جمعت كل تلك الانتماءات تضاد أو تناقض فيمكن للسوداني أن يكون عربياً مسلماً ديمقراطياً ووطنياً.. وكذا كل عربي."¹

إنه كان يكتب بكل حرية بدون الاعتناء بنقد الناقد أو القارئ، ولعل هذا هو السبب الذي أنجح رواياته وأعطاهها شهرة واسعة في العالم، كما يقول: "أنا واضح جدا في طريقتي في الكتابة، ولست كاتباً شديداً الإحساس بالقارئ، أو الناقد، ولا أنتج إبداعي بهدف الاستمرار في السوق، أو من أجل النقاد، لا.. أنا أكتب كما

¹ - مجلة "العربي" الصادرة من الكويت العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

يحلو لي، فإذا وجد ما اكتبه هوى لدى القراء، فهذا يرجع للقارئ، وإذا لم يجد هذا الهوى فقد يأتي زمان آخر ويجد".^١

فالالتزام في الكتابة عنده هو الحرية الكاملة التي تطلق الإبداع حتى يبلغ أقصى مداه، فهكذا يتميز ويتفوق الكاتب المبدع على أقرانه الآخرين، وكان الطيب صالح روائيا سودانيا عربيا عالميا، عندما برز على ساحة الرواية العربية والأدب العربي، وصدرت روايته الرائعة "موسم الهجرة إلى الشمال"، فإنه أدهش النقاد والأدباء والقراء كما يقول الناقد الشهير رجاء النقاش:

"لم أصدق عيني وأنا التهم سطور هذه الرواية، وانتقل بين شخصياتها النارية العنيفة النابضة بالحياة، وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة، وبناءها الفني الأصيل الجديد على الرواية العربية.. لم أتصور أنني أقرأ رواية كتبها فنان عربي شاب، ولم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة- فكرا وفنا- هي عمله الأول، لقد أخذتني الرواية بين سطورها في دوامة من السحر الفني والفكري، وصعدت بي إلى مرتفعات عالية من الخيال الفني الروائي العظيم، وأطربتني طربا حقيقيا بما فيها من غزارة شعرية رائعة، ولم أكد أنتهي من قراءة الرواية، حتى تيقنت أنني- بلا أدنى مبالغة- أمام عبقرية جديدة في ميدان الرواية العربية.. تولد كما يولد الفجر الجديد المشرق، وكما تولد الشمس الإفريقية الصريحة الناصعة".^٢

^١- نفس المرجع

^٢- الطيب صالح عبقرية الرواية العربية، ص ٧٨-٧٩

هكذا تم استقبال روايات الطيب صالح، ثم توالى أعماله الأخرى على نفس الدرجة ونفس المستوى، وإنه كان رجلاً متواضعاً، وُلد في السودان وعاش في لندن إلا أنه ظل شرقي الطابع حياةً وفكراً، فكان مثالا ونموذجاً للتواضع الجَم والبساطة والتفكير العميق والأفق الواسع كما تفيد صحيفة "عكاظ" في طبعتها الأسبوعية:

"لم يكن الطيب صالح قمة في الإبداع الأدبي فحسب، بل كان مثالا للتواضع الجَم الذي أكسبه حب الملايين وأسكنه في قلوبهم، وقدوة للأخلاق الفاضلة والطبع النبيل، فلم تغيره الشهرة، ولم تبدله المكانة المرموقة التي بلغها، إذ يعد واحداً من أهم الأدباء المبدعين في القرن العشرين."^١

ولما سُئل عن جائزة نوبل فأجاب: "لو جاءتني سأفرح بها، ولا أزعم أنني فوق هذا، ولكن في الحقيقة لا أشغل نفسي بها"^٢

ووزير خارجية المغرب السابق محمد بن عيسى قد وصفه "بأنه الولي الصالح حتى من دون عمامته، كل كامل يقاسمك كل أحاسيسه، كل كامل لا ينافق ولا يحابي ولا يعادي ولا يحاسب ولا يلوم، قنوع لدرجة إهمال حقوقه، دعوب بقهقهته وتقاسيم وجهه وشروء نظراته، كل شيء عنده ملفوف بالحشمة والتعشف ونكران الذات."^٣ فهو رمز الاعتدال في كل الأمور، وتتجلى فيه البساطة والثقافة والأصالة.

^١ صحيفة "عكاظ" ١٠ أبريل ٢٠٠٩ العدد ١٥٥٦٧

^٢ صحيفة "المدينة" ٢٥ فبراير ٢٠٠٩

^٣ مجلة "العربي" الصادرة من الكويت، العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

ويرى ابراهيم الصلحي: "إن المحبة هي المدخل الحقيقي النافذ مباشرة إلى لب شخصيته وأدبه وقد عبر عنها كثيرا في كل ما كتب، كلمة أصلها ثابت في الأرض وفرعها يعانق الهواء والإنسان والسماء."^١

ويصفه صديقه عبد الواحد عبد الله يوسف: "أنه كان إنسانا رائعا زكي الفؤاد واسع الصدر عزيز النفس معتدل المزاج والتفكير لا يجنح شرقا أو غربا، يتحدث ببساطة وعمق، وفي أدب جم ودمائة خلق أشبه بسلوك أولياء الله الصالحين، فيه من تصوف ابن عربي وحذق الغزالي الشئ الكثير، وفيه من إباء المتتبي وشممه وجرأته وقدرته على الإبداع الشئ الكثير أيضا، وكان المتتبي ولايزال أحب الشعراء إلى نفسه، ولكنه بعيد عن صلف المتتبي وطموحه إلى السلطة والجاه، الطيب إنسان بسيط غاية في التواضع."^٢

هكذا كان الطيب صالحا مثقفا مثاليا توجد فيه رحابة الخيال، والتسامح، والبساطة وروح الدعابة. وأجمع ما قيل فيه هو كلمات الأستاذ صبحي غندو: "هو نموذج يجمع في شخصيته بين الوطنية السودانية وبين العروبة الثقافية، وبين الإسلام الحضاري وبين عالمية الإسلام الحر، فهو المثقف العربي الذي لم تحجب عنه هموم السودان، هموم الأمة العربية، التي فيها جاءت ثقافته ولغته، ولم يبهره تقدم الشمال الأدبي فينسى أنه ابن جنوب، هذه الأرض وما في الجنوب من فقر وتخلف وآلام ولم ير في مجتمع الغرب العصا السحرية لمشاكل العرب بل ساحة

^١ نفس المرجع

^٢ نفس المرجع

ومنبرا لإبداع الفكر العربي المستتير، إنه الطيب صالح الذي يجمع في شخصيته وكتابته بين الكلمة الطيبة والعمل الصالح.^١

أما إنتاجه الأدبي فإنه من المقلين، إنه كتب ثلاث روايات ومجموعة القصص القصيرة فقط، وترجمت بعض رواياته إلى أكثر من ثلاثين لغة. وتعتبر روايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال" واحدة من أفضل مائة رواية في العالم.^٢ ونشرت لأول مرة في أواخر الستينات من القرن العشرين في بيروت، وتم الاعتراف بكتابه هذا من قبل الأكاديمية العربية في دمشق على أنه "الرواية العربية الأفضل في القرن العشرين".^٣

بدأ الطيب صالح كتابة روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" عام ١٩٦٢م، وانقطع عنها أربع سنوات، فنشرها في مجلة "حوار" البيروتية عام ١٩٦٦م.^٤ ورأى بعض الكتاب أن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" طرحت قضية العلاقة بين الشمال والجنوب والإسلام والغرب، وهذه الرواية كانت تحديا صارخا للنظرة الاستشراقية، وغطت شهرة هذه الرواية على روايته الأولى "عرس الزين" التي كتبت عام ١٩٦٢م واستمرت مخيمة على باقي أعماله الأخرى التي صدرت في سبعينات القرن العشرين. لكن روايته "عرس الزين" حصلت على بعض الاهتمام عندما حولها

^١ مجلة "الحوار" نقلا عن قراءة نقدية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مقال للدكتور مجيب الرحمن، الأستاذ في مركز الدراسات العربية والإفريقية في جامعة جواهرلال نهرو، بنبو دلهي.

^٢ كتابات سودانية العدد ٤٧ إبريل ٢٠٠٩ ص ١٠١

^٣ نفس المصدر ص ١٢٨

^٤ الطيب صالح عبقرى الرواية العربية ص ١٩٦

المخرج الكويتي خالد الصديقي إلى فيلم يحمل الإسم ذاته، جرى عرضه في مهرجان كين انعقد في عام ١٩٧٤م.

وأما في مجال الصحافة فقد كتب عشرة أعوام عموداً اسبوعياً على عنوان "نحو أفق جديد" في مجلة "المجلة" الصادرة من لندن باللغة العربية، وكذلك خلال عمله في هيئة الإذاعة البريطانية قام بمعالجة عديد من المواضيع الأدبية، ومعظم كتاباته التي كانت تنشر في الصحف العربية تدور حول قضايا الأمة العربية.

ويمكن القول أن حالة الترحال والتنقل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعة بأحوال الحياة والعالم وأهم من ذلك أحوال أمته وقضاياها وهو ما وظفه في كتاباته وأعماله الروائية وخاصة روايته العالمية "موسم الهجرة إلى الشمال". ومعظم كتاباته تدور حول السياسة والاستعمار والمجتمع العربي والغربي والعلاقة بينهما. والحنين إلى الوطن عنصر طاغ على كتاباته. وبما أنه أقام سنوات طويلة في بريطانيا فان كتابته تتطرق إلى الاختلافات بين الحضارتين الغربية والشرقية. والطيب صالح معروف كأحد أشهر الكتاب في يومنا هذا، لا سيما بسبب قصصه القصيرة ورواياته المشهورة.

وإنه حاز في عام ٢٠٠٥م على جائزة ملتقى القاهرة الثالث للإبداع.^١ وبحسب النقاد، يمتاز الفن الروائي للطيب صالح بالالتصاق بالأجواء والمشاهد المحلية والبيئات الريفية وباللغة تلامس الواقع خالية من الرتوش والاستعارات، منجزاً

^١ مجلة "العربي" الصادرة من الكويت، العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

في هذا مساهمة جدية في تطور بناء الرواية العربية ودفعها إلى آفاق جديدة. وأن الشئ الأهم الذي صنعه الطيب صالح في الرواية العربية هو أنه أضاء مناطق مظلمة في الوعي العربي.

وظل يكتب في الصحف والمجلات العربية ويحاضر في النوادي الأدبية والمنتديات العلمية حتى توفي في يوم الأربعاء ١٨ فبراير عام ٢٠٠٩م في لندن. طيب الله ثراه وأسكنه في فسيح جناته.

أعماله الأدبية

رغم أنه معروف بإنتاجاته الأدبية في مجال النثر إلا أنه نظم بعض الأشعار أيضاً ولكن لم تنشر منها شيئاً^١ وكان أول إنتاجه الأدبي في النثر قصة قصيرة على عنوان "نخلة على الجدول" التي كتبها عام ١٩٥٣م. والجدير بالذكر أن الطيب صالح اشتهر في مجال الأدب بجودته ليس من كثرته لأن أعماله الأدبية قليلة تعد على الأصابع وهي:

١ عرس الزين (١٩٦٢م)

٢ موسم الهجرة إلى الشمال (١٩٦٦م)

٣ - بندر شاه (في جزئين: ضو البيت) (١٩٧١م)، ومريود (١٩٧٧م)

٤ - دومة ود حامد (مجموعة القصص القصيرة) (١٩٥٣م-١٩٥٦٢م)

٥ - الرجل القبرصي (القصة القصيرة) (١٩٨٠م)

^١ كتابات سودانية، العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ٦٨

وغير هذا له بعض المختارات أيضاً، منها:

١ - منسي: إنسان نادر على طريقته

٢ - المضيئون كالنجوم

٣ - للمدن تفرد وحديث: الشرق والغرب

٤ - في صحبة المتنبي ورفاقه

٥ - في رحاب الجنادرية

٦ - وطني السودان

٧ - ذكريات المواسم

٨ - خواطر وترحال

الفصل الثاني

دراسة تحليلية لروايات الطيب صالح

رواية "عرس الزين"

هذه رواية قصيرة كتبها الطيب صالح عام ١٩٦٢م، وتدور أحداثها في شمال السودان وخاصة في ريفه الذي تعود عليه الطيب صالح، يبرز فيها القرويون السودانيون بصفاتهم التي اشتهروا بها، هي طيبة القلوب، وصفاء النفوس، رغم المناوشات البسيطة التي قد تحدث بينهم والاعتقادات الكثيرة عن كرامات الأولياء، وكان من هؤلاء الأولياء "الحنين" الذي روى عنه الفلاحون كرامات كثيرة، منها: تحقق نبوءته بزواج الزين من نعمة واستمرت كراماته حتى بعد موته حيث تحقق للقرية خير كثير، ولأجل ذلك سمي ذلك العام عام الحنين.

تبدأ قصة رواية "عرس الزين" بانتشار الخبر العجيب الذي يفيد أن الزين يتزوج اليوم، وينزل هذا الخبر كالصاعقة على أهل القرية الذين لم يصدقوا ما سمعوا، "قالت حليلة بائعة اللبن لآمنة- وقد جاءت كعادتها قبل شروق الشمس- وهي تكيل لها لبنا بقرش: "سمعت الخبر؟ الزين مو داير يعرس".^١

فتبدأ الرواية بالسرد المتقطع من آخرها وليست من البداية كما تتقل حليلة بائعة اللبن الخبر لآمنة أن الزين سيتزوج اليوم، وكانت آمنة سبق أن تقدمت لخطبة نعمة

^١ رواية "عرس الزين" ص ٥

لابنها أحمد فإنها قد اهتمت بالموضوع، لأن سعدية أم نعمة ووالدها وأخواتها رفضوا الزواج، قائلين بأن الفتاة لم تصل إلى سن الزواج بعد، والآن هي تخطب للزين.

فيمضي الراوي بنا من الخبر الذي جاءت به حليلة ملقيا الضوء على تقنية سردية تعتمد على المفارقة الزمنية، فإنه يؤخر شيئا يجب تقديمه ثم يذكر متأخراً ما حدث في السابق، وينتشر هذا الخبر انتشارا واسعا حتى يصل إلى ناظر المدرسة الذي يترك مدرسته للتأكد مما سمع من أحد تلاميذه، ويشعر ناظر المدرسة بالخجل من نفسه والغيرة الشديدة، وذلك لأنه كان قد خطب نعمة لنفسه فردّ خائبا وخاسرا. وإنه كان يتبوأ مكانا عاليا في القرية، وكان يمزج الفصحى أثناء كلامه للتدليل على ثقافته وفهمه، ويصل هذا الخبر إلى عبد الصمد الذي جاء مطالبا بدينه من الشيخ علي فينسى أمر دينه ويعود مندهشا.

وإن الزين بما يحمل من صفات يعد من الرجال القبيحين جدا، فقد كان وجهه مستطيلا، ناتئ العظام، جبهته مستديرة، عيناه صغيرتان، ولم يكن على وجهه شعر، ولم تكن له حواجب ولا أجفان، وكان له رقبة طويلة وكتفان قويان وذراعان طويلتان كذراعي القرد ويدان غليظتان والصدر مجوف والظهر محدودب، وكان لا يلبس الأحذية إطلاقا، وكان إذا أراد الضحك - وهذه عادته دائما - يستلقي على قفاه ضاحكا، ثم يضرب الأرض بيديه ويرفع رجليه في الهواء ويظل

يضحك بطريقته الفذة.^١ إنه ولد ضاحكا على خلاف ما يولد عليه الأطفال، ولكنه يتمتع بقوة يعتقد أهل القرية "أنها خارقة ليست في مقدور بشر".^٢ وكان الزين يأكل بنهم حيث أن الناس كانوا لا يودون أن يجلس الزين معهم على مائدة واحدة. وبالرغم من ذلك كله، فإنه يمتاز بذوق رفيع في اختيار الفتاة. فكان لا يحب إلا أجملالفتيات وأحسنهن أدبا وأحلاهن كلاما، وكان إذا عشق فتاة يطلق صيحته المشهورة: "عوك يا أهل الحلة، يا ناس البلد فلانة كاتلاها كتيل، الزين مكتول في حوش...". وفلانة هي الفتاة التي يحبها، وهي التي قتلتها، وهو يذكر اسم أبيها بأنه قتيل في ساحة والدها، وهكذا أصبح الزين معروفاً في القرية بذوقه في الاختيار، فإذا أشار إلى فتاة وذكرها فسرعان ما يتقدم لها شاب ويتزوجها، وهكذا أصبح ضيفا معززا في البيوت تستقبله النساء حتى يشتهر أمرهن، وعندما تكرر هذا الشيء أدركت الأمهات أن في يده مفتاح زواج بناتهن، حتى بدأت الأمهات يتحالين لكي يرى الزين بناتهن، فيقع في حب إحداهن وبصيح بإسمها، فما تلبث أن تتزوج. وفي شخصيته مظاهر العبث، فمرة يهمز امرأة في وسطها، ومرة يقرص أخرى في فخذها، وهكذا كان يتلاعب بنساء القرية.

على أنه كان لا يقضي أوقاته كلها في معاينة النساء فحسب، بل له صداقات عديدة أبرزها صداقته مع "الحنين" الرجل الصوفي المنقطع للعبادة وكان الشيخ "الحنين" يقضي ستة أشهر في القرية منصرفا إلى الصيام والصلوة، ثم يغيب عنها

^١ نفس المصدر ص ١٢

^٢ عرس الزين ص ٤٦

سنة أشهر ثم يعود إليها قادماً من حيث لا يدري أحد، يرى الناس أنه من أهل الخطوة بينما يرى البعض الآخرون أنه يجتمع مع أولياء آخرين في الصحراء ويقضي أوقاته معهم في العبادة.

والزین من جهة أخرى كانت مصادقته مع العجزة في القرية: مثل عثمانة الطرشاء وموسى الأعرج وبخيت الذي ولد مشوها ليست له شفة وجنبه الأيسر مشلول. فقد كان يعطف على هؤلاء: اذا رأى عثمانة الطرشاء قادمة من الحقل، وهي تخاف من كل أحد، حمل عنها الحطب وداعبها. أما موسى الأعرج، فرجل طاعن في السن، يتقطر له قلبك من كثرة ما يعاني في مشيه، معدم بلا أهل ولا أحد يعتني به، أخذ الزين بيده وبنى له بيتا من جريد النخل يأتيه في كل يوم بالطعام.

ولأجل ذلك كانت تذيع أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله، و يلقبه الشيخ الحنين بالمبروك، فبفضله ساد الحب والمحبة، والحنين الذي إذا رآه الزين تخلى عن هذره وعانقه، وأنه لا يفعل ذلك إلا أمامه وأمام "نعمة" ابنة عمه. وهي أجمل الفتيات في القرية، والتي ترفض أفضل شباب أهل القرية الواحد تلو الآخر، وكانت تكفي نظرة غاضبة منها لتخلي الزين عن معابثة النساء والفرار من طريقها، إنها نفسها تخطب الزين للزواج منه وتحدد موعد العقد، وكانت تنهره أحياناً: "ما تخلي الطرطشة والكلام الفارغ وتمشي تشوف أشغالك"^١. وكانت نعمة الفتاة الوحيدة التي

^١ نفس المصدر ص ٢٨

يوقرها الزين ويكن لها الاحترام، فلا يتحدث معها ولا يعابثها، يفر من بين يديها، ويترك لها الطريق.

ثم يتم الزواج كما يقول الزين: "جاءتني الصباح بدري في بيتنا، وقالت لى قدام أمي: يوم الخميس يعقدوا لك علي، أنا وأنت نبقى راجل ومره، نسكن سوا ونعيش سوا"^١. ويقال إنها رأت الحنين في منامها، وقال لها: "عرسي الزين، المتعرس الزين ما بتتدم"^٢.

وهكذا يتم العرس الذي يثير دهشة أهل القرية وعجبهم. "فعرس الزين كان عجبيا، لكن العجب يبلغ قمته بإصرار امرأة- في تلك البيئة التي تحرم المرأة من أن يكون لها رأي- على اختيار زوجها، وخروجها على النواميس المستقرة في البلد، ولا يملك أهلها والمجتمع من حولها إلا الرضوخ والإذعان والدهشة"^٣

وتفعل "نعمة" ذلك مدفوعة بدافع من داخل قلبها وهي كانت تحلم بتضحية كبيرة لا تدري نوعها، وهي متدينة تقبل على حفظ القرآن، وتتلذذ بتلاوته، وتؤمن بالقضاء والقدر، وأن زواجها مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تولد، وحينما يخطر الزين على بالها كان شعورها هو "الشعور الذي تحسه الأم نحو أبنائها"^٤، ويمتزج بهذا شعور بالشفقة، ويخطر الزين على بالها كطفل يتيم يستحق الرعاية والعناية.

^١ نفس المصدر ص ٨٨

^٢ نفس المصدر ص ٩٢

^٣ الطيب صالح سيرة كاتب ونص، د- أحمد محمد البدوي، ص ١٣٥

^٤ عرس الزين ص ٣٩

وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية وجدنا أن الشيخ الحنين كان بمثابة المعجزة بالنسبة لأهل القرية، فهذا الشيخ الحنين هو الوحيد الذي استطاع أن يخلص سيف الدين من قبضة الزين بينما عجز الناس والعصابة عن إنقاذه، ولم يقل شيئاً إلا: "الزين... المبروك، الله يرضى عليك"^١، فانفكت قبضة الزين عن سيف الدين، وهو يتهاوى بين الحياة والموت. وهو الذي كان قد تكهن بأن الزين سيتزوج غداً من أحسن بنات القرية قائلاً: "باكر تعرس أحسن بنت في البلد دي"^٢، وبالإضافة إلى ذلك فقد بارك لأهل القرية: "ربنا يبارك فيكم، ربنا يجعل البركة فيكم"^٣، وبالفعل فقد حلت على القرية بركات المشروعات والخيرات بشكل متلاحق، وارتفعت أسعار القطن، وقامت الحكومة ببناء مدارس ومستشفى وغيرها.

ثم نتعرف على شخصية الإمام الذي يمثل الشرع، لم يكن له حقل ولا تجارة، وكان أهل البلد يعتبرونه بلا عمل على الرغم من أنه كان يعلم صبيانهم، إنه يذكرهم بأمور يحلو لهم أن ينسوها من موت وآخرة وفرائض، وكان يلهب ظهورهم بخطبه. وقد انقسم سكان البلد بسببه إلى معسكرات ثلاثة:

المعسكر الأول: كان أغلبه من الرجال الكبار والعقلاء وكان هذا المعسكر يعامل الإمام معاملة حسنة، وكانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد ويدعون له للطعام، ويجودون عليه بالأموال والهدايا. والمعسكر الثاني: فهو مكون من الشبان

^١ نفس المصدر ص ٤٧

^٢ نفس المصدر ص ٤٩

^٣ نفس المصدر ص ٦٠

العابثين الذين لا يصلون، وإنما يعادون إمام المسجد، فقد سافروا وتعلموا ورجعوا إلى البلد، ولم يكن يروقهم ما يقوله الإمام. فقد تأثروا بالمادية الصارخة والآراء الإشتراكية، فكانوا يشربون الخمر ويعابثون. والمعسكر الثالث: هو معسكر العصابة التي تحكم البلد، وهم سبعة رجال تلقاهم في كل أمر جليل يحل بالقرية في كل عرس وفي كل ماتم، هم الذين يحفرون المجاري إذا فاض النيل، وهم حماة الشرف، ويتدخلون في ما يجمعه العمدة، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء يحدث في القرية، وكان الإمام لا يحبهم، ولكنه كان يعلم أنه سجين في قبضتهم، فراتبه يجمعونه له من أهل الحي، وكان الزين يقضي معظم أوقاته مع هذه المجموعة وكانوا يحبونه ويحبهم.

وتشير هذه الرواية إلى الاحتفالات السودانية، والحفلة يكون فيها الرقص والغناء من جهة، والذكر والأوراد من جهة أخرى. وبينما كان هؤلاء الناس منهمكين ومشغولين في احتفالهم ليلة عرس الزين، اختفى الزين فجأة، فبيحث عنه الجميع حتى يجدونه باكيا بجوار قبر الحنين، وعندما يسأله محجوب ما الذي أتى بك؟ يجيبه قائلا: "أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس"^١. ويعودون به إلى حلقة الرقص، حيث يتحمس ويثير فيهم الحماسة كعادته، فيتغنون ويرقصون، وبذلك يفرح الجميع لتحقيق معجزة زواجه، وبذلك تنتهي الرواية.

أبعاد الرواية

^١ نفس المصدر ص ١٠٣

نجد في هذه الرواية أن قضية الرمز في الأسماء قد اتخذت أشكالاً متعددة، فالزين بطل الرواية يمثل شعب السودان بما يحمل من تناقضات وعفوية وطيبة وسذاجة. وإنّ التناقضات التي يتحلّى بها الزين نفسه، هي التناقضات الطبقيّة والعرقية التي تولّف السودان. فهذه الشخصية التي أطنب المؤلف في وصفها تجسد وصفا كاملا لشعب السودان.

أما الرمزية في إسم "نعمة"، فهي الرمز إلى أرض السودان الجميلة النقية الخصبة، والحنين بما يحمل من كرامات وتواضع يجسد الصوفية النقية التي توجد في السودان .

وتتناول الرواية قضية القهر الاجتماعي في السودان، ويأتي على طليعة هذه القضية قضية الرق، كما عرض المؤلف نموذجا منها: "موسى الذي لا يذكر الناس إسمه، ولكنهم يسمونه الأعرج، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلا يتفطر قلبك على كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق، كان عبدا رقيقا لرجل مؤسر في البلد... ولما توفي آلت الثروة إلى ابنه السفيف فبددها وطرد موسى... فعاش على حافة الحياة في البلد، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة".¹ إلا أن الرواية تقدم نموذجا للعدل الاجتماعي برفع القهر والمعاناة عنهم على يد الزين في تعامله مع موسى الأعرج الذي يعطف عليه ويبني له بيتا من جريد النخيل وكان يأتيه في كل يوم وليل ويسأله عن حاله.

¹ نفس المصدر ص ٣٧

وكذلك تشير هذه الرواية إلى الفترة الزمنية التي تناولها الرواية، هي سنوات الخمسين والستين، أيام الحرب الباردة بين الأمريكان والشيوعيين، كما تشير إلى ذلك الرواية "هل ستقوم الحرب أم لا؟"، هل الروس أقوى أم الأمريكان، ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو".^١

ونجد أن الرجوع إلى الدين لا يمكن أن يكون بالقوة والترهيب، وإنما بالطيبة والحنان واللين. فالإمام يمثل الجانب السلبي من الدين الذي ينظر إلى الدين من ناحية واحدة وهي ناحية الترهيب الشديد، "كان يلهب ظهورهم في خطبه، وكأنه ينتقم لنفسه منهم بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب والجنة والنار ومعصية الله والتوبة إليه، كلام ينزل في حلوهم كالسم".^٢

وأما الحنين فإنه يمثل الجانب الترغيبى الجميل للدين والذي يعطي للدين هبة ووقارا وخشوعا. "فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين، والحنين ولي صالح وهو لا يصادق أحدا إلا إذا أحس فيه قبسا من نور".^٣ وإن الحنين هو الذي غير سيف الدين وأخرجه من الظلمات إلى النور بعد أن كان مستهترا عابثا.

يعتقد الطيب صالح أن الدين والاهتمام به والرجوع إليه لا يمكن إلا باللين والمعاملة الحسنة والترغيب فيه، وأظهر هذه الحقيقة في تجسيد شخصية الحنين، وهذا لا يمكن بالترهيب القاتل كما تدل شخصية الإمام على هذا الأمر دلالة

^١ نفس المصدر ص ٧٤

^٢ نفس المصدر ص ٧٤

^٣ نفس المصدر ص ٧٩

واضحة. وبما أن الطيب صالح قد نشأ في بيئة صوفية، فأثر هذه النشأة واضح جلي في نظرتة الدينية. ولهذا السبب نجد في هذه الرواية بأن المؤلف يركز على القيم والمبادئ الإنسانية ويدعو إلى الحياة الإنسانية الصافية، ويذكر أن الغرب المادي لا يعرف هذه المبادئ والقيم كما يعرفها أهل القرية، ففي القرية يتضامن الناس رغم اختلافاتهم، ويتعايشون فيما بينهم، ويفضلون المصلحة العامة على احتياجاتهم الخاصة وينسون خلافاتهم لتحقيق تلك المصالح العامة.

رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"

هذه رواية متميزة كتبها الطيب صالح في عام ١٩٦٦م، وتحتل مكانة مرموقة بين الأوساط الأدبية العالمية منذ صدورها، وترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة عالمية، وفازت بالجوائز العديدة حتى اختيرت ضمن أفضل مائة رواية في التاريخ البشري. وفاز صاحبها بجائزة ملتقى القاهرة للإبداع الروائي في عام ٢٠٠٢م. ولقب بعقري الرواية العربية. وأهم ما يميز هذه الرواية في رأي البروفيسور مجيب الرحمن هو "الحيوية السردية التي تتبع في عفوية وتلقائية وتتسم باللغة الشاعرية المكتنزة والمقتدرة، وعنصر التشويق الذي يجعل القارئ يقلب صفحات الرواية، والذي يتضمن طرح الأسئلة والإجابة عنها إلى أن تكتمل الرواية".^١

تبدأ الرواية بعودة الراوي من إنجلترا بعد قضاء سبع سنوات يدرس خلالها في لندن، ويصف كيف استقبله أهل قريته فيقول: "فرحوا بي وضجوا حولي ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجا يذوب في دخيلتي فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس، ذاك دفء الحياة في العشيرة فقدته زمانا في بلاد 'تموت من البرد حيثانها'^٢ ولكنه يلاحظ بين هؤلاء الناس وجها غريبا لا يعرف الراوي عنه شيئا، يسأل أباه عن هذا الرجل الغريب (وهو بطل الرواية)، فيعرف أن اسمه مصطفى سعيد، إنه من الخرطوم، جاء إلى هذه القرية قبل خمس سنوات واشترى أرضا وبنى بيتا، وتزوج بإحدى بنات القرية وهي حسنة بنت محمود، ولكنهم لا يعلمون عنه الكثير.

^١قراءة نقدية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مقالة كتبها الأستاذ د- مجيب الرحمن.

^٢موسم الهجرة إلى الشمال ، ص ٥

والحقيقة أن مصطفى سعيد قد مات أبوه قبل أن يولد في عام ١٨٩٨م، فنشأته أمه تنشئة تخلو من حنان الأمومة والرعاية اللازمة، بينما كان عقله كالمديحة الحادة تقطع في برودة، فطوى المرحلة الأولى في عامين وكذلك المرحلة المتوسطة في أقل وقت ممكن، وبسبب ذكائه الفائق وعقله الحاد سنحت له الفرصة لمواصلة دراسته في القاهرة، وذلك على نفقة الحكومة، ولدى مغادرته بيته أعطته أمه صرة فيها بعض المال، ويروي مصطفى سعيد لحظة وداعه أمه قائلاً: "كان ذلك وداعنا، لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله"^١.

إنه وصل إلى القاهرة ودخل مدرسة ثانوية حيث ظهر نبوغه في الدراسة وهناك حظي بشيء من الحنان والرعاية من "مسز روبنسون" وزوجها، وبعد دراسته في القاهرة سافر إلى لندن حيث ظهرت عبقريته حتى أصبح مدرسا للاقتصاد بجامعة لندن، وفي إنجلترا أصبح مصطفى سعيد محط أنظار البريطانيين الكثيرات كأفريقي بدائي قوي، يجتذبن إليه بحكاياته المزورة الغربية عن الشرق والغابات والحيوانات الإفريقية، وكان منزله يشبه ببيت أمير شرقي، وتبعق فيه رائحة الند والصندل ويزينه بتمائيل العاج والأبنوس وبالصور الزيتية لغابات النخيل على شطآن النيل وبالسجاجيد العجيبة والمرايا الكبيرة، وبذلك اصطاد أربع نسوة لم تستطع ثلاث منهن التخلص من حبه سوى بالانتحار وتزوج من الرابعة وهي "جين موريس" إلا أن رائحة الخيانة كانت تفوح منها. وأخيرا قتلها بعد شهرين من الزواج.

^١ نفس المصدر ص ٢٧

ومصطفى سعيد يفعل ذلك كله انتقاماً من الحضارة الغربية، وعن رفضه للاستعمار بالعنف الذي كان وسيلة للانتقام من الحضارة الغربية خاصة، وكان هذا العنف موجهاً إلى النساء، وإنه أوضح بفعله هذا أن النسوة اللاتي توثقت بهن علاقته لم تكن في الواقع تحمل له الاحترام الذي تحمله لرجل من بني جنسها، بل يخفين احتقاراً في قلوبهن، حتى قالت له جين موريس: "أنت بشع، لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك"^١، و"شيليا غرينود" وهي خادمة في مطعم سوهو كانت تقول له: "أختي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلاً أسود ولكني لا أبالي"^٢، وهذا ما أثار نارالحقد والرغبة في الانتقام من هذه الحضارة وأهلها خاصة حين يتذكر ما فعلته بقومه. ويصور ما كان في نفسه تجاه المحلفين أثناء المحاكمة قائلاً: "أنا أحس تجاههم بنوع من التفوق، فالاحتفال مقام أصلاً بسببي... إنني الدخيل الذي يحب أن يبيت في أمره، حين جيئ لكشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزم في موقعة أتبرة قال له: "لماذا جئت بلدي تخرب وتتهب؟" الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً"^٣.

فيحكم على مصطفى سعيد بسبع سنوات يقضيها في السجن، ثم يطلق سراحه فيسافر إلى باريس وكوبنهاجن ودلهي قبل أن يستقر به المقام في قرية "ود

^١ نفس المصدر ص ٣٦

^٢ نفس المصدر ص ١٤٠

^٣ نفس المصدر ص ٩٧

حامد" في شمال السودان. وهناك تزوج من فتاة حسنة بنت محمود، وأنجب منها ولدين، وبدأ يعيش بين أهل القرية ولكنه لم يستطع التكيف مع هذه الحضارة. ثم يغادر الراوي إلى الخرطوم لمدة عامين لمواصلة مهنته التدريسية، وبعد ذلك يحضر في القرية فيعرف أن مصطفى سعيد قد مات غرقاً في النيل دون العثور على جثته، وقد ترك له مظروفاً مختوماً يوصيه فيه بولديه وزوجته وماله، وترك له أيضاً مفتاح حجرته السرية التي لم يدخلها أحد من بيته سواه. وبعد زمن قصير أبدى الشيخ العجوز ود الرئيس رغبته في الزواج من أرملة مصطفى سعيد، بينما كانت هي ترفض الزواج منه وتهدد بأنها تقتله وتقتل نفسها لو أرغمت على الزواج منه، وهو ما يحدث بالفعل، ثم يأتي الراوي إلى القرية بعد سماع خبر وفاتها، ولكن لا أحد يخبره بما حدث في القرية إلا بنت مجذوب وهي تحمل خصائص ذكورية، تدخن السجارة وتشرب الخمر وتتكلم بصوت رجالي، وهي تخبره عن الحادثة وتحمله مسؤولاً عنها بحيث كانت حسنة ترغب في الزواج منه، فعندئذ يحس الراوي في قلبه بلوعة من الحب لها، ثم يفتح الراوي الحجرة السرية، فيندهش لما يشاهد أنها مملوءة بالكتب الإنجليزية ومفروشة كمكتب أستاذ انجليزي تماماً، ولا يعثر الراوي على أي كتاب باللغة العربية ضمن الكتب العديدة والمتنوعة. وبعد ذلك بدأ ينتابه شعور جنوني فقرر أن ينهي حياته مثل مصطفى سعيد ولكنه تراجع عن ذلك واختار الحياة، وصرخ بما بقيت له من طاقة، النجدة النجدة... وبهذا تنتهي الرواية.

هذه ملخص الرواية التي تمتاز بتجسيد ثنائية التقاليد الشرقية والغربية، وهي أولى الروايات العربية التي تناولت قضية الصدام بين الحضارات بشكل فني، وكذلك موقف إنسان دول العالم الثالث النامي تجاه العالم الأول المتقدم. اعتمد الطيب صالح في هذه الرواية على استخدام المفارقة الزمنية والاسترجاع وتيار الشعور، وتحتوي على معان ومدلولات كثيرة، وتقدم لنا نموذجاً من الإبداع الفني، كما يقول توفيق بكرة:

"الموسم" بلا نزاع، صورة قوية من الإبداع الفني، وقد توخى فيه الطيب صالح مذهباً جديداً في الكتابة الروائية يزاوج بين الواقع والرمز والتاريخ والأسطورة. فالكلام يعمل على مستويين، ظاهر وباطن، ودونك الفصل الأخير، فتكاد كل الألفاظ فيه، النهر والسباحة والجنوب والشمال والعمى والبصر، تجهر بمعنى وتسربل بأخر، لأنها في آن واحد منطوقات حسية وإشارات رمزية. فالشئ شئ وزيادة، وهكذا تتراكم الدلالات فتحدث كالذبذبة في الفهم، توسع دائرة الفكرة. وأظهر ما يكون ذلك من الشخصيات، فالجد وسعيد وأمه جميعهم صورة آدمية وأبعاد خرافية تذهب في كل اتجاه، تشكيلات ميتولوجية بقدر ما هم كيانات ببيكولوجية ويتحددون بمعطيات الجغرافيا والتاريخ والحضارة أكثر من أن يحددوا بعوامل النفس. فإذا تكلم مصطفى سعيد عن نفسه بلغة الأقاليم والفرسان والبدو لم يتكلم مجازاً لأن حقيقته مكونة من كل ذلك. فهو وجه حضاري قبل أن يكون شخصاً واقعياً. وليس لتأوه مع إنجلترا لقاء فرد بمجتمع بل لقاء قارة بقارة وثقافة بثقافة جاوز

الطيب صالح التعاليل المعروفة في المنطق القصصي إلى سببية جديدة تدخل فيها عوامل التراث.^١

الاعتراضات الواردة على الرواية

سببت هذه الرواية إلى إثارة ضجة كبرى بين الأوساط الأدبية ورجال الدين في السودان وخارجه، ومنعت الرواية في السودان لبعض سنوات في التسعينات من القرن العشرين بما تتضمن من مشاهد ذات طابع جنسي، والإباحية المطلقة، وأجريت للروائي محاكمة أدبية في الخرطوم عام ١٩٨٧م، واتهم باتهامات عديدة منها:

١ الإباحية المطلقة، وهي كما تظهر من تدخين بنت مجذوب وشربها الخمر، وكذلك إباحية ود الريس الذي يضحك بالحديث الماجن ويشارك فيه ويمسك مسبحته، كما يقول في هذا الخصوص نزار محمد عثمان: "نقطة أخرى نذكرها وهي الإباحية المطلقة التي تتحدث بها بنت مجذوب وشربها للخمر وتدخينها للسجائر وكذلك إباحية ود الريس و جد الراوي الذي يضحك بالحديث الماجن ويشارك فيه ويمسك مسبحته، فهل هذه أخلاقنا في الريف الشمالي، لا شك الإجابة لا وألف لا...ولكن يكفي لنخلص منه إلى أن هذه الرواية لا تمثل المجتمع السوداني بل تنظر بعَدسات غريبة مائة بالمائة".^٢

^١ كتابات سودانية العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ١٤٤

^٢ مقالة عن "موسم الهجرة إلى الشمال لنزار محمد عثمان، موقع شبكة المشكاة الإسلامية

٢ - وعدم توافق البيانات فيما يتعلق بالتقاليد والعادات في المجتمع السوداني، كما يقول نزار محمد عثمان: "نقطة أخرى جديرة بالاهتمام هي الروح المساوية التي اكتتفت الرواية، فإذا بررنا انتحار أن همد وإيزابيلا سيمور وشيلا غرينود بأن ذلك يحدث كثيرا في أوربا، فبماذا نبرر انتحار مصطفى سعيد، وإقدام راوي القصة على الانتحار، ثم قتل مصطفى لجين موريس وقتل حسنة لود الريس، ثم انتحارها بعد ذلك، لا شك أن هذا التوتر المأساوي لا يمثل البيئة السودانية إطلاقاً"^١

٣ - وشخصيات غير إفريقية، والتصوير عن مجتمع متخيل ليس واقعي. وكانت الإجابة عنها أنه كان ينقل واقعيًا.

^١ نفس المصدر .

رواية "بندر شاه" مكونة من جزئين: ضو البيت ومريود

"ضو البيت"

هذه الرواية تتكون من جزئين: الجزء الأول "ضو البيت" والجزء الثاني "مريود". نشر الطيب صالح الجزء الأول منها في عام ١٩٧١م، بينما أصدر الجزء الثاني في عام ١٩٧٣م. وترجمت هذه الرواية إلى عديد من اللغات العالمية الحية، منها: اللغة الهولندية واليوغسلافية والفرنسية والإنجليزية وغيرها. وتتعامل هذه الرواية مع كون الأب ضحية لأبيه وابنه.

يقدم الطيب صالح في هذه الرواية قصة الصراع حول رئاسة الجمعية التعاونية بين محبوب وأولاد بكري، فإنه يقوم بتوجيه النقد إلى الإدارة في الجمعية التعاونية من خلال الأشخاص الذين لم يتوقع منهم ذلك، مثل "عشا البايتات" لأنه لم يكن أحد يتوقع أن يقف عشا البايتات أمام محبوب ويتهمه بالفساد. "إن الحكاية بدأت بنزاع حول أرض، فإن أم أولاد بكري هي أخت محبوب. كان محبوب يظن إن الأرض أرضه، ولكن أولاد بكري تصدوا له فجأة. وهو شيخ طعن في السن، وهم شباب في أوج رعونة الشباب. ظلوا ينازعونه حولاً بأكمله يطلعون لمحكمة وينزلون من محكمة"^١.

وكانت الإدارة الأهلية في السودان هي السلطة القانونية المخول لها تنفيذ وإصدار التشريعات لإدارة شؤون الناس، ظلت تشكل مركز إدارة الدولة في السودان

^١بندر شاه ضو البيت ص ٥٠

لفترة طويلة. وفي فترة الاستعمار الذي أعطى من "لايستحق ما لا يستحق" لتحقيق مصالحه الاستعمارية، وذلك لان جماعة محجوب جعلوا كلمة "فلان عنده قبول" مبررا لكل أفعالهم التي كانوا يمارسونها في الجمعية التعاونية، سواء كان ذلك بإيعاز من السلطة الاستعمارية أو من السلطات المحلية.

"وانتهى الأمر بانعقاد الجمعية برئاسة باش مفتش التعاون الذي جاء خصيصا من مروى لذلك اليوم المشهود. قال ود الرئيس إن الطريقي ولد بكري كان أول المتكلمين قرأ عريضة طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم. اتهم محجوب بالفساد والرشوة والسرقه والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال وهلم جر.^١"

وكانت الاتهامات أشد وقعا وتأثيرا على لسان عشا البايتات، كما يقول: "وأنا أقول ليكم خطبة عشا البايتات في اجتماع الجمعية ... لا سلام عليكم ولا بسم الله ولا الحمد لله، قال يا جماعة الخير محجوب وناس الطاهر وسعيد ناس أصحابي. محجوب حبابه عشرة. راجل ما يتفضل عليكم... لكن الحق لله الجماعة أكلوا البلد، نتفوا لحمها ما خلوا غير العظم. الخراب... الشى ال أكلوه ما في إنسان عاوز يرجعه منهم. ناس عليك أمان الله تلقاهم في الحارة والباردة. سرقوا ونهبوا البلد، الله لا يكسبهم حسنة."^٢

^١ نفس المصدر ص ٥٢

^٢ نفس المصدر ٧١-٧٢

فما يستفاد منه أنه يدعو إلى التغيير نحو الأفضل، وشارك فيه الشباب الذين يؤمنون بالتجديد والتغيير إلى ما هو أحسن من أجل التقدم والتطور في ود حامد، وهؤلاء الشباب يشكلون الكتلة الحديثة التي لا تراعي العادات والتقاليد القديمة من أجل الإصلاح والتغيير، بل إنها ثورة في حد ذاتها، تداخلت فيها الأبعاد السياسية والاجتماعية. وبين الكتلة التقليدية التي تمثلت في عشا البايتات وناس سيف الدين وسعيد البوم الذين كانوا رافضين أصلا للأوضاع القديمة وبيحثون عن يقوم بحركة التغيير وعندما وجدوها كانوا أول الملتحقين بها.

"محبوب وجماعته ظنوا أن ليهم حق الهي في السلطة. نسوا إن البلد اتغيرت. حاجات كثيرة حصلت. ود حامد ما عادت ود حامد قبل ثلاثين سنة. ظهرت أجيال جديدة ومطالب جديدة. زمان كان لما الباخرة تظهر الناس يتلموا تحت الدومة ويتفرجوا عليها كأنها معجزة. دلوقت الوضع تغير"¹

فهذا أكبر دليل على الرفض لنظرية التفويض الإلهي للسلطة وهو أن الحاكم يستمد قوته من الإله وهو ممثله في الأرض. لذلك كل أفعاله لا يمكن محاسبته عليها لأنها منزلة من الله. هذه النظرة أرادها الطيب صالح أن تزول وتتغير إلى ما يعرف بآلية النظام السياسي وهو الذي يوجد وفقا لمؤثرات عديدة. فهو نظام يتأثر بالحراك الاجتماعي من حوله ثقافيا وسياسيا واجتماعيا وعلميا ولا ينفصل عن محيطه الإقليمي.

¹ نفس المصدر ص ١٠١

وفي الفصل الثاني يظهر من النيل رجل غريب، وهو ضوء البيت، جندي أبيض مصاب بالجروح، والذي يعاني من فقدان الذاكرة وقد جرفته أمواج النيل على ضفاف ود حامد، فيراعيه أهل القرية وهو ينال الشفاء على أيديهم، ثم يعتنق الإسلام ويتزوج فتاة التي كانت تعتني به أثناء مرضه، وبعد ذلك إنه يصبح مزارعا ناجحا، ويساهم بشكل كبير في تطوير القرية بطرق عدة، ويجلب البضائع الجديدة ويدخل محاصيل جديدة خاصة من أسفاره الواسعة، إلا أنه يختفي في النيل فجأة، مثلما كان قد ظهر في ظروف غامضة، ويوصف اختفائه في الرواية باللغة الصوفية، ولكنه يترك وراءه ذريته المباركة: إينبندر شاه الذي يكون أباً لمريود الذي يحمل التشابه الغريب لجدّه الأسطوري، ويتولى بعد ذلك جيل الشباب زمام الأمر من أيدي الشيوخ، ويودون إدخال التحديث في القرية ومعالجة المشاكل المصاحبة، وهناك مزيج من الواقعية والأسطورة، ونفس أسلوب السرد يعتمد على الاسترجاع الذي قد شاهدناه في أعمال الطيب صالح السابقة. ويمثل بندرشاه مرحلة لاحقة في تطوير رؤية الطيب صالح عن صورة مصغرة عن العالم، ود حامد. هذه هي ملخص الرواية.

"مريود"

تدور الأحداث في بداية الرواية عن محييد وحفيده، وكيف يبرز الحفيد جده، ويعلو شأنه على آباءه، وهناك تشابه بين الجد وحفيده في الملامح الجسدية

والتركيب النفسي، فيبدو كأنهما شخص واحد، عندما تأتي أية فكرة في ذهن الجد، ففي نفس الوقت تخطر نفس الفكرة للحفيد أيضا، حتى إذا قال أحدهما جملة فأكملها الآخر.

ثم في الفصل الثاني وهو سعيد عشا البايتات، يدور فيه الحديث عن الحمير التي يركبونها في أسفارهم، ويطلقون على حمار إسم القبيلة التي يعود إليها أصله، مثل البشر تماما، وهم يعرفون أنساب الحمير، إلا سعيد الذي يدور الحديث عنه، وذلك لأن انشغاله بالسياسة قد أفسد عليه معرفة أنساب الحمير. وفي الفصل الثالث وهو الطاهر ود الرواسي، يتحدث الطاهر ود الرواسي وهو يصطاد السمك عند النهر عن أنساب السمك مثلما يتحدث الناس عن أنساب البشر، والنزاع يدور بينه وبين السمكة، إنما يدور مع حفيذة سمكة كان اصطيادها قبل أربعين عاما، وذات مرة خرجت له حورية الماء من البحر، خاطبته وعادت إلى الماء . يشير هذا الفصل إلى تاريخ ود حامد منذ عهد ما قبل المهديّة إلى عهد المهدي والخليفة التعايشي، وذلك من خلال الكلام عن بلال والد الطاهر ود الرواسي وهو المؤذن ومصاحبته للشيخ نصر الله، ينقطع بلال إلى العبادة وخدمة شيخه نصر الله، ويفضله على نفسه وبأمر من شيخه يتزوج من امرأة غاية في الجمال، فينجب منها الطاهر ود الرواسي الذي اتخذ من المحبة شعارا له.

وتدور أحداث الفصل الأخير عن مريم على لسان بكري الذي يعود إليه ذكريات الطفولة معها بعدما ماتت مريم في ريعان شبابها ولم تتزوج، وفي نهاية

الفصل يدور الحوار بينها وبين الراوي (مريود) حوار متمم بطابع صوفي مستمد من القرآن الكريم مثلما كان الحوار بين موسى عليه السلام والرجل الصالح مع شروط الاصطحاب. وبذلك تنتهي الرواية.

فهذه الرواية "بندر شاه" المكونة من كلا الجزئين رواية متميزة وموغلة في الرمز والأسطورة والخرافة، يقول عنها عبد الوهاب المؤدب:

"إنه نفس النيل الذي في "موسم الهجرة" نجده في "بندر شاه" هذه الرواية الرائعة تحرك التصوف الشعبي، وتكشف عن قدرة خارقة في محاوره ما لا يرى، ومع توالى نسيج السرد الذي تحيكه العبارة، من شخصية إلى أخرى، من جيل إلى جيل، يتحول ما يحدث إلى الخرافة.. وكل قضايا الإنسان الكبرى يعالجها الكاتب ببساطة لغة بدوية لا تمس العمق في شيء. قضايا مثل التوأم والشبيه، السلطة وامتدادها في الشعائر، العذاب واللذة، كل ذلك وغيرها تأتي إلينا بكتابة تعرف كيف تتجنب التجريد دون أن تبسط الأمور أو تقلل من شأنها. ويقودنا القسم الأخير من الكتاب نحو عالم آخر بعيد المنال لحب مطلق لا يمكن أن تنتهي إلا في الخسارة والموت، إنها صفحات من الإبداع الخالص، صفحات نادرة في اقتصادنا الروائي."¹

ويقول عنها الناقد رجاء النقاش: "فلا يمكن والحال هذه تلخيص الأنغام والسيمفونيات، ولكن الصحيح هو أن نسمعها كلها، أو نسمع أجزاء منها، فلكل جزء

¹ كتابات سودانية العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ١٤٣ - ١٤٤

سحره وجماله. هكذا نجد أنفسنا مع مريود، فهي من الأعمال القليلة جدا في أدبنا العربي، والتي يحن الإنسان، بعد أن يطوي صفحاتها الأخيرة، إلى إعادة القراءة لصفحة معينة منها، أو سطور محددة. فما تعطيه لنا الرواية من متعة روحية وفكرية في معناها العام، لا يلغي المتعة الأخرى التي تتبع من "الجزئيات" فيها، سواء أكانت هذه الجزئيات جملة أم عبارة، أم مقطعا كاملا، أم أسطورة، أم وصفا لمنظر من المناظر، أم تأملا في لحظة من لحظات النفس والحياة".¹

لقد حاول الطيب صالح في هذه الرواية إلى استكشاف عالم وهمي، وأظهر من خلاله ملامح سودانية، هي ملامح اكتشاف لوضعنا في الماضي والحاضر والمستقبل. نحن نعيش في عالم متغير دائما، نستفيد كثيرا بالتمسك بالحضارة الحديثة ولكن تضيع منا أشياء كثيرة وجميلة، وإنه لا يقلد أحدا في طرائق السرد، بل يقوم بمزجه بين الواقع المائل والأسطورة والخرافة في سياقات وأزمنة متداخلة، ويأتي بمضامين متنوعة ومتفردة ومتجددة لا يكون مثلها في السابق، ويعبر عن الأحاسيس وخلجات النفس والمشاعر في لغة شاعرية أنيقة مملوءة بالإيقاعات والأنغام الداخلية، وهكذا يحتل مكانا متميزا في عالم الرواية العربية المعاصرة.

¹مجلة "العربي" الكويتية العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

الفصل الثالث

المواضيع والقضايا التي عالجها الطيب صالح في رواياته

تعتبر روايات الطيب صالح وخاصة روايته الرائعة "موسم الهجرة إلى الشمال" من الروايات التي نالت شهرة واسعة على المستوى الدولي، وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية، وبما أنه عاش فترة طويلة من حياته في الغرب، فله تأثير كبير على كتاباته، وتتطرق كتاباته بصورة عامة إلى موضوع مركزي واحد هو الصراع بين الحضارة الشرقية والغربية والاستعمار، وبين القرية والمدينة، وبين القديم والحديث، ولم تكن قضية الصراع بين الحضارتين مجهولة من قبل، بل عبر عنها كثير من كبار الكتاب العرب، منهم: توفيق الحكيم في روايته "عصفور من الشرق"، ويحيى حقي في روايته "قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس في "الحي اللاتيني"^١ إلا أن الطيب صالح قد عالج هذه الفكرة والقضية بشكل أعمق بسبب تكوينه الثقافي والنفسي والاجتماعي من خلال روايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال"، كما يقول روغران: "رواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' للطيب صالح هي أحد أعمال عديدة في الأدب العربي الحديث تعالج موضوع اللقاء بين الحضارتين العربية والغربية، وبصورة خاصة قضية الصدام بين القيم التقليدية والقيم الحديثة."^٢

الصراع بين الحضارة الشرقية والغربية

^١ الطيب صالح عبقرى الرواية العربية ص ٧٩

^٢ كتابات سودانية العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ١٤٣

يبدأ الصراع بين الحضارتين عندما يسافر بطل الرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" مصطفى سعيد إلى لندن بعدما رأى ما يحمل الاستعمار من الاحتقار والحدق تجاه السودانيين، وهناك يواجه نفس المعاملة، حينما تقول له جين موريس: "أنت بشع، لم أر في حياتي وجها بشعا كوجهك"^١، وحتى شيلا غرينود وهي خادمة في مطعم سوهو تقول له: أختي ستجن وأبي سيقطنني إذا علما أنني أحب رجلا أسود ولكنني لا أباي"^٢. فالاحتقار الكامن حتى في قلوب النساء، فهو الذي سبب إلى إثارة الرغبة في الأخذ بالثأر من تلك الحضارة وأهلها. لأن العلاقة بين مصطفى سعيد والفتيات الإنجليزيات لم تتجاوز العلاقة الجسدية، ولم تكن هذه العلاقة علاقة حب حقيقي، بل كانت علاقة شهوانية وحسية قائمة على الاستغلال، لأنهن يرين في مصطفى سعيد مظهرا للقوة البدائية لإطفاء جمرة شهواتهن به. ثم يتسلط الصراع بين الشمال والجنوب على الراوي وبطل الرواية مصطفى سعيد كما يقول الراوي بعد عودته من لندن: "فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجا يذوب في دخيلتي، فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس، ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زمانا في بلاد تموت من البرد حيثانها"^٣.

وكذلك يتجلى الصراع بين الشرق والغرب لدى عودة الراوي من لندن إلى قريته، وحينما يسأله أهل القرية عن الغرب وما فيه، كما يقول الراوي: "سألوني عن

^١ موسم الهجرة إلى الشمال ص ٣٦

^٢ نفس المصدر ص ٧٦

^٣ نفس المصدر ص ٥

أوروبا: هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون إن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال، وسألني ود الرئيس: "هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟"^١ والرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" تمثل تحدياً للنظرة الاستشراقية كما يقول الطيب صالح: "موسم الهجرة إلى الشمال كانت تحدياً صارخاً للنظرة الاستشراقية" ثم يضيف قائلاً: "إن موسم الهجرة إلى الشمال كانت من المؤثرات القوية التي اعتمد عليها إردوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، والذي تحدى به هذه النظرة الاستشراقية."^٢ ويتجلى هذا التحدي في الرواية في عبارات صريحة، يقول الراوي عن الاستعمار: "كان مفتش المركز الإنكليزي إليها يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند، وكانوا يتصرفون كالألهة، يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم، هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد وحبهم، هم المستعمرون الدخلاء."^٣ ويقول الراوي: "كل أحد متعصب بطريقة أو أخرى... الرجل الأبيض لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظل

^١ نفس المصدر ص ٧

^٢ مجلة "العربي" الكويتية العدد ٥٦٠ أبريل ٢٠٠٥م

^٣ موسم الهجرة إلى الشمال ص ٥٧

أمدًا طويلًا يحس نحنًا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف.^١ ويقول مصطفى سعيد: "إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة، وقعقة سنايك خيل النبي وهي تطأ أرض القدس، البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الحديد. قد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول "نعم" بلغتهم. إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم يا سادتي، أنني جئتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ. أنا لست عطيل، عطيل كان أكذوبة."^٢ ويقول الراوي في موقع آخر من الرواية: "نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحون فقراء، ولكنني حين أعانق جدي أحس بالغنى، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه."^٣

فهكذا يشتد الصراع بين الحضارتين وبين الجنوب والشمال، والشمال هنا عبارة عن التقدم العلمي والجنوب نقيضه أي التخلف، فهي علاقة المتقدم بالمتخلف وعلاقة المستعمر بالمضطهد والقاهر بالمقهور وبالعكس، فهذا الإحساس بالاستغلال والاضطهاد يجبر المقموع والمضطهد أن يأخذ الثأر من تلك الحضارة، فيتحول المقموع والمستعمر إلى القامع والمستعمر، ويريد الانتقام بأي شكل من الأشكال. فبطل

^١ نفس المصدر ص ٦٣

^٢ نفس المصدر ص ٩٧-٩٨

^٣ نفس المصدر ص ٧٧

الرواية مصطفى سعيد رغم نبوغه العقلي والتفوق العلمي ورغم القبول الذي وجدته في المجتمع الانجليزي، كان هناك حقد يغلى في صدره، ولأجل ذلك إنه لم يتأثر برعاية مسز روبنسون وزوجها والأساتذة الإنجليز الآخرين الذين مدوا أيديهم نحوه، وكل ذلك لم يكن كافيا لاستعادة إحساسه بالكرامة، فتقوده غريزته الفحولية إلى الطريق الثاني، فينغمس في حياة بوهيمية مع الفتيات البريطانيات، وإنه يظن أن الثأر للكرامة لا يكون إلا بهتك عرض الأوروبيين. كان يقول: "سأحرر أفريقيا ب...". أي بفحولته، وأدى ذلك إلى التسبب في انتحار ثلاث فتيات وقتل الرابعة.

وكذلك تتعامل الرواية مع قضية الصراع النفسي الذي يجده الرجل في داخله، كما أن بطل الرواية مصطفى سعيد لما عاد إلى وطنه بعد قضاء سبع سنوات في السجن فإنه لم يتمكن من التكيف في وطنه أيضا، إنه عاش غريبا في الغرب وبدأ يعيش غريبا حتى في بلده، لا يجد له القرار، فكان من الطبيعي أن يقوم بالانتحار ويتنازل عن حياته التعيسة والمحبطة. كما تتجلى قضية الأصالة والاعتراب والهوية في هذه الرواية كما يقول الراوي بعد عودته إلى قريته: "ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير، أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق قامتها، فأحس بالطمأنينة، أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مخلوق له أصل، له جذور، له هدف".^١ ويقول في موضع آخر:

^١ نفس المصدر ص ٦

"الوجه هناك كنت اتخيلها قمحية أو سوداء، فتبدو وجوها لقوم أعرفهم، هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا نبتت في فناء دارنا، ولم تنبت في دار غيرها".^١ ويقول الراوي في مكان آخر: "تمهلت عند باب الغرفة، وأنا استمرىء ذلك الإحساس العذب، الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر، إحساس صاف بالعجب، من أن ذلك الكيان العتيق، ما يزال موجوداً أصلاً على ظاهر الأرض، وحين أعانقه، أستنشق رائحته الفريدة، التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة، ورائحة الطفل الرضيع...نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوربي، فلاحون فقراء، ولكنني حين أعانق جدي، أحس بالغنى، كأني نعمة من دقات قلب الكون نفسه"^٢ فهكذا تبرز الرواية أهمية الجذور والأصول في حياة الإنسان.

إلا أن المؤلف يتخذ موقف تصالح وتسامح بين الحضارتين كما يقول الراوي: "وكونهم جاءوا إلى ديارنا لا أدري لماذا، هل معنى ذلك أننا نسمح حاضرتنا ومستقبلنا. إنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة، سكك الحديد والبواخر والمستشفيات والمصانع والمدارس ستكون لنا، وستحدث لغتهم دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل، سنكون كما نحن قوم عاديون، وإذا كنا أكاذيب فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا".^٣

^١ نفس المصدر ص ٥٣

^٢ نفس المصدر ص ٧٧

^٣ نفس المصدر ص ٥٣

والقضية الأخرى التي عالجها الطيب صالح في رواياته هو أنه أضاء مناطق مظلمة عديدة في الوعي العربي من خلال كتاباته كما يقول: "يبدو لي أن أهم شيء صنعه في الرواية العربية أنني أضأت مناطق مظلمة في الوعي العربي."^١

وفي الحقيقة أنه فعل ذلك بتوظيف البيئات الريفية السودانية في كتاباته الروائية والقصصية. فاستطاع بذلك أن يفتح أبوابا جديدة للثقافة العربية وأن يوصل الشخصيات السودانية بكل تاريخها وملامحها إلى العالم، واخترق حواجز الزمان والمكان والثقافة وحول بها الثقافة المحلية إلى ثقافة عالمية. وشارك فيه أدباء آخرون مثل البشير خير الذي كتب عن الجنوب التونسي، وعبد الكريم غلاب من المغرب، وطاهر وطّار من الجزائر، غالب هلسا من الأردن، وإبراهيم الكوني من ليبيا، ونجيب محفوظ من مصر وغيرهم، إنهم نجحوا في فرض ثقافة الجنوب على الشمال ونقل الأدب العربي إلى العالمية.

وأيضا تتناول هذه الرواية قضايا الهوية والأصالة والاعتراب وحق تقرير المصير وأزمة الهجرة الداخلية والخارجية والصراع بين التقليد والحداثة وقلّة الاتزان بين القلب والعقل وغيرها من الموضوعات والقضايا التي تحير القارئ كثافتها. والهجرة الداخلية هي في الواقع اغتراب وغربة وهي تتمثل في الغربة عن

^١مجلة "العربي" الكويتية، العدد ٥٦٠ يوليو ٢٠٠٥م

الذات رغم الالتصاق الوثيق بها. والحنين إلى الوطن عنصر طاغ على كتاباته الروائية والقصصية.

وكذلك تتناول رواية "عرس الزين" قضية الصراع بين المدينة والقرية التي تتمثل في الدين، كما نجد في هذه الرواية سلسلة من العلاقات المتوترة بين الزين والحنين الذين يمثلان الإسلام الشعبي، وبين الإمام الذي يمثل الإسلام الرسمي ويتقاضى راتبه من الحكومة، وللطريقة الصوفية تأثير كبير على السودان خاصة على سكان القرى، فإنهم يمتلكون اعتقادات كثيرة عن كرامات الأولياء، وكان من هؤلاء الأولياء "الحنين" الرجل الصوفي المنقطع للعبادة وكان الشيخ "الحنين" يقضي ستة أشهر في القرية منصرفاً إلى الصيام والصلوة، ثم يغيب عنها ستة أشهر ثم يعود إليها قادماً من حيث لا يدري أحد، يظن الناس أنه من أهل الخطوة بينما يرى البعض الآخرون أنه يجتمع مع أولياء آخرين في الصحراء ويقضي أوقاته معهم في العبادة. وكان الزين الصديق الوحيد للشيخ الحنين في القرية.

والزين من جهة أخرى كانت مصادقته مع العجزة والمعاقين في القرية: مثل عثمانة الطرشاء وموسى الأعرج وبخيت الذي ولد مشوها ليست له شفة وجنبه الأيسر مشلول. ولأجل ذلك كانت تضيع أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله، و يلقبه الشيخ الحنين بالمبروك، والحنين الذي إذا رآه الزين تخلى عن هذره وعانقه.

وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية وجدنا أن الشيخ الحنين كان بمثابة المعجزة بالنسبة لأهل القرية، فهذا الشيخ الحنين هو الوحيد الذي استطاع أن

يخلص سيف الدين من قبضة الزين بينما عجز الناس عن إنقاذه، ولم يقل شيئاً إلا: "الزين... المبروك، الله يرضى عليك"^١، فانفكت قبضة الزين عن سيف الدين، وهو كان ساكناً هادئاً بين الحياة والموت. وهو الذي كان قد تكهن بأن الزين سيتزوج غداً من أحسن بنات القرية قائلاً: "باكر تعرس أحسن بنت في البلد دي"^٢، وبالإضافة إلى ذلك فقد بارك لأهل القرية: "رنا يبارك فيكم، رنا يجعل البركة فيكم"^٣، وبالفعل فقد حلت على القرية بركات المشروعات والخيرات بشكل متلاحق، وارتفعت أسعار القطن، وقامت الحكومة ببناء مدارس ومستشفى وغيرها. وإن الشيخ الحنين هو الذي غير سيف الدين وأخرجه من الظلمات إلى النور بعد أن كان مستهتراً عابثاً. فالشيخ الحنين والزين يمثلان الإسلام الشعبي المتمسك بالطابع الصوفي بين أهالي القرية.

والإمام هو يمثل الشرع والإسلام الرسمي، إنه كان يلهبهم بخطبه الرنانة، ويذكرهم بأمر يحلو لهم أن ينسوها من موت وأخرة وفرائض، وقد انقسم سكان القرية بسببه إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى: كانوا أغلبها من الرجال الكبار والعقلاء وكان هذا المعسكر يعامل الإمام معاملة حسنة، وكانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد، ويجودون عليه بالأموال والهدايا. والمجموعة الثانية: فهي مكونة من الشبان العابثين الذين لا يصلون، وإنما يعادون إمام المسجد، فقد سافروا

^١ عرس الزين ص ٤٧

^٢ نفس المصدر ص ٤٩

^٣ عرس الزين ص ٦٠

وتعلموا ورجعوا إلى البلد، ولم يكن يروقهم ما يقوله الأمام. فقد تأثروا بالمادية الصارخة والآراء الإشتراكية، فكانوا يشربون الخمر ويعابثون. والمجموعة الثالثة: هي مجموعة العصابة التي تحكم البلد، وهم سبعة رجال تلقاهم في كل أمر جليل يحل بالقرية، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء يحدث في القرية، وكان الإمام لا يحبهم، ولكنه كان يعلم أنه سجين في قبضتهم، فراتبه يجمعونه له من أهل الحي، فهكذا نجد الصراع بين المدينة والقرية عن طريق الإسلام الرسمي والإسلام الشعبي.

وكذلك تتناول رواية "عرس الزين" قضية الرق في المجتمع السوداني، كما قدم الطيب صالح نموذجا منها: "موسى الذي لا يذكر الناس إسمه، ولكنهم يسمونه الأعرج، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلا يتفطر قلبك على كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق، كان عبدا رقيقا لرجل مؤسر في البلد... ولما توفي آلت الثروة إلى ابنه السفيه فبددها وطرد موسى... فعاش على حافة الحياة في البلد، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة".¹ وكما أشار إلى هذا الجانب عثمان حسن أحمد قائلا: "والرواية تتعرض في ذكاء ودقة إلى مسائل حساسة في حياتنا نتجنبها ونتجنب الحديث عنها، فقصة موسى الأعرج تحمل بين دفتيها موقفنا المزدوج من "الرقيق"، فما نزال رغم المنع الرسمي للاسترقاق وتحري الإنسان نعتبرهم رقيقا، يتزاجون من بعض أو ينزحون إلى "الواحة"، وقد يعيشون

¹ نفس المصدر ص ٣٧

في كنفنا لو شاءوا أو قد يهربون ليكسبوا عيشهم بكل السبل، يلفظهم لو "ورثهم" سفيه فاجر كسيف الدين، أو أن يبرهم ويقيهم عائدات الزمن لو كان كريما يبغى السير على سيرة أسلافه أو برا بأبيه أو حافظا "لحقوقه". ومحاولة الأديب هذا رغم أنها جانبية أعجبتني لأنها شجاعة وجريئة في بلد شعاره 'ستر العورة'،^١ فقضية الرق في المجتمع السوداني قد عالجها الطيب صالح في هذه الرواية في ذكاء وبدقة. ونجد فيها الصراع بين القديم والجديد وهو تغلغل المدينة إلى القرية تحت رعاية العادات والتقاليد والعقائد الخاصة بسكان القرية.

وكذلك تتناول رواية "بندر شاه" المكونة من جزئين "ضوء البيت" و"مريود"، قضية الصراع بين المدينة والقرية وبين القديم والحديث، ففي الجزء الأول يقدم الطيب صالح قصة الصراع حول رئاسة الجمعية التعاونية بين محبوب وأولاد بكري، وجماعة محبوب أنهم كانوا يتولون زمام الحكم منذ زمن بعيد، ويتصرفون فيه كما يشاءون، وكانت الإدارة في الجمعية التعاونية هي السلطة القانونية لإدارة شؤون الناس، ظلت تشكل مركز إدارة الدولة في السودان لفترة طويلة. وفي فترة الاستعمار الذي أعطى "من لا يستحق ما لا يستحق" لتحقيق مصالحه الاستعمارية، وذلك لأن جماعة محبوب جعلوا كلمة "فلان عنده قبول" مبررا لكل أعمالهم التي كانوا يمارسونها في الجمعية التعاونية، سواء كان ذلك بإيعاز من السلطة الاستعمارية أو من السلطات المحلية. فيتم توجيه النقد إلى

^١ الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، ص ١٨٩

الإدارة في الجمعية التعاونية من خلال الشخصية "عشا البايتات" لأنه لم يكن يتوقع أحد أن يقوم عشا البايتات بتوجيه الاتهام إلى محبوب بالفساد. كما يقول ود الرئيس: "إن الطريفي ولد بكري كان أول المتكلمين قرأ عريضة طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم. اتهم محبوب بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال وهلم جر."^١

وكانت الاتهامات أشد وقعا وتأثيرا على لسان عشا البايتات، كما يقول: "وأنا أقول لكم خطبة عشا البايتات في اجتماع الجمعية ... لا سلام عليكم ولا بسم الله ولا الحمد لله، قال يا جماعة الخير محبوب وناس الطاهر وسعيد ناس أصحابي. محبوب حبابه عشرة. راجل ما يتفضل عليكم... لكن الحق لله الجماعة أكلوا البلد، نتقوا لحمها ما خلوا غير العظم. الخراب... الشي ال أكلوه ما في إنسان عاوز يرجعه منهم. ناس عليك أمان الله تلقاهم في الحارة والباردة. سرقوا ونهبوا البلد، الله لا يكسبهم حسنة."^٢

فجماعة محبوب إنهم حكموا البلاد حسب تصرفاتهم حتى سئم الناس من هذه الجماعة واضطروا إلى توجيه الاتهام إليها بالفساد والرشوة وعدم الكفاءة والإهمال في الواجب. ودعوا إلى التغيير والتجديد، وشارك في هذا الشباب الذين يؤمنون بالتجديد والإصلاح من أجل التقدم والتطور في قرية ود حامد، وهؤلاء الشباب يشكلون الكتلة الحديثة التي لا تراعي العادات والتقاليد القديمة من أجل

^١ ضوء البيت ص ٥٢

^٢ نفس المصدر ٧١-٧٢

الإصلاح والتغيير. وكانوا رافضين أصلاً للأوضاع القديمة المتواجدة آنذاك، كما يقول الطريفي:

"محجوب وجماعته ظنوا أن لديهم حق إلهي في السلطة. نسوا إن البلد اتغيرت. حاجات كثيرة حصلت. ود حامد ما عادت ود حامد قبل ثلاثين سنة. ظهرت أجيال جديدة ومطالب جديدة. زمان كان لما الباخرة تظهر الناس يتلموا تحت الدومة ويتفرجوا عليها كأنها معجزة. دلوقت الوضع تغير"^١

فهذا يدل على الرفض لنظرية التفويض الإلهي للسلطة وهو أن الحاكم يستمد قوته من الإله وهو ممثله في الأرض. لذلك كل أفعاله لا يمكن محاسبته عليها لأنها منزلة من الله. هذه النظرة أرادها الطيب صالح أن تزول وتتغير إلى ما هو أحسن وأفضل.

وفي الجزء الثاني تشتد هذه التغييرات، فيتولى بعد ذلك جيل الشباب زمام الأمر من أيدي الشيوخ، ويودون إدخال التحديث في القرية ومعالجة المشاكل المصاحبة، وتصف مريم، وهي شخصية بارزة في الرواية، التغيير الكبير الذي طرأ على القرية وخاصة في أنظار أولئك الذين يتمسكون بالنفور من القديم ويدعون إلى التمسك بالجديد وتشجيعه، وإن عوامل التقدم فتعتبرها مريم إحدى الأحلام التي تسعى إلى تحقيقها كما تقول للراوي الذي هو حبيبها أيضاً: "تسكن البندر سامع؟ البندر الموية بالأنابيب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد، فاهم؟ أتمبيلات

^١ نفس المصدر ص ١٠١

وتطورات، أسباليات ومدارس وحاجات وحاجات، البندر، فاهم؟ الله يلعن ود حامد
بحم ورماد، فيها المرض والموت ووجع الرأس، أولادنا كلهم يطلعوا أفندية، فاهم؟
زراعة أبدا، وحياء محبوب أخوي زراعة ما نزرعها أبدا.^١ فإنه من الملاحظ أن
مريم هي الفتاة المثقفة الوحيدة في القرية هي أيضا تود التطور والتقدم، وتسعى إلى
التغيير نحو الأفضل. ونجد في رواياته مناحي عديدة من الحياة التي تمثل علاقة
الشرق بالغرب ونظرة الأخير إلى الشرق واستعباده والصراع المتواتر بين الحضارات
والثقافات والآثار السيئة والأزمات المتوالية على المجتمع العربي والشخصيات في
رواياته توجي إلى قضايا سياسية واجتماعية.

^١ مريود ص ٦٦

الفصل الرابع

التقييم الفني لروايات الطيب صالح

إنه من المعلوم أن الطيب صالح نهل من منهل الثقافة العربية والغربية وعاش في بريطانيا بشكل دائم تقريبا ولم يعد إلى السودان إلا في زيارات قصيرة، فكان لهذه الحقيقة تأثير كبير على كتاباته من ناحية الفن والأسلوب، وسنتكلم عن أسلوبه وفنه. فالطيب صالح يمتاز باستخدام الاسترجاع وتيار الشعور والمفارقة الزمنية في أعماله الأدبية كلها، إنه كمن اطلع على الأدب الأوروبي عامة والأدب الانجليزي خاصة، تأثر بشكل عميق بتيار الوعي الذي أعرب عنه في أعماله الأدبية، وأن ثقافته الواسعة وصلته العميقة بالتراث العربي والإسلامي والسوداني لها وزن خاص حين يصف القرويين، وطراز حياتهم، وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم.¹

فيتجلى في رواياته أثر البيئة الريفية السودانية، ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية: أولها نشأته في قريته السودانية، والثاني أن غربته لسنوات طويلة قد عمقت في نفسه هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكثفت اعتزازه بها، والثالث أن غربته قد منحته الفرصة لإمعان النظر واستقراء دقائق الحياة في تلك البيئة الريفية ومواطنيها الطبيعيين.

فظل الطيب صالح لصيقا ببيئته الريفية على شاطئ النيل، وهو يمثلها في الكثير من المواقف في كل أعماله الروائية. فأثر البيئة السودانية واضح جلي في أسلوبه حيث إنه صوّرها باللغة الشاعرية الموحية وبتشبيهات مبدعة تصويرا

¹كتابات سودانية، العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ ص ٦٩

بارعا، ومن الأمثال الإبداعية التي تدل على التصاق الطيب الحميم بالبيئة السودانية وقدرته على استكشاف عبقرية اللغة العربية للتعبير عنها: "وقدنتفتح جمالها فجأة كما تتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ. كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد."^١

وجاء في موضع آخر:

"رائحة الأرض الآن تملأ أنفك، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح. الأرض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطوي على سر عظيم. كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد لملاقاة بعلمها."^٢ ومثال آخر لذلك:

"الليلة كل شاب عاشق، وكل امرأة أنثى، وكل رجل أبو زيد الهلالي. الليلة كل شئ حي، فاح العبير، وتم السرور، وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار، كل غصن تنثى، وكل نهد ارتعش، وكل طرف كحيل، وكل خد أسيل، وكل قم عسل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل، وكل الناس ضو البيت."^٣

هكذا كان التصاق الطيب صالح بالبيئة، والتعبير عنها بهذه اللغة الشاعرية المبدعة المنفردة. ويقول عن هذه الحقيقة:

"ربما قد يكون الشعر حاضرا في كل ما كتبت منذ البداية، ويظهر هذا بوضوح في أسلوبه الذي نميته وتعودت عليه والذي يكشف عن حبه للشعر، ويؤكد أيضا محبته للغة العربية التي هي لغة شعرية بطبيعتها. وإذا اعتنى الكاتب

^١ عرس الزين ص ١٩

^٢ نفس المصدر ص ٣٤

^٣ بندرشاه، ضو البيت ص ١٣٩

-أي كاتب في اعتقادي- باللغة، بلغته، فلا مفر من أن يجد نفسه يكتب كتابة يمكن أن توصف بأنها شعرية.^١

فالشعر طاغ على رواياته لكثرة ما فيها من تركيز وإيحاء وصور رائعة أخاذة. ويمتاز الطيب صالح في بناء شخصيات رواياته، وهذا الفن الروائي الرفيع الذي لا يستطيع رسمه إلا قليل من الروائيين المبدعين الذين يمتلكون هذه القدرة على بناء الشخصيات ورسمها. كما يقول الطيب صالح: "كل كاتب يستحق اسمه لا بد أن يكون قادرا على خلق شخصياته، وابتكار أجواء وأشكال من حياة ليست بالضرورة مستقاة من حياته الشخصية."^٢ ومن أبرز هذه الشخصيات الزين ومصطفى سعيد. وهناك شخصيات أخرى مثل محجوب، وسيف الدين، والطريفي، ولد بكري، وود الريس، وبننت مجذوب، وعبد الحفيظ، وود الطاهر، وود الرواسي، وسعيد البوم، وشيخ عبد الصمد، ومحميد، وإبراهيم ود طه، وشيخ علي، والإمام ومريود وغيرهم.

ومن أبرز الخصائص الأدبية لروايات الطيب صالح هي وضوح لغتها ورزانتها وتماسكها القوي فهو يكتب السهل الممتع الذي يصل إلى عقلك وقلبك بسهولة، إنه حافظ على فصاحة العبارة في السرد، فلم يستعمل إلا التعابير الخاصة من الواقع في الحياة السودانية خاصة أو العربية عامة، لكنه استخدم الحوار بالعامية السودانية على أسنة الشخصيات جميعها.

^١موقع مكتبة خالدية

^٢الطيب صالح.. النموذج لامتلاك أدوات الإبداع الروائي، د- حسن أبشر الطيب، موقع المعرفة

وكذلك يستخدم الطيب صالح قصص الأساطير والمعجزات على نطاق واسع، وهذه القصص تتعلق بالأولياء والشيخوخة في أعماله، مثل الزين والحنين في رواية عرس الزين وضوء البيت في رواية بندرشاه. ويمتاز الطيب صالح بأسلوبه الفني الذي يتصف بنوع من الغموض، كما نرى في شخصية مصطفى سعيد الذي هو إنسانٌ خالٍ تماما من المرح ومنشغل بنفسه وبحزنه يثير فضول القارئ كما أثار فضول الراوي، فيبحثان عن سره، وهذا مصطفى سعيد يستمع بصمت أكثر مما يتكلم ويبتسم ابتسامة غامضة، إنه غريب جاء إلى القرية قبل خمس سنوات، اشترى أرضا وبنى بيتا وتزوج من حسنة بنت محمود، وله عقل كأنه مديّة حادة تقطع في برودة وفعالية، ويتلو شعرا إنجليزيا من نشوة الخمر ويصر على عدم البوح بأسراره، ويزداد هذا الغموض عندما يترك رسالة للراوي يوصيه فيها بولديه وماله قبل أن يموت غرقا أو انتحارا. فهذا هو أسلوب الطيب صالح الفريد من نوعه.^١

ومما يضيف في خلق مناخ من الغموض خاصة في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" تلك الصور والرموز الفريدة وغير المألوفة التي تحفل بها لغة الطيب صالح، وهي صور ورموز أصلية مستمدة من واقعه الخاص هو تماما كمصطفى سعيد يصور الأشياء بشكل غريب، كما يقول: "ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته ورأيتي، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده، وفي الصباح قلعت الأوتاد وأسرجت

^١كتابات سودانية العدد ٤٧ أبريل ٢٠٠٩م ص ١٠٩

بعيري، وواصلت رحلتي، وفكرت في القاهرة... فتخيلها عقلي جبلا آخر.. سأبيت

عنده ليلة أو ليلتين، ثم أواصل الرحلة إلى غاية أخرى.^١

ويمتاز الطيب صالح بقدرته على التنويع في وصف شئ واحد، كما نرى

كيف يضحك الناس بعد مصالحة سعيد المسن مع زوجته: "أحمد إسماعيل يكركر

بضحك يزمجر بين بطنه و صدره. ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة

بلسانه. وعبد الحفيظ يضحك كالطفل. وحمد ود الرئيس يضحك بجسمه كله وخاصة

رجليه، والظاهر الرواسي يمسك رأسه بجماع يديه حين يضحك. وكان سعيد في

دكانه، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب.^٢ والتنويع

في وصف شخصيات العصابة فيه إبداع ودقة ومعرفة بالطبائع البشرية.

ويتميز أسلوب الطيب صالح بالاسترجاع الفني، والسخرية المتعاطفة والمرح

المعتدل، والمفارقة الزمنية، فإنه يؤخر شيئاً يجب تقديمه ثم يذكر متأخراً ما حدث

في السابق، وله طراز بديع يمكن أن يميز بين أساليب كثيرة، كأنه أطياف شعر في

لغة سهلة حلوة. وكذلك نجد في رواياته كل شئ يحتاج إليه الفن، فعبارتها جميلة

تعتمد على لغة عربية في غاية الصفاء والأناقة والشاعرية، وإنها لغة ناصعة وغنية

بالأضواء والظلال، واستعان فيها الطيب صالح بروح اللهجة العامية وحافظ على

السياغة الفصيحة البسيطة.

^١ موسم الهجرة إلى الشمال ص ٢٨

^٢ عرس الزين، ص ٨٢

الخاتمة

تعتبر الرواية من أقدر الأجناس الأدبية على معالجة القضايا الاجتماعية المعاصرة فهي تعد من أوسع الأنواع الأدبية انتشارا وتداولاً وأكثرها قبولا لدى الناس في العالم لأن معيارها الفني يشمل أساليب التعبير الشعرية والقصصية والدرامية ويضيف إليها تصوير المجتمع والتعبير عن ضمير الإنسان وأشواقه ومصيره وإحساسه ومشاعره ، فتتزايد أهميتها على مرور الأيام بفضل صياغتها الفنية حتى أصبحت اليوم طاقة سياسية واجتماعية هامة تعبر عن روح الأمة ومشكلاتها وطموحاتها.

لا شك في أن الرواية تعد من الفنون الحديثة التي دخلت في الأدب العربي من جملة ما دخل في حياة العرب من مظاهر الحضارة الغربية وآثارها وأصبحت ذات أهمية متزايدة يوما بعد يوم بفضل خصائصها الفنية، وبلغت ذروة نضجها وازدهارها في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، فليست الرواية العربية اليوم أقل حضا من الأعمال الروائية في باقي أقطار العالم في رصد التحولات الاجتماعية والتغيرات الثقافية ومعالجة القضايا التي تهتم بها الإنسان وطرح الحلول للمشكلات التي تتعلق بوجوده.

وفيما يخص بالسودان، فهي دولة في قارة إفريقيا، وإن قارة إفريقيا قارة إسلامية كما يقول عنها الغربيون، لها دور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية

في كل أنحاء العالم، وفي هذه القارة توجد جمهورية السودان الذي بالأسف انشق عنه إقليم الجنوب في التاسع من شهر يوليو عام ٢٠١١م بمؤامرة غربية وبالأخص الصهيونية، وإنها كارثة عظيمة لدولة السودان التي يعيش معظم أبناءها تحت خط الفقر بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة.

وحيثما نلقي نظرة عابرة على تاريخ السودان خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نجدتطورا سياسيا مهما يتمثل في اندلاع ثورة وطنية ضد حكم محمد علي باشا وخلفائه بقيادة محمد أحمد المهدي، ثم بدأ بعد ذلك عهد جديد في تاريخ السودان دام أكثر من نصف قرن، وذلك باستيلاء الاستعمار الثنائي المصري والبريطاني عليه بتوقيع اتفاقية في ١٩ يناير عام ١٨٩٩م بين الحكومتين المصرية والبريطانية، وكان بموجب هذه الاتفاقية السيادة المشتركة عليه، ولكن في الواقع كان السودان تحت السيطرة البريطانية بشكل كامل وأن الشراكة المصرية كانت رمزية بالاسم فقط، وشهد السودان استغلال الاستعمار لأهله، لم تهتم حكومة السودان برفع مستوى السكان أو التقدم بهم إلى استقلالهم الذاتي، ولم يكن لهم أي نصيب في الحكم على السودان بأي شكل من الأشكال، وكانت أبواب المناصب العالية مغلقة أمامهم تماما، وكان الإنجليز هم الذين يحتلون هذه المناصب العالية.

وبالرغم من كل ذلك ظهرت بعض المحاولات الروائية العربية إبان الاحتلال
الثنائي البريطاني والمصري، ولعبت تلك المحاولات الروائية الأولية دورا أساسيا في
تطوير الفن الروائي في الأدب العربي في السودان.

في نظرة عابرة على خريطة الرواية العربية السودانية يتجلى لنا أنها كانت
تتلمس وتبحث عن طريقها إلى غاياتها المرسومة قبل فترة الاستقلال التي تعد فترة
البدايات في تاريخ الرواية العربية السودانية حيث ظهرت روايات عديدة على يد
روادها، وفي هذه الفترة كان الاتجاه الرومانسي يتغلب عليها، وتتقصها جوانب
فنية.

أما فترة الستينات من القرن العشرين فهي تعتبر فترة التطور والنضج والقفزة
الحقيقية للنهوض بالفن الروائي في السودان إذ أنها شهدت التغيرات الاجتماعية
والتحولات السياسية في جميع أرجاء البلاد التي مهدت السبيل لظهور الصحف
والمجلات التي ساعدت في تحسين الأوضاع الاجتماعية وإرساء دعائم النهضة
الأدبية الحديثة في السودان وأدت هذه التحولات الثقافية والاجتماعية إلى تحولات
فنية في مسيرة الرواية، فأصبحت تتطور الرواية العربية السودانية تطورا واسعا، وفي
هذه الفترة برز عدد كبير من الكتاب السودانيين البارعين الذين قد رصدوا هذه
التحولات الاجتماعية الفكرية وأوصلوا الرواية العربية السودانية من البدايات
المتواضعة إلى مرحلة النضج الفني.

الرواية العربية السودانية كانت تتناول القضايا الاجتماعية انطلاقاً من قضية الزواج ومروراً بقضية الزواج العرفي والفقر والجهل والحرية والرق والمرض إلى السياسة، والقضايا الأخرى المرتبطة بالمجتمع السوداني.

أحدثت الرواية السودانية نقلة نوعية في تقنيات الكتابة الروائية، وخاصة روايات الطيب صالح، روايته الأولى عرس الزين تقدم لنا مجتمعا متصالحا ومتسامحا رغم الصراع الطبقي، وروايته الثانية موسم الهجرة إلى الشمال من أروع الروايات العربية، واختيرت ضمن أفضل مائة رواية في التاريخ البشري.

تتناول هذه الرواية قضية الصراع المعقدة بين الحضارتين الشرقية والغربية بصورة عامة، وهي أولى الروايات العربية التي عالجت قضية الصدام الحضاري بشكل فني راق، وكذلك موقف إنساندول العالم الثالث النامي تجاه العالم الأول المتقدم، بينما أعرب عن هذه القضية كثير من كبار الكتاب العرب قبل الطيب صالح، منهم: توفيق الحكيم في روايته عصفور من الشرق، ويحيى حقي في روايته "قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس في الحي اللاتيني إلا أن الطيب صالح قد عالج هذه الفكرة والقضية بشكل أعمق من الآخرين.

ظهرت رواية رماد الماء عام ٢٠٠٠م للأستاذ عبد العزيز بركة ساكن وهي تحمل بين دفتيها موضوعا حساسا ومثيرا وهو إنفصال جنوب السودان، فهذه الرواية رثاء مريير على عتبات الموت ونبؤة عن الإنفصال الذي حدث مؤخرا، تنبأ به الكاتب الأستاذ عبد العزيز بركة مبكرا قبل وقوعه بسنين.

نشرت رواية صائد اليرقات للكاتب البارز والأديب السوداني العالمي أمير تاج السر عام ٢٠١٠م، ركز فيها على الحالة المزرية للفن الروائي العربي وما يتعرض له من تشويه من قبل مجموعة من الروائيين الذين يمتنون الكتابة الأدبية ويتخذونها وسيلة للكسب والظهور من غير تقديم شيء جديد يضيف في رصيد القارئ أو المكتبة العربية مستغلين وسائل الإعلام وطرق الدعاية المختلفة، ونقد حاد للواقع المؤسف جدا في عالم الرواية العربية ومسيرتها النيرة.

منازل عديد ومواقف ساخرة وقف عندها الكاتب أمير تاج السر ليروي لنا واقعا مؤلما أحزنه وأهمه، فحاول إبرازه عن طريق روايته هذه ليكشف عن مآسٍ عديدة في مجتمع إنساني يفيض بالتناقض، فينتقده متهمكا في عبارات عفوية هادئة، تكشف في كل عبارة واقعا جديداً تخبئ في سطورهِ حقيقة ما لم ينتبه لها الكثير من أمثاله.

حاول الكاتب أمير كاتب السر من خلال روايته صائد اليرقات إبراز قضية هامة على الساحة الأدبية، وهي تشويه الثقافة من خلال الحروف والكلمات وعدم إكتراث الأدباء بتقديم شيء نافع جديد هادف يخدم مصالح الأمة العربية بوجه خاص والمجتمع الإنساني بوجه عام.

وكذلك تعرض غلبة المادة والمادية وعدم فصوح الهوية وغياب الهدف النبيل وانحطاط الفكر وانتشار الرذيلة في الكتابات الأدبية، وتكشف سطحية العقل العربي أسفا من خلال حبكة روائية فريدة.

كانت الرواية السودانية في جميع مراحل نشئتها وتطورها وازدهارها مرتبطة بالمجتمع، وتناولت العديد من همومه ومشاكله وصراعاته الفكرية والنفسية والثقافية والعاطفية، وأسهمت إلى حد كبير في تغيير الواقع المعاش.

واهتم الأدباء السودانيون بالرواية مبكرا وقدموا نماذج عديدة للمجتمع السوداني من خلال الجانب الواقعي والإجتماعي، وراعوا التقاليد السودانية في عرضه وتقديمه، وتأثرت الرواية السودانية وما تزال بالمدرسة الواقعية خاصة بالواقعية الاجتماعية، لأن ما يحدث من تفاعل وتطور في المجتمع السوداني يتطلب ذلك.

وقد كتب معظم الروائيين السودانيون تحت هذه المدرسة الواقعية الاجتماعية.

بالرغم من ذلك لم تحظ الرواية العربية السودانية بشعبية كبيرة لدى الدارسين والباحثين سوى روايات الطيب صالح، ويرجع ذلك إلى عدم وصولها إليهم بسبب صعوبة نشرها أو أنهم لم يهتموا بها اهتماما يذكر.

ثبت المصادر والمراجع

- ١ - إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٢ - أبوبكر خالد، رواية القفز فوق الحائط القصير، دار الهلال للطباعة، الخرطوم، ١٩٧٦م.
- ٣ - أحمد محمد البدوي، الطيب صالح سيرة كاتب ونص، الدار الثقافية للنشر.
- ٤ - أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، دار المعارف، الطبعة السادسة، ١٩٩٤م.
- ٥ - أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر، ١٩٩٤م.
- ٦ - إسماعيل أحمد ياغي، والشيخ محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر قارة أفريقيا، طبعة ثالثة، مكتبة العبيكان، ٢٠٠١م.
- ٧ - أمير تاج السر، رواية صائد اليرقات، ثقافة للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ٨ - أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في عصر النهضة العربية الحديثة، بيروت، ١٩٧٧م.

- ٩ - بابكر الأمين الدرديري، من تاريخ الرواية السودانية الحديثة، الخرطوم، ١٩٧٧م.
- ١٠ - بشير محمد سعيد، الزعيم الأزهري وعصره، القاهرة الحديثة للطباعة، ١٩٩٠م.
- ١١ - بشير محمد سعيد، الزعيم الأزهري وعصره، القاهرة الحديثة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ١٢ - حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي.
- ١٣ - حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، الجزء الأول، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٢م.
- ١٤ - حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٢م.
- ١٥ - حمدنا الله مصطفى حسن، التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، الطبعة الأولى، دار المعارف قاهرة، ١٩٨٥م.
- ١٦ - حمدي السكوت، الرواية العربية ببليوجرافيا ومدخل نقدي، المجلد الأول، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة - نيويورك.
- ١٧ - رأفت غنيمي الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩١م.
- ١٨ - سهيل إدريس، رواية الحي اللاتيني، دار الأدب، ٢٠٠٢م.

- ١٩ - سهيل ادريس، محاضرات عن القصة في لبنان ١٩٧٥م.
- ٢٠ - سيد حامد نساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.
- ٢١ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، طبعة أولى، دار المعارف القاهرة.
- ٢٢ - صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ٢٣ - طه وادي، مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية، الطبعة الثانية، دار النشر للجامعات، ١٩٩٧م.
- ٢٤ - الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، أعده مجموعة من الكتاب العرب، دار العودة بيروت، ١٩٨٤م.
- ٢٥ - الطيب صالح، بندرشاه، (المكونة من جزئين: ضوء البيت، و مريود) الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٦ - الطيب صالح، عرس الزين، الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢٧ - الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، الطبعة الرابعة عشر دار العودة، بيروت ١٩٨٧م.
- ٢٨ - عبد العزيز بركة ساكن، رماد الماء، الطبعة الثانية، آفاق عربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١م.

- ٢٩ - عبد العزيز بركة ساكن، رواية رماد الماء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- ٣٠ - عبد الله الطيب، الأحاجي السودانية، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ١٩٧٨ م.
- ٣١ - عبد الله عبد الرازق إبراهيم والدكتور شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧ م.
- ٣٢ - عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧ م.
- ٣٣ - عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، دارالمعارف بمصر ١٩٦٣ م.
- ٣٤ - عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة، الطبعة الثالثة، دارالمعارف، ١٩٧٦ م.
- ٣٥ - عزيزة مريدن، القصة والرواية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠ م.
- ٣٦ - عمر الحميدي، رواية جزيرة العوض، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الأولى.
- ٣٧ - كتابات سودانية، العدد الخاص، ٤٧ أبريل ٢٠٠٩ م، الصادر من مركز الدراسات السودانية.

- ٣٨ - محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ السودان، نعوم شقير، تحقيق وتقديم، دار الجيل بيروت، ١٩٨١م.
- ٣٩ - محمد أحمد محجوب، نحو الغد، الخرطوم، ١٩٧٠م.
- ٤٠ - محمد المكي إبراهيم، الفكر السوداني أصوله وتطوره، الخرطوم، ١٩٧٠م.
- ٤١ - محمد المكي إبراهيم، الفكر السوداني: أصوله وتطوره، الخرطوم، ١٩٧٠م.
- ٤٢ - محمد بشير، مؤتمر الخريجين، الخرطوم، ١٩٨٨م.
- ٤٣ - محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، ١٩٩٨م.
- ٤٤ - محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، الخرطوم، ١٩٩٣م.
- ٤٥ - محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث، الخرطوم، العمل، ١٩٩٣م.
- ٤٦ - محمد عمر بشير، تاريخ الحركة الوطنية في السودان ١٩٠٠-١٩٦٩،
الدار السودانية للكتب، خرطوم، ١٩٨٠م.
- ٤٧ - محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ السودان الحديث والمعاصر،
جامعة الإسكندرية، ١٩٩٨م.
- ٤٨ - مختار عجوية، القصة الحديثة في السودان، مركز الدراسات السودانية
بالقاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- ٤٩ - ملكة الدار محمد عبد الله، رواية الفراغ العريض، المجلس القومي لرعاية
الآداب و الفنون، السودان، ١٩٧٠م.

- ٥٠ - يحيى حقي، رواية قنديل أم هاشم، مكتبة الإسكندرية، مصر.
- ٥١ - يوسف حسن، الدين والسياسة في السودان، دار الأمين للنشر والتوزيع،
قاهرة، ٢٠٠١م.
- ٥٢ - طه وادي، دراسة في نقد الرواية، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة،
١٩٩٤م.
- ٥٣ - صلاح السر الختم، الينابيع السحرية ومسرات الخيال: لمحات من روايات
أمير تاج السر، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٦.
- 54- Ahmad Ibrahim Usman, In praise of the Prophet: The Performance and Thematic composition of the Sudanese Religious Oral Poetry, 1990.
- 55- A. Nasr, Popular Islam in Al-Tayyyib Salih, Vol. XI, 1980.
- 56- Cachia Pierre, An Overview of Modern Arabic literature, Edinburg, 1990.
- 57- Chinua Achebe, An Image of Africa, The Massachusetts Review, Vol. 18, 1977.

- 58– Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, Tayeb Salih's Season of Migration to the North, An Ideo-Literary Evaluation, Board of Islamic Publication, New Delhi, 2001.
- 59– Elsir Hassan Fadl, Their Finest Days, London, 1969.
- 60– Evelyne Accad, Sexual Politics: Women in Season of Migration to the North, Beirut, 1985.
- 61– F.F. Gadalla, Egyptian contribution to Nubian Christianity in Sudan, 1959.
- 62– Gabriel R. Warburg, The Sharia in Sudan: Implementation & Repercussion, Middle East Journal, Vol. 44.
- 63– Hamdi Sakkut, Egyptian Novel & its Main Trends, American University, Cairo, 1971.
- 64– J. S. Trimingham, Islam in Sudan, London, Oxford, 1949.
- 65– M.M. Badavi, A Short History of Modern Arabic Literature, Clarendon press, Oxford, 1993.
- 66– Moosa Matti, Origins of Modern Arabic Fiction, Lynne Rienner Publishers, 1997.

67- Micah A. Hughes, Representatio of Identity in Three Modern Arabic Novels, Colonial Academic Alliance Undergraduate Research Journal, Vol. 2, Issue, 1, 2011.

68- Roger Allen, Modern Arabic Literature, a library of literary criticism, New York, 1987.

69- Stanton E.A.E., The People of the Anglo-Egyptian Sudan, Journal of African Society, Vol. 2, 1903.

70- Y.F. Hassan, The Arabs and the Sudan, Edinbargh, 1967.

71- Yusuf Fadl Hasan, The Sudanese Revolution of October, 1964.

١ - جريدة "المدينة" الصادرة من العربية السعودية، رقم العدد، الأربعاء ٢٥ فبراير ٢٠٠٩م.

٢ - جريدة "المدينة" الصادرة من العربية السعودية، رقم العدد، الأربعاء ٢٦ أغسطس ٢٠٠٩م.

٣ - جريدة "عكاظ" الصادرة من العربية السعودية، رقم العدد ١٥٥١٩، السبت ٢١ فبراير ٢٠٠٩م.

- ٤ - مجلة "العربي" الصادرة من قبل وزارة الإعلام بدولة الكويت، رقم العدد ٥٦٠، يوليو ٢٠٠٥م.
- ٥ - مجلة "النهضة" عدد ٤، ٢٠١١، الصادرة من ولاية كيرالا، الهند.
- ٦ - جريدة "عكاظ" الصادرة من العربية السعودية، رقم العدد ١٥٥٦٧، الجمعة ١٠ أبريل ٢٠٠٩م.
- ٧ - قراءة نقدية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مقالة كتبها الدكتور مجيب الرحمن.
- ٨ - مسار الرواية السودانية، عثمان شنقر.
- ٩ - الرواية العربية الحديثة: جذورها، تطوراتها، اتجاهاتها، حميد أكبري، طهران.
- ١٠ - حول الأدب السوداني، أحمد الشريف.
- ١١ - الرواية السودانية كوثيقة اجتماعية، مبارك الصادق.
- ١٢ - المشهد الروائي في السودان، جريدة "المدينة" الصادرة من العربية السعودية، رقم العدد ١٩٤٤٢.
- ١٣ - صورة المرأة في الرواية السودانية يسبقها الواقع بأشواط، شذى مصطفى، الصادرة في الشرق الأوسط، العدد، ١٠٠٧٤.
- ١٤ - من تاريخ الرواية السودانية الحديثة، مجلة الثقافة السودانية الحديثة، ١، ٢، ١٩٧٧م.

- ١٥ - الرواية العربية الحديثة: نشأتها وتطورها، سوسن باقري، موقع ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب.
- ١٦ - رواية الحي اللاتيني قراءة في العلاقات، محمد رشد، موقع ديوان العرب.
- ١٧ - ملامح تاريخ القصة القصيرة في السودان، الشفيق عمر حسنين، مجلة البيان الإماراتية، العدد، ١٥ يناير ٢٠٠٦م.
- ١٨ - التراث الشعبي لقبيلة المناصير، الطيب محمد الطيب، عبد السلام سليمان، علي سعد، جامعة الخرطوم، ١٩٦٩م.
- ١٩ - جذور المشكلات السياسية في السودان، د. خيرى عمر، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٢٠ - شؤون التعليم، السودان الجديد، العدد، ٨٢٩، ١٩٤٩م.
- ٢١ - استنكار المؤامرة الانجليزية بالسودان، الأهرام، ١٩٥٤م.
- ٢٢ - السودان والثقافة العربية، سيد أحمد نقد الله، مجلة القلم، العدد، ٦-٧، ١٩٦٧م.
- ٢٣ - الأحوال السياسية في السودان في نهاية القرن التاسع عشر، أنعم محمد عثمان.
- ٢٤ - تطور التعليم في السودان، المركز العالمي للتعليم جنيف ٢٠٠٨م.
- ٢٥ - التعليم العام في السودان الواقع وآفاق المستقبل، المعتصم عبد الرحيم الحسن، ٢٠٠٧م.
- ٢٦ - موقع ويكيبيديا الحرة

٢٧ - جريدة "الوطن" الصادرة من المملكة العربية السعودية، العدد، ٥٧٢،

٢٠٠٢م.

٢٨ - موقع شبكة المشكاة الإسلامية

٢٩ - موقع المعرفة

٣٠ - موقع مكتبة خالدية

محتويات البحث

١	المقدمة
	الباب الأول: خلفية سياسية واجتماعية وثقافية للسودان خلال القرن العشرين
١٠	الفصل الأول: تاريخ السودان القديم
١٧	الفصل الثاني: الوضع السياسي للسودان في القرن العشرين
٢٩	الفصل الثالث: الوضع الاجتماعي للسودان في القرن العشرين
٤٠	الفصل الرابع: الوضع التعليمي والثقافي للسودان في القرن العشرين
	الباب الثاني: الرواية العربية نشأتها وتطورها في السودان
٤٦	الفصل الأول: نبذة عن تطور الرواية العربية العامة
٧١	الفصل الثاني: تطور الرواية العربية في السودان حتى عام ٢٠١٠م
٩٨	الفصل الثالث: المواضيع والقضايا التي تعالجها الروايات السودانية
١١٤	الفصل الرابع: دراسة مقارنة بين الرواية السودانية والرواية المصرية واللبنانية
	الباب الثالث: دراسة تحليلية لبعض الروايات العربية السودانية المنتخبة
١٣٦	الفصل الأول: رواية " القفز فوق الحائط القصير " لأبي بكر خالد
١٥٠	الفصل الثاني: رواية " الفراغ العريض " لملكة الدار محمد عبد الله
١٦٧	الفصل الثالث: رواية " رماد الماء " لعبد العزيز بركة ساكن
١٩٨	الفصل الرابع: رواية " صائد اليرقات " لأمير تاج السر
	الباب الرابع: دراسة تحليلية لروايات الطيب صالح
٢١٩	الفصل الأول: الطيب صالح حياته العلمية والثقافية
٢٤٧	الفصل الثاني: دراسة تحليلية لروايات الطيب صالح
٢٧١	الفصل الثالث: المواضيع والقضايا التي عالجتها روايات الطيب صالح
٢٨٥	الفصل الرابع: التقييم الفني لروايات الطيب صالح
٢٩٠	الخاتمة
٢٩٦	ثبت المصادر والمراجع

***ARABIC NOVEL IN SUDAN WITH SPECIAL
REFERENCE TO TAYYEB SALIH'S NOVELS
(AN ANALYTICAL STUDY)***

Thesis

*submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of requirement for the
award of the Degree of*

DOCTOR OF PHILOSOPHY

BY

TUFAIL AHMAD

under the supervision of

Prof. MUJEEBUR RAHMAN



Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067
2016